د. خالد أبو الفضل

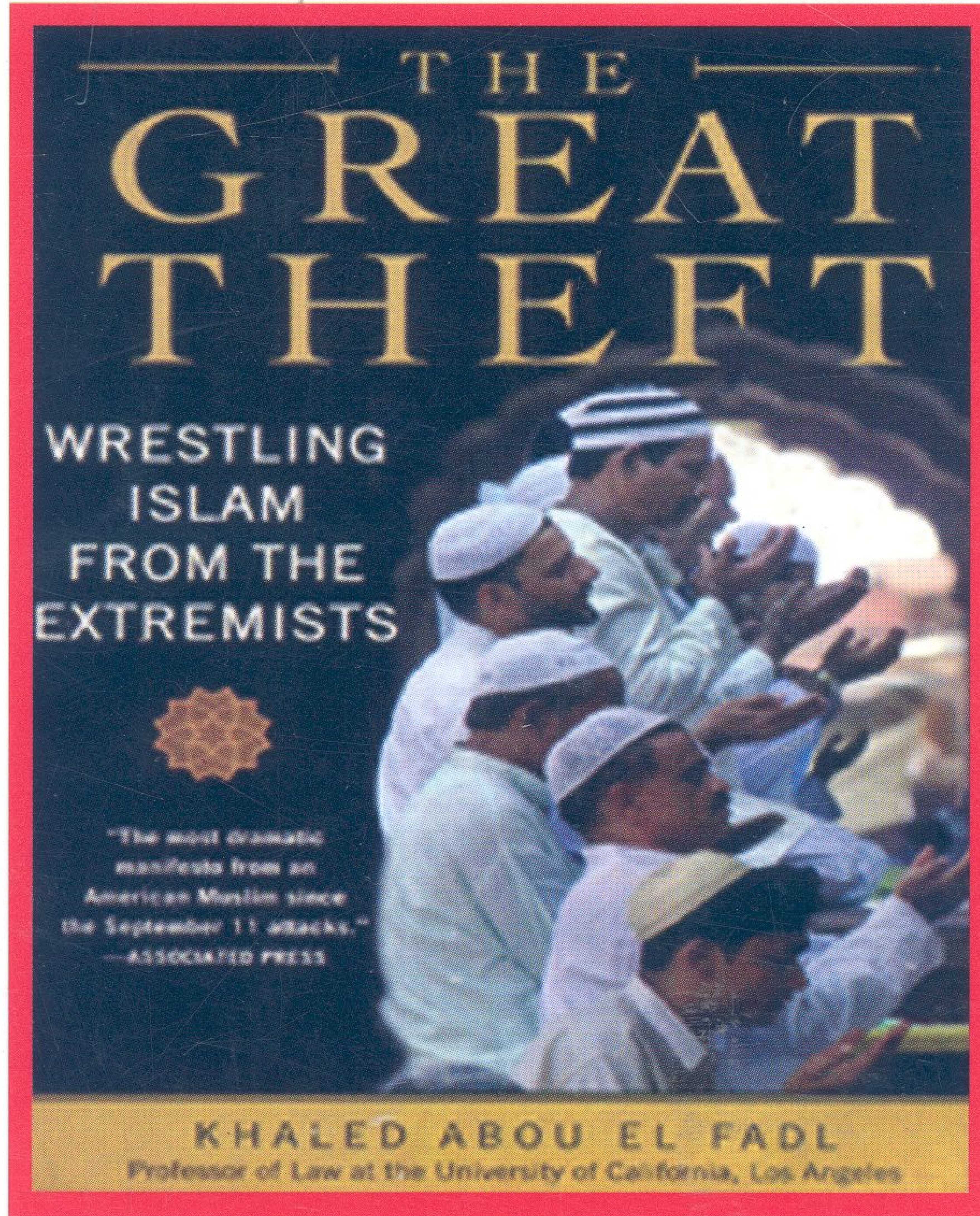
السرقة الكبرى

ترجمة ومراجعة لغوية

علي أحمد عبد اللّه

محاضر بمركز اللغات

بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا «سابقاً»



مكتبة مدبولي

السرقة الكبرى

اسم الكتاب : السرقة الكبرى
اسم المؤلف : الدكتور / خالد أبو الفضل
الطبعة : الاولى
رقم الايداع : ٧٩٧٣ / ٢٠٠٨
الترقيم الدولى : ٠ ـ ٧٤٨ ـ ٢٠٨ ـ ٩٧٧
الناشر : مكتبة مدبولى
٦ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة
ت : ٢٥٧٥٦٤٢١ ف : ٢٥٧٥٢٨٥٤
Web site : www.madboulybooks.com
E_ mail : info@madboulybooks.com

السرقة الكبرى

تأليف:

الدكتور/ خالد ابو الفضل

مكتبة مدبولى
٢٠٠٨

محتويات الكتاب

المقدمة

قام مؤخرًا كاتب معروف بعدائه للإسلام بكتابة مقال يتهمني فيه بأنني إسلامي مندس بين صفوف المعتدلين، وأعتقد أنه يقصد بهذا أنني على الرغم من تظاهري بأنني مسلم معتدل، إلا أنني في الحقيقة متطرف وأخطط لعمل عسكري (تخريبي)، واللهجة التي يفوح منها التآمر الخفي الذي ينتشر في المقال، كادت أن تحول المقال إلى شك في الآخرين، وهو شك أقرب إلى الجنون، ومع أن المقال قد وجّه إليّ هجومًا ساخرًا، فهو أيضاً قد أثار قضايا صارت بعد ذلك أمورًا ذات أهمية عامة، وعلى وجه الخصوص، موضوع مصداقية الصوت المسلم في الغرب، والقضية التي أثارها المقال والمشكلة التي أصبحت ذات أهمية كبرى هي: متى يمثل المسلمون - بصدق- حقيقة واقع معتقداتهم ؟! وإن الذي ساهم في هذا الارتباك هو قلة النقاط الواضحة والفاصلة بين التطرف والاعتدال في الإسلام. وحيث إنه ليس من المتوقع أن يصف مسلم نفسه أو نفسها بأنه متطرف، فكيف - إذن - نعرف بحق ما إذا كان كاتب مسلم بعينه أو جماعة مسلمة بعينها يعتنقون مذاهب ومعتقدات، أهذه المذاهب والمعتقدات متعصبة أم غير متعصبة؟ الأكثر إلحاحًا هو أهمية ذلك السؤال الذي يفرض نفسه، والذي أثاره المقال الذي هاجمني، ألا وهو: من في الغرب أو في الولايات المتحدة يملك أن يقرر ما يمكن اعتباره معتقدات متعصبة أو متطرفة عسكرية ؟ وما يعتبر - في المقابل- معتقدات معتدلة ومعقولة ومقبولة؟. ولقد تم نشر ما يمكن وصفه بسيل من المنشورات تتعلق بالمسلمين ومعتقداتهم وانتماءاتهم، خاصة في أعقاب حادث الحادي عشر من سبتمبر. وللحق أقول إنه لم يحدث من قبل مثل هذا الجدل حول المسلمين ومعتقداتهم وحول الإسلام وشرعيته. فعلى الرغم من تأكيدات الرئيس "جورج بوش" بأن الإسلام دين سلام وأن المسلمين أشخاص محبون للسلام، وعلى الرغم من تأكيداته على تعطش المسلمين الحق للديمقراطية،

إلا أنه ما يزال الجدل مستمرًا، ويبدو أن الكثيرين من غير المسلمين في الغرب لا يرغبون في ترك الأمور كما هي وتجاوزها. بل إنه مما يغذى هذا الجدل – وبشكل كبير– إنما هو سيل المواد المطبوعة، والأفراد الذين يتكلمون دون وعي ويملأون الساحة معظم الوقت بعبارات عشوائية ومتناقضة حول الإسلام العسكري والإسلام المتطرف والإسلام السياسي والإسلام التحرري وما يسمى بالإسلام المعتدل، وإنه مما يجعل الأمور تزداد سوءًا ويضيف لحالة الفوضى، وجود أولئك العلماء الذين يناشدون الناس توخي الحذر تجاه الخطب الهدامة والدوافع الخفية والمكائد الشريرة والشرق أوسطيين المخادعين. وعند التعرض لموضوع الإسلام سنجد العديد من المصالح السياسية على الساحة، وكما يعلمنا التاريخ – دومًا– فإنه لا يوجد ما يفسد الدين قدر ما تفسده السياسة. غير أن هذا لا يعني القول بأن الإسلام كدين قد أفسدته السياسة، ولكنني أقول إن السياسة والمصالح السياسية قد شوشتنا وأفسدتنا قدرتنا على رؤية الإسلام كدين يعتنقه أكثر من مليار تابع لهذا الدين في العالم. فالإسلام هو ثاني أكبر دين في العالم، والحقيقة أنه بالنسبة للديمقراطيات العلمانية والليبرالية، فإن الإسلام قد أصبح اختيار الملايين، وبغض النظر عن المدى الذي قد تصل إليه كراهية المتعصبين من المسيحيين واليهود لهذه الحقيقة، فإن الإسلام سيستمر ملهمًا وموجهًا لمعتقدات وأفعال الملايين من المؤمنين به في كل دولة متقدمة ونامية في العالم. والسؤال الوحيد الآن هو: ما هي السمة أو الطابع المعين للإسلام أو النوع الذي سيسود ويسيطر على كل موقف؟

لقد أصبحت ضرورة استيعاب الإسلام أمرًا إلزاميًا لا يمكن التغافل عنه؛ لأن بلوغ مثل ذلك الفهم سيحدد نوع البشر، مـن يكونـون؟ متـسامحون أم متعصبون؟ متفتحون أم جهلة؟. وأثناء قيامي بالتدريس يسألني عادة الطلاب

غير المسلمين – بحسن نية– كيف نستطيع أن نسهم في التعايش بسلام مع المسلمين؟

وإجابتي هي: فقط مقاومة الإغراءات لتصديق أولئك الذين يبثون الكراهية، والتي تكمن في الانفعالات الخارجة عن السيطرة، وعلى أن التدبر في تصفيات الحساب التاريخية الحتمية بين الخصوم، قد صنعت من قبل الكثير. وفي معظم الحالات فإن مثل هذه اللغة والنماذج كانت بديلاً كسولاً عن العمل الجاد لبلوغ فهم حقيقي.

لا أحد يولد مملوءًا بالكراهية والغضب. وفي العادة فإن ما يظهر على أنه كراهية إنما هو في واقع الأمر توجس وخوف خفيان. والاختيار الأخلاقي الوحيد المقبول في وضعنا هذا هو السعي لفهم الأمور.

لكن المشكلة تكمن في أن هناك عناصر تجعل فهم وضع المسلمين الحالي مسألة صعبة تتطلب جهدًا، وإن أول وأهم الأشياء التي يعتبر فهمها أمرًا ضروريًا هي تلك التي يمكن تسميتها بالأعمال المشينة التي تحيط بالمسلمين.

ومع أن الشيء الأساسي هو أن الغالبية العظمى من المسلمين ليسوا إرهابيين ولا يتغاضون عن الإرهاب، إلا أنه لا يكاد يمر وقت دون أن نرى في نشرات الأخبار حديثًا عن إحدى الجماعات الإرهابية المسلمة، وعن قيامها – كالعادة – بأعمال عنف تهز العالم. وبالنسبة لهؤلاء الذين يستقون معلوماتهم عن الإسلام من خلال وسائل الإعلام، فإن تلك الوسائل تظهر المسلمين المعاصرين ذوي تاريخ طويل من الأعمال البغيضة والمرفوضة أخلاقيًا، وقائمة مثل تلك الأعمال طويلة وثقيلة وينوء بها الكاهل مثل أعمال احتجاز الرهائن في إيران ولبنان، وتهديد الكتاب والمفكرين بالقتل وقمعهم، وأعمال التعصب ضد المرأة والأقليات الدينية التي ترتكبها "طالبان" في أفغانستان والتفجيرات الانتحارية في مختلف أنحاء العالم، وعلى هذا النحو

تمضي القائمة، وكنتيجة لهذا، فإننا لا نبالغ إذا قلنا إنه قد رسخ في عقول الكثيرين أن الإسلام أصبح قرينًا لما يمكن وصفه بالتعصب والقمع والاضطهاد والعنف، وصارت الحقيقة التي لا يمكن إنكارها، أن مجرد ذكر كلمة "الإسلام" في معظم أنحاء العالم يثير مشاعر سلبية نابعة من عدم القدرة على التفريق بين الخوف والكراهية، أهم يخافون من المسلمين أم يكرهونهم. تلك هي صورة الإسلام سواءً اعتقدنا أن لها ما يبررها أم لا.

هذه الحقيقة تثير لدى المسلمين الذين يهتمون بأمر دينهم مشاعر ألم وغضب، حيث إنَّ أكثر من مليار مسلم يجدون في الإسلام غذاء للروح وما يلبي احتياجات مشاعرهم، وبالنسبة لأولئك المسلمين فإن الإسلام هو – أيضا– مصدر الهدوء والسلام الروحي، والإسلام يقدم لهم تعاليم وأخلاقيات تملأ حياتهم بالجمال لا بالقبح. ولكن كيف يوفق المسلم بين الدين الذي يعيش فيه والتجارب والمفاهيم العامة السائدة لدى غير المسلمين؟

أعتقد أنه أصبح لزامًا على المسلمين أن يراجعوا أنفسهم ويتوجهوا بنظرة نقد وفحص لعاداتهم ومعتقداتهم. وإنه مما يدعو إلى تلك النظرة سؤالنا: هل ساهمت عادات الإسلام أو منهج المعتقدات الموروثة في ارتكاب مثل تلك الأعمال القبيحة؟ هل ما أُوحي لهؤلاء المسلمين الذين يرتكبون أعمالاً إرهابية أو يضطهدون النساء والأقليات، يمثل عقيدة الإسلام وتعاليمه؟

والسؤال بطريقة صارخة وأكثر وضوحًا: هل هناك شيء خطأ في المسلمين في العصر الحاضر؟ وإذا كان هناك شيء خطأ، فما هو؟

لم يعد بوسعنا كمسلمين، أن نرفض طرح عاداتنا على طاولة النقد، فقد وصلنا إلى مرحلة حرجة في تاريخ ديننا، وينبغي أن يكون لدينا الإرادة القوية والشجاعة لإصلاح ديننا وإعادة تأسيسه، ليصبح قوة إنسانية أخلاقية في عالم اليوم.

إن الهدف من هذا الكتاب ليس وضع برنامج للإصلاح، وإنما هو تعريف وتوضيح معالم فكر المسلمين في وضعهم الحالي، وقبل أن نتحدث عن احتياجنا للإصلاح، يجب أولاً أن نستقر على فهم حالة المسلمين الآن، وأن نسعى لفهم عالم الأفكار الذي يرسم خريطة الانقسامات داخل العقل المسلم.

فالهدف من هذا الكتاب - إذن - هو محاولة إثبات الانشقاق الفعلي الموجود في الإسلام بين المسلمين المعتدلين وبين من سأسميهم بالمسلمين المتشددين، وكلا النوعين يدعي أنه يمثل الدين الإسلامي الصحيح ويمثل الحق، ويعتقد كل منهما أنه يمثل الرسالة السماوية كما يريدها الله أن تكون، وكلاهما يؤمن بأن معتقداته نابعة حقًا من جذور القرآن الكريم والسنّة المؤكدة عن سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) آخر الأنبياء وآخر المرسلين للإنسانية.

وكيفما كان الأمر، فإن المتشددين يعتبرون المعتدلين بأنهم غيروا في الإسلام وأعادوا تشكيله لدرجة أنهم أفسدوه وأضعفوه، ويتهم المعتدلون المتشددين بأنهم أساءوا فهم وتطبيق الإسلام لدرجة أنهم حولوا الدين إلى فوضى وشوهوه.

إن مراقبي الوضع الإسلامي من غير المتخصصين في الدراسات الإسلامية في الوقت الراهن سواء أكانوا صحفيين عاديين أو سياسيين علمانيين، يجدون الوضع مربكًا وفوضويًا، إذ يسمع هؤلاء المراقبون آراءً متناقضة ومتنافسة حول ما عليه الإسلام، أو ما يجب أن يكون عليه، ولم يكن واضحاً أبدًا ما الذي يؤمن به بعض هؤلاء المسلمين، ولماذا؟ وبالإضافة إلى هذا، فإنه قلما يتضح ما إذا كانت تلك الدعاوى المتصارعة بشأن العقائد الإسلامية منصوصًا عليها في الشريعة الإسلامية أم لا، وربما يكون التساؤل الأكثر شيوعًا عن مصدر هذا الارتباك هو: إلى أي حد تدعم الشريعة الإسلامية الإرهاب وتنميه؟

وفي رأيي أن السؤال الذي يفرض نفسه بقوة مماثلة هو: هل يوجد في الحقيقة والواقع رؤية معدلّة مهذّبة حقًا عن الإسلام بإمكانها أن تتبارى مع ذلك المفهوم المتشدد؟

إنني أسعى من خلال هذا الكتاب أن أثبت أن الإسلام الصحيح يمر في الوقت الراهن بمرحلة انتقالية لا تقل دراميًا عن حركات الإصلاح التي اجتاحت أوروبا في وقت من الأوقات وأدت إلى حروب دينية طويلة ودامية، وعلى الرغم من أن المرحلة الانتقالية تلك لا تقل دراميًا عن الإصلاحات الأوروبية، إلا أنها ليست مرحلة متقدمة أو حادة في سياق الدين الإسلامي، ومع ذلك، فهناك فجوة كبيرة بين الطريقة التي يفهم بها المعتدلون الإصلاحيون الإسلام، وتلك التي يفهم بها أولئك الأكثر تشددًا ومحافظة من المتشددين. إننا نعي الفرق بين الإسلام كما يفهمه المتشددون مثل "طالبان" و"أسامة بن لادن"، وبين الإسلام كما يفهمه السواد الأكبر ممن سأسميهم بالمسلمين الأقل ظهورًا على الساحة. إن المعتدلين يشكلون الغالبية الصامتة من المسلمين في العالم، لكن تأثير المتشددين على الدين لا يتكافأ مطلقًا مع عددهم.

وبصرف النظر عن تكوين العالم الإسلامي الحالي، فإن المرحلة الانتقالية التي أتحدث عنها، تتمثل في حقيقة أن هناك وجهتي نظر عالميتين محوريتين تتنافسان لتعريف حقيقة الإسلام، وأنا أقصد بـ" حقيقة الإسلام" التعاليم والبديهيات المقبولة حول موطن التاريخ الإسلامي في نفس المسلم، والرسالة الجوهرية للقرآن الكريم والدروس التي لقّنها لنا رسول الله سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) والأولويات الأخلاقية التي يتمسك بها الفرد المؤمن، والأبعاد الأخلاقية التي تنظم وتوجه المسلمين في تعاملاتهم مع الآخرين. ولا يختلف المتشددون والمعتدلون حول هذه القضايا – فقط – بل

إن كلاً منهم يصارع ويكافح لجعل نموذجه ووجهة نظره عن حقيقة الإسلام هي الأكثر بروزًا ودوامًا.

إن وجهات النظر في تكوينها الخالص والمحض للمجموعتين متناقضة ومتعارضة، ولذا فإنه مع أن بعض أشكال التعايش قد تكون ممكنة، إلا أن وجهتي النظر تميلان للتصادم والتنافس، ومن الممكن أن تتواجد كل وجهة نظر كمدرسة فكر في إطار الإسلام، وأن تقبل وتجيز بل ولربما تحترم – أيضاً– وجهة النظر الأخرى، ولكن هذا الاحتمال يزداد صعوبة، فإن أعمال الإرهاب والعنف التي يرتكبها المتشددون تزيد من الضغط لحصول المواجهة والتحول الجوهري في التاريخ الإسلامي. وتصفيات الحساب التي جرت مؤخرًا بين أبرز المفكرين المتشددين وحكومة المملكة السعودية، هي نموذج لهذه المواجهة والتحول.

وبعد أن يُقال كل شيء ويُفعل كل شيء، فإن أحد هذين التوجهين سيمتلك زمام الأمور والسلطة الهائلة لتعريف الإسلام تعريفًا قد يستمر لمدى طويل. وبمجرد أن تتم عملية التحول سواءً أكانت نحو الأفضل أم الأسوء، فإنها ستحظى بتأييد جميع المسلمين تقريبًا.

الفصل الأول

الإسلام الممزق بين التطرف والاعتدال

في نهاية إحدى المحاضرات التي دُعيت لإلقائها وكان ذلك من مدة ليست بالبعيدة، طُلِب مني أن أذكر أهم القيم الأخلاقية كما نص عليها الإسلام. وكانت الإجابة سهلة للغاية، فهي الرحمة والعطف والتسامح، وتلك القيم التي يؤكدها كل مسلم في شعائر الصلاة خمس مرات يوميًا على الأقل، ولك أن تتخيل مدى دهشتي وحزني حين قام أفراد من الحضور بالتغامز والضحك بصوت خافت، وكأنهم يقولون: هيا يا رجل، قل الحقيقة.

وفي تجربة مماثلة وعقب أن قام الرئيس بوش بتعييني لأشرف على بعثة الولايات المتحدة للحرية الدينية والتسامح، وصلتني رسائل عديدة للتهنئة وتمني النجاح والتوفيق، وكان من بينها رسائل عديدة من أشخاص لا أعرفهم يسألونني: ما الذي يمكن أن يفعله مسلم مثلك للمساهمة في تحقيق الحرية الدينية والتسامح فيالعالم ؟!

– تلك التجارب الشخصية ليست تجارب شاذة أو نادرة، إذ إن لدى كل مسلم قصصًا وحكايات يمكن أن يرويها حول الشكل السلبي الذي يتم به استقبال الإسلام. وفي مواجهة ذلك الإدراك السلبي للإسلام، فإن المسلمين أمامهم اختياران: إما أن يشتكوا ويبكوا حيال ذلك في صمت مرير، أو أنهم على الناحية الأخرى يقررون أن يُعلِّموا الآخرين حقيقة دينهم. بَيْد أن هذا يتطلب أن يكونوا متعلمين وعلى دراية كافية بأمور دينهم. لكن المشكلة أن العديد من المسلمين يجهلون دينهم. وهذا يجبر المسلمين على التفكير في اختيار ثالث مناسب: وهو أن يبدأوا في الدراسة والتفكير ليس فقط من أجل الوصول إلى فهم أفضل للإسلام بل أيضًا من أجل فهم الأسباب التي أدت إلى ذلك الانطباع السلبي الموجود لدى غير المسلمين. وإذا ماحاولنا تعليم

الآخرين ما هو الإسلام، فإنه يجب علينا أن نفكر مليًا في المصادر والأسباب التي أدت إلى سوء الفهم والمعلومات المغلوطة عن هذا الدين.

يعد السؤال عما إذا كان هناك خطأ قد حدث فيما يتعلق بعقيدة الإسلام، بالنسبة للمسلم المؤمن سؤالاً غير مريح، ولا يملك المسلم أو المسلمة معه إلا أن يشعر بأنه أو أنها لعبة في أيدي أعداء الإسلام. لقد لعبت جميع الأديان وفي أوقات سابقة دورًا في تعزيز التعصب والعنف. وإذن فلماذا يُفردُ الإسلام ويُجعل حالة خاصة تحتاج إلى التدقيق والتمحيص؟ وإنه لمن السهل على أي مؤمن أن يُنحّي عن الإسلام أي شبهة خطأ وأن يلقي باللوم في ذلك على المسلمين وحدهم. وفي الحقيقة فإن كثيرًا من المسلمين يثبتون أن الإسلام – كمعتقدات ومُثُل – لايجب أن يُلام على ما يرتكبه التابعون له من محظورات، إذ الحقيقة أن الأشخاص الذين يدّعون أنهم مسلمون هم الذين يقومون بأعمال مشينة؛ بسبب العوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية وتلك الأعمال هي التي تغذي العنف والتعصب وليس الإسلام.

ومن هذا المنظور، فإنه من الخطأ أن نحاول نقد المذاهب الإسلامية أو العقائد أو تاريخ الإسلام حين نقّيم المشاكل المعاصرة التي تؤذي المسلمين، وبدلاً من ذلك، فإنه يجب أن نسأل: ما الخطأ الذي وقع في جانب المسلمين؟

وعلى الرغم من أن هذا الجدل السابق له بعض المميزات، إلا أنه كطريقة عامة لفهم الموضوع، يعتبر وسيلة غير مرضية للتصدي للتحديات التي يواجهها المسلمون في العصر الحديث. وهناك أسباب عديدة للقول بأن هذه الطريقة لفهم الموضوع غير أمينة بل وخطيرة. ومن المفهوم أن بعض المسلمين – من منطلق الحب والاهتمام بأمر دينهم – شغوفون بالدفاع عن دينهم بتوجيه إصبع الاتهام بعيدًا عن الإسلام. إن التلميح والدعوة إلى تأمل النفس بطريقة نقدية، ترقى في نظر أولئك المسلمين إلى اتهام الإسلام بأنه دين ناقص وخاطئ، وبالتالي يصبح مفهومًا أن دعوة الغرب المسلمين

لاستبطان النفس، تعد إهانة بالغة. والمسلمون الذين يعتقدون أن الإسلام هو الكمال، وأنه غير قابل للتغيير، ينظرون إلى الدعوة للاستبطان بريبة شديدة، بل حتى بعداء. وعلاوة على ذلك وفي ضوء الصراعات التاريخية بين الإسلام والغرب، فإن الدعوات إلى فحص الذات أو الأفكار لا تعتبر إلا محاولات مكشوفة لاسترضاء الغرب عن طريق إلحاق الأذى بالإسلام، ويعتقد عدد غير قليل من المسلمين أن المسلمين الذين يحاولون تبني موقفًا نقديًا تجاه العادات الإسلامية، ليسوا إلا أشخاصًا يسعون لاسترضاء ومداهنة الغرب على حساب الإسلام.

هذه الاعتراضات لها وجاهتها وأنا أتعاطف مع هؤلاء الذين يعتقدون أن الإسلام مُساءٌ إليه بما يكفي، ومسلمو هذا العصر يتعرضون لسيل من الأخبار السيئة والتغطية الإعلامية السلبية وبصفة يومية. إن الحقيقة التي لايمكن إنكارها هي أن هناك وفرة من أعداء الإسلام في العالمين الغربي وغير الغربي على السواء ممن يتطلعون وبشغف للإساءة إلى الإسلام في كل مناسبة، وفي الواقع، فإني أعتقد أن المشاعر المعادية للمسلمين – في العصر الحديث – قد وصلت إلى الحكم مسبقًا على أي عمل ضئيل شرير على أنه عنصرية ومعاداة للسامية. وكنتيجة لهذا، فإن المسلمين أصبحوا يميلون وبشدة لتبني موقف دفاعي بالإصرار على أن الإسلام كامل وأن العقائد والشرائع الموروثة عن العادات الإسلامية لا تسهم بأي شكل من الأشكال في ورطة لمسلمي العصر الحديث. وبصرف النظر عن حالة ومفهوم أن ذلك الوضع قد يكون موقفًا دفاعيًا له أعباؤه وتكاليفه، إلا أن هذه التكاليف قد أصبحت محرمة نتيجة الضغوط الخارجية. وفي الحقيقة إن الطريقة الوحيدة التي يمكن للمسلمين أن يظلوا – من خلالها – متمسكين بالرسالة الأخلاقية لدينهم ويمكنهم – في الوقت نفسه – الوفاء بميثاقهم مع الله، هي أن يفحصوا أفكارهم وأن ينقدوا أنفسهم وأن يعيدوا إصلاح أمرهم.

وعلى الرغم من أن الانقسام بين المسلمين المعتدلين والمسلمين المتطرفين بات واضحًا وعلنيًا وواقعًا، إلا أن هذا الانقسام غير متعارف عليه بوضوح في العالم الإسلامي، إن الانقسام بين المجموعتين هو واقع نعيشه ونحسه، ولكنه يفتقر إلى أية محاولة للتعرف على الفروق المنهجية بين الحزبين المتنافسين، وفي الواقع فإن كثيرًا من المسلمين لا يرغبون في التحدث بوضوح وبشكل صريح عن التوجهين الأساسيين المتضادين الموجودين في العالم الإسلامي الحديث، إن الإخفاق في التعرف على وجود مثل هذا الانقسام قد أسهم في التشويش حول المسلمين وبماذا يؤمنون. وقد يكون هذا الإخفاق مسئولاً أيضًا عن المفاهيم الخاطئة المنتشرة عن عقائد وتعاليم الدين.

إن إحجام الكثيرين من المسلمين عن الاعتراف بوجود انشقاق في الدين هو في نواح كثيرة، يرجع إلى التأثير القوي لعقيدة الوحدة في الفكر الإسلامي الحديث حيث يقوم المفكرون الإسلاميون والنشطاء المعاصرون بالتأكيد – وبشدة – على الحاجة الماسة لتوحيد صف المسلمين، ومطالبة المسلمين باعتبار أنفسهم شخصًا واحدًا، وذلك لأسباب ستتم مناقشتها فيما بعد. تؤكد عقائد الدين الإسلامي على أن هناك طريقًا مستقيمًا يوصل إلى الله سبحانه وتعالى، وأن المسلمين يجب أن يكونوا صفًا واحدًا في سبيل الله وألا ينقسموا. ومن أجل ذلك، يشعر كثير من المسلمين بعدم الرضا حيال الاعتراف بأن هناك صدعًا يمزق العقيدة، وفي الوقت نفسه فإن الإسلام يعلّمنا أن الواجب المقدس على كل مسلم أن يقوم بالشهادة ويشهد بالحق حتى ولو كانت الشهادة ضد أخيه في الدين أو ضد أحد من بني جلدته. ويتزامن مع التأكيد القوي على وحدة المسلمين وأهمية الصدق تقبل الاختلاف في الفكر والرأي، وهي عادة تم تأسيسها منذ أمد طويل في شريعة وفكر الإسلام.

كل هذه التوجيهات تضع هذا الكتاب – إلى حد ما – في وضع غريب. وإنني إذ أعترف بوجود انقسام أساسي في الإسلام في الوقت الحاضر، أكون قد أديت ما أؤمن به من أنه التزام ديني من ناحيتي تجاه الإسلام. ولكنني أيضًا أدين الكثيرين من الذين يعتقدون بأنه من الأفضل ألا ندقق في القضايا التي من شأنها أن تسبب خلافًا وشقاقًا وتثير الفتن. ومعنى أن تسبب خلافًا وشقاقًا أو تكسر وحدة المسلمين هو إحداث فتنة (شقاق وخلاف)، وهذه الكلمة (فتنة) تملأ قلوب الأتقياء بالفزع والخوف، وبقدر ما تكون الفتنة خطيئة، فإني أعتقد أن الشيء المعرض للخطر ويمثله الصراع الدائر بين المعتدلين والمتشددين هو روح الإسلام لا أقل منه ولا أكثر. لذا فإن المسلمين يرتبكون خطيئة أكيدة بانغماسهم في حالة من اللامبالة التامة.

ومن أجل التفريق بين الأقلية العسكرية (الإرهابية) المتعصبة وبين الغالبية الصامتة من المسلمين، فإنني مجبر على المقارنة والتمييز بين المجموعتين الرئيسيتين: وهما المعتدلون والمتشددون. غير أننا يجب علينا أن نضع في اعتبارنا أن العالم الإسلامي اليوم لا يمكن دمجه في هاتين المجموعتين المتعارضتين، وإن القول بأنهما وحدهما هما العالم الإسلامي، يعتبر تسطيحًا وقولاً مبالغًا فيه وغير مناسب، فهناك على سبيل المثال، بعض التوجهات الأخرى مثل الصوفية ومن يصفون أنفسهم بأنهم علمانيون، وهذا الكتاب لايتعامل مع أيٍّ من هذين الفريقين، ومع ذلك، فسأتحدث بخصوص هاتين المجموعتين المتنافستين لأؤكد على الفرق الجوهري بين طرفي الصورة اللذين من شأنهما لعب دور محوري في تحديد مستقبل الإسلام. إن عددًا قليلاً من المسلمين في طريقه لكي يكون معتدلاً أو يكون متشددًا كل التشدد. وسيقع الكثيرون في مكان ما بين التيارين، وستميل الغالبية إلى موقع ما بين النقيضين مع ميل الغالبية العظمى نحو اتجاه الاعتدال. وإنني لآمل أن يُعطى النموذج المترابط هنا غير المسلمين فهمًا أفضل لنطاق المعتقدات

والقناعات التي يؤمن بها المسلمون، وأن يساعد هذا النموذج المسلمين في تقييم علاقتهم الخاصة بالإسلام، بينما يعيدون النظر في موقعهم على ضوء أفكارهم وإيمانهم الراسخ.

لابد أن أشير إلى أن التوجهين اللذين أتعامل معهما من خلال هذا الكتاب يمران سريعًا على التقسيم الطائفي: السنة والشيعة. ولم أحاول أن أصنف الفروق بين السّنة والشيعة هنا في هذا الكتاب؛ لأن هناك وفرة من المواد المنشورة التي تناقش تلك الفروق والاختلافات، ولأن تلك الاختلافات ليست لها علاقة بتصنيف المتشددين في مقابل المعتدلين، ومن ثمَّ يجوز أن يكون السنيون متشددين أو معتدلين، وذلك طبقًا لنفس المعايير والخصائص المميزة التي تنطبق أيضًا على الشيعة، فتجد المتزمت السنّي يميل إلى الاعتقاد بنفس الأفكار، كي يصل لنفس الاستنتاجات التي يعتقد فيها المتزمت الشيعي. ونفس الشيء بالنسبة للمعتدل السنّي والمعتدل الشيعي.

المعتدلون والمتشددون

لمَ هذه المصطلحات؟

إن اختيار المصطلح المناسب ليصنف مجموعة من المعتقدات والقناعات هو دائمًا أمر غاية في الصعوبة. إن الألقاب لاتصف فقط، بل هـــي أيـــضًا تصدر أحكامًا، فضلاً عن ذلك فإن ما قد يبدو لشخص على أنه شيء معتدل، قد يبدو لآخر على أنه تطرف.

إنني قد قمت باختيار مصطلحي "المعتدل والمتشدد" واستخدمتهما على نطاق واسع بعد عملية انتقاء واسعة. إن القرآن الكريم وهو كتاب الإسلام المقدس يدعو المسلمين إلى الاعتدال. أكثر من هذا، فإن السنّة النبوية الشريفة تقرر أنه في حالة وجود رأيين متطرفين، فإن الرسول (ص) كان دائمًا يختار الوسط، وبكلمات أخرى، فإن نبي الإسلام كان دائمًا ما يوصف بأنه رجل معتدل يميل إلى تجنب الوقوع في هُوة التطرف، وبالتالي فإن كلمة "معتدل" لها جذور في السنّة الإسلامية، وهي تنقل الموقف المعياري الذي يفترض أن الغالبية العظمى من المسلمين تمتلكه.

وهؤلاء الذين وصفتهم بأنهم معتدلون، كثيرًا ما وصفوا بأنهم عصريون، تقدميون، مصلحون. وليس أحد من هذه الألقاب يؤدي المعنى – بالنسبة لي– مثلما تؤديه لفظة "معتدلون".

إن مصطلح "عصريون" يتضمن أن مجموعة مخصوصة تتعامل مع تحديات الحداثة، بينما هناك آخرون رجعيون، ما يزالون يعيشون في الماضي أو يسعون للرجوع إليه. ومع ذلك، فإن الحقيقة هي أن علاقة كل المفكرين الإسلاميين والنشطاء بالماضي، هي أمر معقد.(مفكرو الإسلام والنشطاء في مقابل "العلمانية" هم أولئك الذين يتابعون جدول أعمال اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية عامة أو خاصة، بينما يعتبرون الإسلام هو المصدر الآمر الموثوق به بالنسبة لهم، لكنه ليس بالضرورة الإطار الوحيد

للمرجعية). إن الجماعات الإسلامية الأصولية – من منظور اجتماعي – هي نتاج الحداثة والعقائد الإيديولوجية المتحررة مثل القومية. علاوة على ذلك، فإنه إذا ما كان أولئك الذين يدعون بالأصوليين، متجذرين في العقيدة الإسلامية – بغض النظر عن توجهاتها – هي جزء من الحقيقة المعاصرة التي هي في كل الأحوال عامل مساعد على التشكيل والتعريف.

إن المصطلحات، تقدميون، مصلحون مفيدة، لكن فيها عيوب خطيرة كذلك. إن عديدًا من المعتدلين، يدّعون أنهم يعكسون الإسلام الحقيقي والأصيل. وبطريقة أو بأخرى، هم يؤكدون على أنهم لا يعملون على تغيير العقيدة نحو الأفضل، ولكنهم – بدلاً من ذلك – يحاولون أن يطالبوا المسلمين بالعودة إلى الدين الأصيل. ليس هناك شك في أن أوضاع مثل هؤلاء المسلمين تميل لأن تكون تحررية أكثر من كونها محافظة، غير أن العلاقة بين التحررية والتقدم أو الإصلاح تطرح سؤالاً فلسفيًا معقدًا، لا يمكن التعرض له أو الحديث عنه باستفاضة في هذا الكتاب. إن التحررية تعني تبني أو متابعة القيم التي تتجه نحو حرية أكبر للفرد. وعلى أية حال، فإنه لا توجد علاقة متوقعة بين التحرر والإصلاح والتقدم. إن بعضًا من أسوأ الدكتاتوريين في التاريخ، أمثال "يوسف ستالين" و"جمال عبد الناصر" الذين قادوا بلادهم نحو التقدم الاجتماعي الاقتصادي، فإنهم رغم ذلك لم يكونوا ذوي اتجاهات تحررية بأي معنى للكلمة. ومن سخريات القدر، أن القيم التحررية لا يمكن تحقيقها بالتحرك إلى الأرقام، بل في بعض الأحيان بالعودة إلى المكان السابق (أي بتقليد السابقين). وعلى سبيل المثال، فإن مظاهر معينة في العقيدة الإسلامية تتوجه نحو التحرر بأبعد من الأفكار المعاصرة التي يرتضيها ويقبلها المسلمون.

بعيداً عن قضية الليبرالية وعلاقتها بالإصلاح والتقدم، فإنه توجد أسباب أخرى منعتني من استخدام كلمتي "التقدميين" و "الإصلاحيين". وقد يكون هذا

راجعًا إلى أن أقلية من المسلمين يعتبرون إصلاحيين أو تقدميين، بينما وطبقــًا لما تواتر في الفكر الإسلامي وشريعته، فإن الغالبية العظمى من المسلمين معتدلون. إن النهج الإصلاحي والنهج التقدمي مواقف يتبناها عادةً الصفوة من المفكرين، لكن الاعتدال هو الذي يصف المعتقدات الدينية الراسخة لدى الغالبية من المسلمين.

لقد وصف العديد من الكتّاب أولئك الذين أدعوهم بالمتشددين بأكثر من لقب منها الأصوليين والعسكريين والمتطرفين والراديكاليين والمتعصبين والجهاديين، وحتى ببساطة الإسلاميين، وإنني أفضل تسمية "المتشددين"؛ وذلك لأن الخصائص المميزة لهذه الجماعة هي معتقداتها ذات الطبيعة المطلقة غير المساومة. وفي أكثر من ناحية، فإن هذا التوجه يميل إلى التشدد من حيث عدم ترحيبهم وتحملهم لوجهات النظر المنافسة واعتبار التعددية شكلاً من أشكال التلوث الحقيقية الخالصة.

على الرغم من قيام العديد باستخدام لقب "الأصوليين" إلا أن هذا اللقب يثير مشاكل عديدة، حيث إن جميع المنظمات والجماعات الإسلامية تعلن تمسكها بأصول الدين، حتى أن أكثر الحركات التحررية تصر على أن أفكارها ومعتقداتها هي أفضل وأصدق تمثيل لأصول وأساسيات الدين. وفي سياق المجتمع الغربي، فإن استخدام المصطلح "أصوليون" لوصف الجماعات المسيحية المتطرفة التي تصر على المعنى الحرفي للمخطوطات والنصوص بصرف النظر عن السياق التاريخي الذي جاء من خلاله النص، هو استخدام يبدو منطقيًا وعقلانيًا، لكن وكما ذكر العديد من الباحثين المسلمين، فإن مصطلح "أصولي" لايتناسب مطلقــًا مع السياق الإسلامي؛ لأن كلمة "أصولي" في اللغة العربية تعني "الشخص الذي يستند إلى قواعد الفقه وأساسياته"، لذا فمصطلاح "الأصولية الإسلامية" تنقل انطباعًا خاطئًا لا يمكن تفاديه، وهو أن الأصوليين هم الوحيدون الذين يرتكزون في تفسيراتهم على

القرآن الكريم وسنّة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهما المصدران الأساسيان للتشريع الإسلامي، لذا فقد يقوم مسلمون معتدلون أو تقدميون أو ليبراليون بوصف أنفسهم بالأصوليين دون التفكير في أن الكلمة قد يكون لها مدلول سلبي. قد يبدو منطقيًا أكثر في السياق الإسلامي أن يُوصف تعصب بعض الجماعات وتفكيرهم الضيق وتمسكهم بالمعنى الحرفي للنصوص على أنه تشدد (وهو اصطلاح يحمل في الغرب مغزى تاريخيًا معيناً، لكنه ليس بالضرورة سلبي). قد تكون مصطلحات مثل: المتطرفون والمتعصبون والراديكاليون بدائل معقولة، إن "طالبان" و"القاعدة" بكل تأكيد متطرفون ومتعصبون. ولغويًا التطرف هو مقابل الاعتدال. ومع ذلك، فإذا مانظرنا إلى فكر ورؤية تلك الجماعات في مجموعة من القضايا، فإنه يظهر أنهم بشكل واضح وأساسي وثابت ومنظم استبداديون وذو تشعب بل وأيضًا مثاليون. إن تلك الجماعات تميل فيما يتعلق بقضايا معينة مثل كيفية تفسير التراث المأخوذ عن النبي (صلى الله عليه وسلم) وصحابته إلى أن يكونوا استبداديين صرحاء ومتشددين وليسوا متطرفين أو راديكاليين. وبعبارة أخرى، إن الجماعات التي أتناولها في هذا الكتاب ليسوا بالضرورة دائماً وفيما يتعلق بكل القضايا متطرفين أو متعصبين أو راديكاليين، لكنهم دائمًا متشددون، وما يميز تفكيرهم هو الاستبدادية وليست طبيعته المتعصبة أو الراديكالية أو المتطرفة. على الرغم من أن الكلمات التي تعكس درجة من التطرف أو التعصب لها استئنافها، فإن مصطلح "عسكري" هو مصطلح مضلل تمامًا. إذا كنَّا نعني بهذا المصطلح هو الرغبة في استخدام القوة، فإن ذلك الاسم لايعنى بالغرض، فالإسلام والمسيحية واليهودية جميعهم قالوا بأن استخدام القوة تحت ظروف معينة له مايبرره، ومن الناحية الأخرى، إذا كنّا نقصد بمصطلح (عسكري) هو الميل لاستخدام القوة المفرطة فإن هذه التسمية تنطبق على شريعة عريضة. ولذا فهي لا تفي بالغرض. نعم إنها قد تنطبق على بعض

الجماعات الإسلامية، ولكنها أيضًا تنطبق على سياسات العديد من الأحزاب والأمم. وإذا كنّا نعني بعسكري الرغبة في استخدام القوة الهجومية والعدوانية بدلاً من أن تكون دفاعية بحتة، فإن الجميع يدعي استخدام القوة فقط في الدفاع عن النفس، علاوة على ذلك فإن العسكرية لا تجدي نفعًا في وصف سلوك تلك الجماعات تجاه المرأة أو الأقليات على سبيل المثال. بدأ مؤخرًا بعض الكتاب في استخدام كلمة "الجهاديين" لوصف أناس مثل "طالبان" و"القاعدة" وأنا سأقوم بمناقشة قضية الجهاد في وقت لاحق، لكن هذه التسمية مضللة تمامًا وقد تؤدي إلى اللبس بدلاً من التوضيح لفهم التوجهات الخاصة والمتفردة للمتشددين.

لقد حاول بعض المعلقين التفريق بين المسلمين وبين الإسلاميين (يقصد بالإسلاميين أولئك الذين يؤمنون بالإسلام السياسي)، وبالطبع يحاول هؤلاء المعلقون وصم الديانة الإسلامية على أنها مصدر خطر للمجتمعات المتمدينة. والتعبيران كلاهما – الإسلامية والإسلام السياسي- غامضان ويتسعان بما يكفي ليشملا أي نوع من أنواع الإسلام التي قد يرغب معلق ما في تشويهها. وبوجه عام، فإن الإسلاميين هم مسلمون يعتقدون في أن الفكر الإسلامي والشريعة يجب أن يكونا إطار المرجعية في التشريع في ظرف اجتماعي كان أو سياسي، لكن استخدام فكر الشريعة الإسلامية كإطار للمرجعية في التشريع لا يعني الاعتقاد بوجود دولة ذات حكم ديني أو في فرض أحكام وحشية على الأبرياء من الناس، إنما قد يعني ببساطة استمداد الأحكام من الأخلاقيات الإسلامية فيما يخص المسائل ذات الأهمية العامة وتبني مواقف مدعومة ومسموح بها من الفقه الإسلامي، وذلك فيما يختص بالمسائل العامة، باختصار، إن استخدام الإسلام كمصدر للسلطة يتفاوت بشكل كبير بين مواقف حميدة وغير إلزامية إلى دولة ذات حكم ديني تتحكم فيما يقوله الناس أو يفعلونه. ومع ذلك يرسم المعلقون الذين يستخدمون

مصطلحات الإسلام السياسيَ أو الإسلام فقط بغرض التشويه خطًا فاصلاً بين الدائرة الخاصة والدائرة العامة. إذ يُعتبر الإسلام الذي يمارس على المستوى الخاص إسلامًا مقبولاً، لكن أي تطفل على نطاق الحياة العامة يعامل على أنه شيء خطير وغير مقبول. وقد يقول الكثير من المسلمين إن هذا بهدف الادعاء بأن المسلمين قد يمارسون دينهم، لكن دون أن يأخذوه على محمل الجد. فالمسلمون مسموح لهم بممارسة دينهم فيما يقتصر على حياتهم الخاصة، ولكن لايجوز لهم أن يقحموا دينهم في دائرة الحياة العامة، فالدور الذي يلعبه الدين تحديدًا في الساحة العامة ليس بالقضية المقبولة بالنسبة للديمقراطية لا من الناحية النظرية ولا العملية. وقد يلعب الدين أدوارًا متنوعة وذلك دون أن يحول نظام الحكم إلى نظام حكم ديني، فلننظر مثلاً إلى الدور الذي تلعبه الأحزاب الدينية في السياسة الإسرائيلية. ومع ذلك فما تزال إسرائيل دولة ليست ذات حكم ديني، حتى إن دولة مثل الولايات المتحدة والتي بالمقارنة مع الغالبية من الديموقراطيات الليبرالية الغربية قد تبنت أقل أشكال النظام الذي يفصل ما بين الكنيسة والدولة، ليست آمنة ومحصنة، فلقد شاهدنا مؤخرًا ازدياد النفوذ المسيحي في الحياة العامة بشكل ملحوظ، وذلك يرجع إلى الاعتقادات الدينية الراسخة للمسئولين في الفرع التنفيذي للحكومة الأمريكية. إن فكرة أنه يجب أن يظل الدين في نطاق قيود صارمة بالنسبة للحياة الخاصة من أجل أن تتواجد الديمقراطية المنشودة، هي فكرة مبسطة للغاية ولا تعكس حقيقة الديموقراطيات الناجحة. وإن فرض التصنيف الثنائي بين الدائرة الخاصة والدائرة العامة على المسلمين ومطالبتهم بأن يلتزموا بفصل تام بين الهيئة الدينية والدولة، وألا يُنعتوا بأنهم إسلاميون أو إسلاميون سياسيون بغرض الاستخفاف بهم والإهانة لهم، قد يمكن وصفه بأنه غطرسة إن لم يكن إمبريالية.

إن الإسلام لا يوجد به كنيسة (هيئة دينية) والتي يحق لها أن تشرع ما يعد بأنه الإسلام المعترف به. إذًا فالمبدأ القائل بفصل الكنيسة عن الدولة لا ينطبق على السياق الإسلامي. إن أصول الديمقراطية الغربية ترتكز على منع الكنيسة الكاثوليكية من التحكم في الحياة العامة واستغلالها. لقد تمنى العلمانيون الأوائل في القرن السابع عشر والثامن عشر بتر سلطات الكنيسة الكاثوليكية تمامًا. وفي الحقيقة، لقد اعتنق العديد من الباحثين النظريين فكرة أن الإصلاح وخاصة في العلم الديني البروتستانتي هو حل كاف لمشكلة الهيمنة الدينية على الحياة العامة وللأعمال الوحشية المروعة مثل الاستجواب القضائي الذي يطارد ويقتل الملحدين.

لكن الإسلام له تجربة مختلفة كدين، فلقد أكد غياب الكنيسة المؤسسية في التاريخ الإسلامي على أن الدين لا يمكن استغلاله، وعلى أنه لا يمكن التحكم في الحياة العامة، بل إن الدين أو ممثلي الشريعة الإسلامية مجبرون على أن يتباروا للتأثير على الحياة العامة بطرق شتى. ومن المهم أن نذكر أنه على مر التاريخ الإسلامي لم يكن يمثل الشريعة صوت واحد فقط أو قوانين دين. فتاريخيًا، قام بتمثيل الدين الإسلامي والشريعة العديد من مدارس الفكر الفقهي، وكان أشهرها وأبرزها يُنظم ويُدار بواسطة نقابات محترفة خاصة.

إن الإصلاح البروتستانتي لم يسعَ لإزالة الدين من الحياة العامة كلية، بل سعى لتحدي استغلال الكنيسة الكاثوليكية وحكمها الاستبدادي الديني. ومما يثير الاهتمام من بين أشياء أخرى، أن هذا الإصلاح سعى إلى أن يجلب لأوروبا ديناميكية دينية سياسية هي موجودة بالفعل في الإسلام حتى أن أغلب الباحثين النظريين في القرنيين السابع والثامن عشر لم يتصوروا أن يكون هناك فصل تام بين الدولة والدين. وقد قام الباحثون النظريون العلمانيون بتطوير نظرية الديمقراطية عقب الثورة الفرنسية والأمريكية، بحيث أصبح المفكرون والإصلاحيون البروتستانتيون والكاثوليكيون غير قادرين كلية على

إدراكها، بل قد أصبحت صارمة لهم. إن هذه النظرية التاريخية السريعة تبرز حقيقة مهمة غائبة عن الكثير من المسلمين وغير المسلمين في العصر الحديث وهي: أن الحكومة ذات الحكم الديني – بعبارة أخرى الحكومة التي تمثل الله وقانونه في الحياة العامة– محرمة في الفكر الإسلامي وتاريخه. فالحكم الديني الحقيقي يعني بالضرورة أن هناك وجهة نظر واحدة صحيحة في الفكر الإسلامي والشريعة والباقي كله خطأ وغير شرعي. وبدلاً من أن يمثل الشريعة مدارس وجماعات فكر متنوعة متنافسة، وجميعهم لهم حق متساوٍ في المطالبة بالشريعة، فإن الدولة ستصبح بالضرورة كنيسة وتملي قانون الدين وتعامل جميع أؤلئك الذين يختلفون معها على أنهم منشقون.

ولأول مرة في التاريخ الإسلامي، أصبحت الدولة في وضع يسمح لها بالعمل؛ لأن المؤسسات التي مثلت علم الدين الإسلامي من الناحية التاريخية أصبحت تساعد الدولة، ولكن الدولة تسيطر الأن عليها بشكل واضح، لقد مكن استقلال المؤسسات الدينية وتعدديتها واختلافها – في الماضي– وجود الحكم الديني مسألة صعبة، لكن اليوم أصبحت سلطات الدولة في العالم المسلم واسعة ومتحكمة، فدولة مثل السعودية ذات الحكم الديني هي نموذج جديد يتواجد لأول مرة في التاريخ الإسلامي. لقد آمن فقهاء العصور الوسطى المسلمون بأن واجب الدولة الأول هو حماية الإسلام، وطالما أن الدولة تقوم بواجبها هذا، فلا يتم التشكيك في شرعيتها أو تحديها. ومما يثير الاهتمام أنهم اعتقدوا أيضًا في أنه يجب إتاحة الوسائل للمسيحين واليهود الذين يعيشون في الأراضي المسلمة من حماية أديانهم، ولقد تراءى لفقهاء العصور الوسطى المسلمين أنه لكي تحمي الدولة الدين، يجب عليها بناء المساجد وجمع الزكاة وتوزيعها وتمكين الناس من الحج إلى الأماكن المقدسة كمكة والمدينة والقدس، ومنع الأعمال التي تخدش الحياء العام ومعاقبة أولئك الذين يشهّرون بالرسول (صلى الله عليه وسلم) أو يسعون إلى إفساد

الدين، وفي نفس الوقت، فإن الدولة ملزمة بتوفير الحماية لمدارس الفكر المختلفة وألا يفضلوا تفسيرًا معينًا للدين على آخر. ولقد ترك تراث المسلمين في العصور الوسطى في عصرنا الحالي أمام وسائل تشكل تحديًا. ما الفرق بين أن تحمي الدولة الدين من جانب وأن تمثل الدولة الدين من جانب آخر؟ هل يمكن للدولة أن تحمي الدين دون الإخلال بالنظام الديمقراطي؟ إنجلترا على سبيل المثال، لديها نظام وقوانين عامة تُلزِم الدولة بحماية الدين المسيحي من الإساءة، وإسرائيل لديها العديد من القوانين التي تحمي الممارسات والطقوس الأرثوذكسية في مناطق بعينها في البلاد مثل القدس. وإيطاليا لديها نظام امتيازات وحمايات لصالح الكنيسة الكاثوليكية، وأيرلندا أيضًا مثلها مثل الدول الأوروبية الأخرى ملزمة دستوريًا بالمحافظة على الهوية الكاثوليكية للبلاد. ومع ذلك يوجد فرق جوهري بين أن تلعب الدولة دورًا ما في حماية الدين، وبين أن تصبح الدولة ممثلة للدين وفارضة له كما هو الحال في المثال السعودي. إن السؤال المرعب الذي يواجه المسلمين في عالمنا اليوم هو: هل تتوافق الديمقراطية مع الإسلام؟ وهل في الإسلام نظام فريد للحكم خاص به؟ وهل تجب العودة إلى نظام الخلافة التاريخي وإعادة إحيائها حتى تجمع المسلمين تحت نظام واحد؟ إن المناقشات الدائرة حاليًا بين المسلمين ليست حول ما إذا كان الإسلام سياسيًا أم لا، بل إن القضايا التي تناقش الآن بين المسلمين هي الدور الذي يجب أن تلعبه الشريعة تحديدًا. وما هو دور الفقهاء، وعلاقة الدول بالله - عز وجل - والسياسة التشريعية والقيود الدستورية على الأعمال التشريعية، والرغبة في ديمقراطيات ليبرالية، بالإضافة إلى موضع حقوق الإنسان في نظام لحكم المسلمين. وتتراوح الأفكار حول تلك القضايا بين أن تكون متطرفة تشددية من ناحية، وبين أن تكون معتدلة من ناحية أخرى. إن تلك القضايا ليست سوى نماذج للمشاكل العديدة التي تقسم بشكل متزايد للمجموعتين اللتين تتصارعان حول روح

الإسلام. إن الأفكار الموضحة في هذا الكتاب ترتكز على خبرتي الطويلة في مشاكل وقضايا وعقائد الإسلام والمسلمين في عدد كبير من الدول الإسلامية وغير الإسلامية. إن معركة تلك الأفكار مشتعلة في دول الشرق الأوسط، لكنها بالتأكيد ليست مقتصرة على تلك المنطقة من العالم. إن معركة روح الإسلام تدور في كل دولة مسلمة أو غير مسلمة حيث اصطدام المتشددون مع المعتدلين وقيامهم بعمل انتهاكات. فقد ظللت لفترة طويلة من حياتي طالبًا في العقيدة والشريعة الإسلامية، وفي أوقات مختلفة كنت أتنقل بين أطياف الأفكار المقدمة في هذا الكتاب، ولقد عايشتها كناشط وكأكاديمي. ويجب أن أعترف أنني وبعد سنوات أمضيتها في قراءة المصادر الإسلامية حول العقيدة والفقه، قد أصبحت مقتنعًا تمامًا بأن التشدد الكثير يجرد الإسلام من محتواه الأخلاقي، وأصبحت مقتنعًا أيضًا بأن الإسلام غير الإنساني (أي الذي لا يدخل في حسابه الأمور الإنسانية) هو إسلام غير حقيقي، وأن الإسلام هو رسالة رحمة وتعاطف وحب وجمال، وأن تلك القيم هي التي تشكل جوهر الدين. وعلى الرغم من أن تدربي على أن أكون فقيهًا إسلاميًا وأكاديميًا علمانيًا ومحاميًا علمني أن أمثل مواقف ووجهات نظر قد لا أكون مقتنعًا بها. وسأجاهد لا من أجل توفير العدل مع طرفي الموضوع (المتشددين والمعتدلين) حتى ولو لم أتفق مع أحد من هذين الطرفين فقط، بل حتى ولو كنت أجد رأي أحد منهما مرفوضًا أخلاقيًا. وبعيدًا عن المناقشات المدرسية (الأكاديمية) المتعلقة بعلوم الدين، فإن الخلاف حول تلك القضايا له توابع وإيحاءات لها علاقة بواقع الحياة ومؤثرة فيها. إن تلك القضايا التي تواجهنا لا تقل أهمية عن الآتي: مَنْ من بين الجماعات المتشددة والمعتدلة من المجموعتين سيمثل ويلعب الدور الرئيسي في التعريف بثاني أكبر دين على مستوى العالم مستقبلاً؟؟.

الفصل الثانى

جذور المشكلة

إن كافة الأديان مثل كافة الحركات الاجتماعية والسياسية، لديها عملية أو طريقة لتأسيس وتحديد السلطة، فقد تكون السلطة رسمية أو شكلية، ولكن أيًا كانت الطريقة، فإن السلطة تحدد للشعب ما هو رسمي وما هو قانوني، وبشكل أساسي تحدد ما الذي يمكن أن يُعتمد عليه وما يجب أن يُتّبع. وفي السياق الإسلامي، فإن الشخص الذي له حجيّة هو الذي يُعلِّم المؤمنين ما هو مكروه وما هو مقبول وماهو فرض، ويعلمهم أيضًا ماهو - بصورة رسمية - جزء من دينهم.

ومع ذلك فقد عانى المسلمون في العصر الحديث من مشكلة السلطة، والتي تدهورت إلى حد الفوضى التامة، وهناك أسباب أدّت إلى هذا، سأتناولها بالشرح، ولكن بالنسبة لما نحن فيه الآن، يجدر بنا أن نلاحظ أنه في دار الإسلام والتي تشمل أي منطقة يقطنها المسلمون سواء أكانت إسلامية أو غير إسلامية، يوجد عديد من الجماعات الإسلامية التي تتظاهر بأنها تتحدث باسم الله، ولكن قليلون جدًا من يميلون إلى الاستماع إليهم .إن التعليق الجانبي ضروري هنا، فمفهوم الحداثة متنازع عليه جدًا من قِبَل واضعي النظريات الاجتماعيين، غير أني أعني بالعصر الحديث القرنين العشرين والحادي والعشرين لاسيما بعد الخمسينيات من عام ١٩٥٠م، وبدأ تدهور السلطة الدينية في عهد الاستعمار في القرن الثامن عشر خاصة أثناء غزو بونابرت لمصر عام ١٧٩٨م، لكن حتى لو عدنا إلى ذلك الحين، فإن العلماء أو رجال الدين كانوا قادرين على حشد السكان لشن تمرد واسع ضد فرنسا، وفي القرن العشرين وما وليه من السنين، توقف العلماء عن ممارسة هذا النوع من التأثير في معظم أنحاء العالم الإسلامي، وأصبحت أزمة السلطة الدينية كاملة التأثير. وفي أغلب الأحيان يشتكي الغرب من أنه من الصعب

معرفة ما إذا كان الإسلام يؤيد أو يدين وضعًا أو ممارسة أعمال من مثل احتجاز الرهائن، التفجيرات الانتحارية، وحجاب المرأة، ونفس الشكوى تقدم بها المسلمون الذين يعيشون واقعيًا في كل جزء من أنحاء العالم، إن كثيرًا من هؤلاء المسلمين قدموا شكواهم عبر منابر عديدة: كتب – صحف – تليفزيون – إذاعة، وشكواهم تمثل تشكيلة واسعة من القضايا من تلك المذكورة أعلاه، بالإضافة إلى مشروعية الزواج العرفي، وبعض أنواع الطلاق، والإقبال على قروض البنوك، ورهن المنازل، ومحاربة الأمريكان في العراق أو أفغانستان وواجب المسلمين تجاه إخوانهم الذين يعانون من الاحتلال في "الشيشان" و"كشمير". إنهم يجدون العديد من الآراء المتضاربة عمّا يشرّعه الإسلام وما يدينه. وتلك الظاهرة التي وصفت هنا ليست مقصورة على الشرق الأوسط أو على جزء واحد من العالم الإسلامي، فقد وصلني كم هائل من الرسائل من مسلمين يقطنون في عدة دول غير شرق أوسطية بما في ذلك ماليزيا، إندونيسيا، باكستان، الهند، بنجلاديش، أستراليا والعديد من دول أمريكا الجنوبية والدول المجاورة للصحاري الإفريقية، وكلهم يشتكون من نفس المشكلة ويتساءلون عمّا إذا كانت هناك طريقة يتحقق بها المسلمون – تحققاً لا جدال فيه – بشأن موقف الإسلام تجاه أيّ من القضايا التي ذُكرت أعلاه. والحقيقة هي أنه يوجد في العصر الحديث عديد من الادعاءات المتضاربة رُفعت باسم الإسلام، وعندما يتم البت فيها على ضوء القانون الإسلامي، فإن الإجابة التي يتحصل عليها المرء في أي مسألة معينة، تعتمد على الشخص المسؤول. هذه الحقيقة أشعر بها بشكل قوي بعد أحداث ١١/٩ الإرهابية، ولكنها كانت جلية في عديد من المسائل التي ثار حولها الجدل، مثل قضية سلمان رشدي، وما تمارسه طالبان ضد المرأة، والآثار التاريخية والدينية ومنزلة المرأة في نيجيريا واحتجاز الرهائن في إيران ولبنان، ومعاملة المرأة في المملكة العربية السعودية، وطرد البنات

المسلمات المحجبات من المدارس في فرنسا، وظهور السيدات كأئمة ودعاة في مصر وكندا وجنوب إفريقيا والصين.

علماء الدين والحركة النامية حول السلطة الدينية:

لاكنيسة في الإسلام كما لاحظنا من قبل، وعلى الرغم من أن ذلك قد أسهم في حالة الفوضى، إلا أنه لم يفسرها بالكامل، وهناك بذات المدلول، رجال دين في الإحساس الغربى، كما لا يوجد شيء في الإسلام يقترب من البابوية في روما أو مؤسسات الكهانة، ومع ذلك، فهناك طبقة من الناس يقصدون ما هو شبيه بالكلية حيث يدرسون العلوم الدينية والقانون الإسلامي. وفي الإسلام فإن هؤلاء الذين درسوا علوم الدين، يطلق عليهم في اللغة العربية أسماءً متعددة مثل "عالم" والجمع "علماء" و"فقيه" والجمع " فقهاء"، ومولى وشيخ أو إمام. وسأطلق عليهم لفظة: أصوليين طوال رحلتنا في هذا الكتاب وذلك بسبب طبيعة تدريبهم التقني الشرعي ودورهم التاريخي كمحاميين وخبراء في علم التشريع. واليوم، فإن هؤلاء الأفراد يلعبون دورًا يشبه تمامًا دورالأحبار في العقيدة اليهودية، حيث يقدمون النصائح ويكتبون عقود الزواج ويقيمون الشعائر الدينية للموتى، وفي بعض الأحيان يعملون كقضاة في المحاكم الدينية. إن آراء أولئك الخبراء القانونيين تحمل سلطة مقنعة، غير أنها لا تشكل فرضًا ولا إلزامًا. وتلك الآراء معروفة باسم "فتاوى" والمفرد "فتوى" والتي قد تخاطب مشكلة خاصة لشخص محدد أو مسألة ذات اهتمام عام. ولقد حدد العلماء المسلمون – بشكل حازم – المؤهلات التي يجب أن يتحلى بها رجل الدين قبل أن يتأهل لإصدار الفتوى. فإن كان الموضوع أكثر أهمية وخطورة، فإن المؤهلات المطلوبة للفقيه تكون أعلى. وفي الزمن المعاصر فإن الأوضاع التي كانت تفرض هذا النظام من الخبرات، قد انكمشت وتوارت. فاليوم، يستطيع أي شخص أن

يعين نفسه مفتيًا ويتقيأ فتواه دون أن يمنعه أي أمر قانوني أو اجتماعي من عمله هذا.

وقد يُعمل بالفتوى من قبل بعض المسلمين دون البعض الآخر. ومع ذلك، فليس من المفروض أن يكون قبول الفتوى أو رفضها مبنيّا على الهوى أو المزاج، إذ على كل مسلم أن يتدبر ويتفكر مليًا في كل فتوى، ثم ينحاز لها إذ اعتقد أن الفتوى تمثل حقًا مشيئة الله. ومع أن كل فتوى قد تعكس فكر من أصدرها تجاه ما يأمر به الله ويرضاه، إلا أن قبولها أو رفضها رهن بالمتلقي، إذ عليه ألا يسلم بها دون بحث أو تمحيص. و طبقًا للشريعة الإسلامية، فإنه على المسلمين بذل جهد واجتهاد كبيرين في بحث مؤهلات رجال الدين. قبل أن يقرروا الموافقة أو المخالفة على الفتوى التي يصدرها هؤلاء. ويوجد الآن تشويش في عالم الشريعة الإسلامية. وذلك في ظل وجود عدد كبير من الخبراء المصرّح لهم بالفتوى وغياب المؤسسات الموثوق بها، والتي ترفض أو تقبل المؤهلات التي يتحلى بها مُصدّرى الفتاوى. ومنذ حلول عصر الإنترنت، فإن معظم الفتاوى قد يصدرها أناس مدربون كأطباء ومهندسين وعلماء كمبيوتر بدلاً من الفقهاء الإسلاميين. وهذه بلبلة فقهية أربكت المسلمين وعذبت ذوي الضمير الحي منهم. لعب رجال الدين فيما قبل الاستعمار دورًا محوريًا في تجهيز السلطة في الإسلام. وعلى الرغم من وجود عُرف استقر عليه الأمر حول تعدد الآراء بين رجال القانون وممارسة الجدل وتعدد الرأي، إلا أن المؤسسات الفقهية قد زودت الفقهاء بقوة الإبانة والتوضيح وحددت ما هو صحيح وقويم في الدين. وفي كل مكان من العالم الإسلامي توجد هيئات دينية خاصة تعرف بـ "الأوقاف" والمفرد "وقف" وهذه تموّل شبكة من معاهد التعليم. وتم تأسيس تلك الأوقاف الدينية من قبل الخيريين وأكثرهم من النساء. وتعمل تلك المعاهد التعليمية على خدمة كل الأهداف العملية، وتتخذ كمدارس للقانون حيث تمد رجال الدين

بالتدريبات الدقيقة الخاصة بالفقه الإسلامي. يعد الفقه الإسلامي نظامًا قانونيًا، فكل جزء فيه معقد، مثلما الأمر في القانون المدني والعام والقضاء اليهودي وأنظمته القانونية. ومن المعتاد عند الغرب، أن يفرقوا بين الأنظمة الشرعية الدنيوية والشريعة الإسلامية، بادعائهم أن القانون العلماني يستند على سيطرة السيادة البشرية، بينما الشريعة الإسلامية تقوم على سيطرة السيادة الإلهية، وعلى صعيد المستوى النظري، فإن هذا الادعاء صحيح - إلى حدٍ ما - ولكنه سهو يميل إلى غمط دور الوكالة الإنسانية في إنتاج وإخراج الشريعة الإسلامية، فالفقه الإسلامي يختلف عن القانون العلماني في اهتمامه بالأمور المتصلة بعلاقة الله بالبشر، وهي تتم من خلال أداء الشعائر الدينية كالصلاة والصيام وإعطاء الصدقات وأداء شعائر الحج (وهذه تعرف بقوانين العبادات)، لكن الفقه الإسلامي يتشابه مع القانون العلماني في اهتمامه بالأمور التي تتعلق بالتفاعلات الاجتماعية والسياسية وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان (وهذه تسمى بقوانين المعاملات) وتختص تلك القوانين بعدة قضايا مثل الزواج، الطلاق، الميراث، الجرائم الجنائية، المعاملات التجارية ،معاملات العقود، القانون الدستوري والقانون الدولي. ووفقًا للنظرية الشرعية الإسلامية، فإن كل القوانين في كل فئة يجب أن تجهز لتحقيق الرخاء والعدالة للشعب وقبول ماهو خير ومنع ما هو شر. وتلك هي الأهداف الجوهرية للشريعة أو كما يطلق عليها البعض بالأغراض الأساسية للفقه الإسلامي، حيث إن رجال الدين المسلمين مكلفون بخدمة وتعزيز تلك الأغراض الأساسية. وتختلف الشريعة الإسلامية عن الأنظمة القانونية العلمانية، في أنها لا تستند على أوامر إيجابية من قبل الحكومة، ولكن - هي بالأحرى - تنتج بواسطة خبراء قانونيين يترجمون مصادر نصية ويطبقون منهجيات معينة طبقًا لمجموعة معقدة جدًا من القواعد. وتتمثل مصادر التشريع الإسلامي في القرآن الكريم الذي يؤمن المسلمون بأنه كلام الله

المنّزل بحروفه وألفاظه غير المحرّفة، والسنّة التي تصف أقـوال وأفعـال الرسول (صلى الله عليه وسلم) والصحابة. والقياس هو إلحاق حالة لم يصدر فيها حكم بأخرى مشابهة صدر فيها حكم، ولذلك فالحكم في قـضية سـابقة يكون هو ذات الحكم في القضية اللاحقة، وكـذلك إجمـاع رجـال الـدين القانونيين، (أو طبقاً لرأي البعض الآخر، هو إجماع صحابة رسول الله (ص) وطبقًا لرأيّ آخر هو إجماع عامة المـسلمين ولـو خـالف رأي الفقهـاء). وبالنسبة لغير هذه المصادر الرئيسية للتشريع، فإن القضاء في الإسلام يقـوم على العدالة والصالح العام أو العُرف، وتلك – بالطبع – هي النظرة العامـة للمصادر التي يعتمد عليها رجال الدين الإسلامي في تأسيس وإنشاء النظـام الشرعي الإسلامي، ولكن يجب أن نلاحظ أنه يوجد جـدال حـول المعنـى الصحيح لتلك المصادر وتطبيق كل مصدر، فعلى سبيل المثال، فإن كثيرًا من الفقهاء خاصة الشيعة يعتقدون أن السبب هو مصدر مستقل للقانون. ومثلمـا هو في نظام القانون العام، فإن الفقهاء المسلمين يمارسون دورًا مهيمنًا فـي إخراج مجموعة من الأحكام والقرارات التي نعرفهـا الآن باسـم الـشريعة الإسلامية. ومن الناحية النظرية، فإن الفقهاء المسلمين، قد بحثوا وترجمـوا القانون الإلهي (الشريعة)، ومارسوا قدرًا معتبرًا في التقدير والتمييـز فـي تحديد ما هو صحيح وما هو غير صحيح، وما هو شرعي يُعتـدّ بـه ومـا يشجب، وكذلك تحديد ما نعتمد عليه وما نـستثنيه. ولأن غالبيـة الأحكـام الشرعية هي ثمرة لنشاط وتفسير الفقهاء المسلمين، فسيجد المرء كثيراً مـن الآراء القانونية حول قضية مهمة، وكل يدّعى بأن آراءه هي الصحيحة. وفي القرنين الأوليين من الإسلام، سيجد المرء ما هو أكثر من ثلاثين من مدارس الفكر القانوني، وكلها تسير على طول خطوط المنهج العلمي مع اختلافـات تفسيرية، وكلها تتنافس للاستئثار بعقول وقلوب المسلمين. وعلى الرغم مـن أن المنافسة بين المدارس الفكرية المختلفة غالبًا ما كانت ضخمة، إلا أنها –

على حد سواء – كانت تعتبر صحيحة وسديدة الرأي. فجملة مجمـوع كـل الآراء القانونية للمدارس الفكرية المختلفة، بالإضافة إلى المبـادىء وعلـوم المنهج تسمى بالشريعة (القانون الإلهي المقدس). وفي العصور القديمة، لـم تكن الدولة تستطيع أن تنتج القوانين الشرعية، بل الفقهاء فقط هم الذين كانوا يقدرون على هذا. وبالنسبة للقوانين التي تمررها أو تصادق عليها الدولة، فقد كانت تعتبر قواعد تنظيمية لا جزءًا من القوانين الشرعية. تلقى معظم الفقهاء – في القرن العاشر – تدريبهم في واحدة من المدارس الفكرية السنيّة الأربع وهي (الشافعية، المالكية، الحنفية، الحنبلية)، وتعد كل مدرسـة مـن تلـك المدارس الأربع متساوية مع الأخرى في كونها قويمة الرأي والمعتقد، ويمكن لعامة الناس أن يتبعوا أي واحدة منها. (المدارس الأخرى العديدة التي كانت توجد من قبل، أصبحت لأسباب عديدة معقدة، بالية أو منقرضة)، أما فقهـاء الشيعة – فاعتمادًا منهم على انتسابهم الديني – فقد تلقوا أيضًا تدريبات فـي المدارس الجعفرية أو الزيدية، وفي بعض الأوقات، تلقوا أيضًا تـدريبًا فـي واحدة من مدارس القانون السنّية. ويمكن للطالب بعد سنوات من الدراسة في مدارس القانون أو على يد فقيه بارز، أن يحصل علـى عـدد كـاف مـن الإجازات من المعلمين المخلصين المتخصصين إلى أن يصل إلى مكانة فقيه في الشريعة. ويتمتع الخريجون الذين تلقوا تدريبًا في الفقه الإسلامي بالعديد من فرص العمل، وذلك يكسبهم مستوى رفيعًا في السلّم الاجتماعي. فقد يعمل الفقهاء كأساتذة للشرع أو كقضاة أو كرجال دين أو ككتاب في المحكمـة أو في مواقع إدارية عليا في الحكومة البيروقراطية. وعلى أية حال، فمن المهم أن نذكر أن القضاة – بغض النظر عن وظائفهم الرسـمية أو الحكوميـة – كانوا يحوزون عظيم الثقة والاحترام والولاء من قبل الجمهور وذلـك مـن خلال كتاباتهم وتعليمهم، كما أنهم أيضًا يتبوأون المكانة العالية في المجتمـع ويمارسون قدرًا عظيمًا من النفوذ في تعريف وتحديد الإسلام المـألوف. إن

ثراء الشريعة الإسلامية عظيم التعدد، ومن الصعب – حقًا – أن ننقل درجة التنوع والغنى الذي تمتعت به الشريعة الإسلامية. فالتقاليد القانونية الوحيدة التي أعيها وأدركها، والتي تلى التقاليد الشرعية الإسلامية في ثرائها، هي التقاليد الحَبْرية (الربانية) اليهودية بطرقها التفسيرية المتعددة وتفسيراتها المتنافسة المختلفة. وكما هو الشأن في التقاليد الربانية العبرية، فإن طلاب الشريعة الإسلامية يحترمون ويراعون سلسلة واسعة من التفسيرات والآراء البديلة الخاصة بأي نقطة تتعلق بالشريعة. والعديد من عقلاء الشريعة الإسلامية يعملون بجد ليحظوا بالاحترام والمتابعة المخلصة لعدد من الطلبة الذين يعملون بدورهم على نشر وتطوير التراث الفكري لأساتذتهم، وهذه التقاليد الربانية بكل ما فيها من منهجية وحكمة وعقلانية متنوعة تمثل القانون اليهودي، وهي مثل الشريعة الإسلامية، إذ تحتوي على سلسلة واسعة من المبادئ الأخلاقية والأدبية والمناهج القانونية والعديد من الأحكام المتعارضة والمتنافسة، ويعد هذا المصدر الغني المتنوع في آرائه وأحكامه ممثلاً بجملته لشرع الله تعالى. وفيالحقيقة، فإنه لكي أساعد في تصور تلك الظاهرة التي أصفها، فسأذكر مكتبتي الشخصية الخاصة بالشريعة الإسلامية فهي تحتوي على قرابة خمسين ألف كتاب، والغالبية منها كُتبت قبل القرن السادس عشر والتاسع عشر، وتعكس الكتب التي في المكتبة تنوعًا في التوجهات ومدارس الفكر وآراء كتبت كلها منذ ما يزيد على عدة قرون، والعديد من تلك الكتب في مجلدات عديدة. وفي الحقيقة، فإن بعضًا منها تحتوى عناوينه على ما يقرب من خمسين مجلدًا لو طبعت. وبينما أذّكر طلابي مرارًا وتكرارًا بأن الكتب التي يبلغ عددها خمسين ألف كتاب لاتحتوي على نفس الأفكار والعقائد، ولكن كل كتاب ينفرد عن الآخر بما يحويه من أفكار وعقائد، ومن الناحية القانونية فإن التنوع الذي تعكسه هذه الكتب يمكن أن يؤدى إلى تغيير كبير من حيث النتائج، وعلى سبيل المثال، فإن بعض الفقهاء يُحرّمون على

السيدات العمل كقضاة، ولكن البعض الآخر يجيز ذلك، وكثير من الفقهاء يمنعون المرأة من الإمامة في الصلاة، بينما القليل منهم يبيح ذلك. ولكن بقدر تنوع وثراء ما تحويه مكتبتي في وضعها الحالي من تنوع وغنى، فإن هناك المئات – إن لم تكن الألوف– لنصوص أخرى أحلم بأن أقرأها وأتمثلها يومًا ما؛ لأن هناك أفكارًا ورؤىً ما تزال لم تدرس بعد، وأنا شغوف بدراستها. ولسوء الحظ فإن العديد من تلك النصوص لم تنشر وما تزال في شكل مخطوطات. وتمثل كل تلك الكتب – سواء التي حققتها أو التي أحلم بتحقيقها وسواء التي نشرت أو التي لم تنشر– ما نسميه بالشريعة. والشريعة تعد رمزًا لصراط الله المستقيم والتي تمثل الجهود الجماعية للمسلمين في فهم ما يريده الله منهم. وقد قامت الشريعة بوظيفة أشبه بوظيفة الصمغ فقد ربطت الأمة مع بعضها البعض على الرغم من الاختلاف الكبير لأعراق عناصرها وجنسياتهم وكياناتهم السياسية. فأصبحت الشريعة رمزًا للوحدة والعمومية للمسلمين في جميع أنحاء العالم وصار الفقهاء حراس الشريعة وحماتها. وأصبحت الإمبراطورية الإسلامية طوال الفترة الكلاسيكية مقسمة إلى عدة إمارات وممالك يحكمها كثير من الأمراء والسلاطين، أو الخلفاء الذين كانوا في بعض الأحيان في صراعات عسكرية مع بعضهم البعض. وظلت الشريعة رمزًا عاليًا للوحدة، وظَلَ الفقهاء المعبرون عنها وحماتها بعيدين عن النزاعات العسكرية والسياسية والصراعات من أجل السلطة، وعلى هذا النحو، فإنه بالرغم من أن الفقهاء ينتمون إلى مدارس فكرية مختلفة، إلا أنهم وفروا مصدرًا مثاليًا للسلطة في العالم الإسلامي. هذا الصرح الكامل المركب الذي أمد السلطة الدينية في الإسلام، بدأ ينهار مع دخول الاستعمار الغربي في القرن الثامن عشر. فالعوامل المحلية التي ليس لها علاقة بالاستعمار، كأنظمة الضرائب غير الفعالة والقوات العسكرية الرديئة التنظيم، كانت قد بدأت عملية الهدم التام قبل القرن الثامن عشر، ولكن تلك العوامل كان من

الممكن أن تصلح نفسها ذاتيًا، لو لم تتلقَ الضربة العنيفة من الاستعمار التي وجهت إلى مؤسسات الشريعة بعد الهزائم العسكرية المتكررة للعثمانيين والقوات الإسلامية الأخرى في العالم الإسلامي. وبدأ الفقهاء يخسرون مكانتهم المتميزة في المجتمع ببطء، ولكن بصورة أكيدة ومع تدهور وضعهم، فإن مكان الشريعة – أيضًا – بدأت المساومة عليه بصورة جدية.

والاستعمار تحت رعاية دعوة التحديث الجديدة المتولدة عن نخب المتعلمين الحرفيين العلمانيين الموالين أخذ – تحت ستار الإصلاح – في إحلال الأنظمة القانونية التي تقوم على نظام غربي محل قوانين الشريعة. ومع هذا التحول ظهرت طبقة من المحاميين الذين تعلّموا في مدارس قانون ذات طابع غربي. ومع ذلك، فإن الضرر الحقيقي الذي أصاب الشريعة والفقهاء وغير الأوضاع، كان على يد الحكام الأصليين الذين عُينوا من قبل القوى الاستعمارية في فترة ما بعد الاستعمار، ولاسيما في الخمسينيات والستينيات، فقد كان كثير من حكام الدول الإسلامية عسكريين تدربوا في جيوش علمانية نظمت في ظل مذاهب عسكرية غربية، وبإيجاز يمكن القول بأنهم كانوا– في الجانب الأكبر– متعلمين تعليمًا غربيًا وعلمانيين قوميين، وكان أثر ذلك مدمرًا. وقد كانت الهيئات الإسلامية تموّل المدارس الشرعية التي أُممت ودخلت في ملكية الدولة. وفي معظم البلاد الإسلامية، تقلص دور الشريعة بشدة وحل محلها أنظمة قانونية تقوم على أساس غربي علماني. وعديد من المدارس الشرعية أغلقت وتوقفت، واليوم، فإن معظم هذه المدارس في وضعها السيئ قد حوفظ عليها لجلب السياح. أما المدارس الشرعية مثل الأزهر فقد أصبحت مدارس مملوكة للدولة التي تعين الأساتذة وتقيلهم. وفي ظل تلك التغيرات، أصبحت فرص العمل لهؤلاء المدربين في المدارس الشرعية محدودة جدًا. وأكثر فأكثر، لوحظ أن الفقهاء يعملون كموظفين للدولة وأنهم صاروا محكومين تمامًا، ويوجهون من قبل الدولة،

ولكن كان هناك تطور آخر غاب عن ذهن وانتباه كثير من العلماء المعاصرين، ذلك أن الدولة قد أعادت صياغة المناهج الدراسية في المدارس الشرعية وتم تعديل برامج التدريب للطلاب المقيدين في هذه المدارس من أجل تقييد قدرة الفقهاء العلمية، بحيث يعجزون عن تزويد المجتمع بالكفاءات العقلية التي تقود خطاه. ودُرب العلماء، أي الفقهاء على القيام بمهام محدودة في المجتمع، كأن يؤمّوا الناس في الصلاة في المساجد أو يخطبوا الناس يوم الجمعة أو يفصلوا في قضايا الأحوال الشخصية في المحاكم، ومن أجل تقييد وظائف رجال الشريعة سياسيًا واجتماعيًا، اتبعت الحكومة سياسة مزدوجة تتمثل في فرض معايير تربوية سيئة ودفع رواتب منخفضة. وفي معظم البلاد الإسلامية سعت الدولة لأن تعمل كحارس الباب بحيث تسيطر على وصول العلماء إلى بعض الكراسي العلمية، فحظّرت كتبًا أو مواد معينة وفصلت من العمل من خرج من الفقهاء على الخط أو تحدى الدولة بأي شكل من الأشكال، بالإضافة إلى أن الدولة بخفضها للمقاييس التعليمية وتضييق إمكانات الكسب للفقهاء، وبذلك تكون الدولة قد أوصدت أبواب المدارس الشرعية بحيث لا تجذب أحدًا للانخراط في الدراسة فيها إلا الفقراء والأقل ذكاء. أما عن المادة التي تدرس في مدارس الشريعة، فلم تعد تتضمن شيئًا عن نظرية فلسفة تشريع الأمثال القانونية السائرة، السوابق القانونية، المحكمات، إعادة التأهيل، نظرية الإجراءات أو أيًا من أنواع المواد التي تقابلنا في المدارس الشرعية. وكنتيجة لهذا، فلم يعد الخريجون من هذه المدارس الشرعية فقهاء أو خبراء في القانون بأي معنى من المعاني. وبصورة فعلية فقد أصبح الفقهاء في زي الكهان الغربيين الذين يعملون على هامش المجتمع كوعاظ دينيين، دون أن تكون لهم القدرة على التأثير في الحياة السياسية أو الاجتماعية بأية طريقة ذات قصد. وبعد أن تبنت معظم الدول الإسلامية الأنظمة القانونية الغربية الأساسية نزعت الدولة حق تعريف

القانون وفرضه من أيدى الفقهاء ومنحته للمحامين الذين تعلموا في مـــدارس القانون العلمانية ذات الطابع الغربى. وهذه العملية تمخضت عن فراغ فـــي السلطة الدينية في الإسلام المعاصر. فتحطم المؤسسات التقليدية للتعليم الديني وتفسخ السلطة، يعني الدخول في فوضى عملية فيما يتعلــق بآليـــة تحديــد الأصالة الإسلامية. وفي القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، عنــدما لوحظ أن القانون الشرعي قد بدأ يتوارى في المجتمع، وانبــرى نفــر مــن العلماء والفقهاء من أمثال: رفاعة الطهطاوى (تُوفي ١٨٧٣)، ومحمد عبده ١٩٠٥، ورشيد رضا ١٩٣٥، وعبد الرحمن الكوكبي ١٩٠٢، وجمال الدين الأفغاني ١٨٩٧، وعلى جلال السناني ١٨١٠، ومحمــد الــشوكاني ١٨٣٤، ومصطفي المراغي ١٩٤٥ ومحمد إقبال ١٩٣٨ للتــصدي لهــذه الكارثـــة، محاولين وأدها من خلال الترويج للبرامج التحرريـــة لإصـــلاح الــشريعة، وحاول هؤلاء المفكرون أن يعيدوا ترجمة الشريعة الإسلامية ليجعلوها أكثر استجابة للتحديات المعاصرة، كحقوق المرأة والحقوق المدنية للإنسان والحكم الديمقراطي والعدالة الاقتصادية. وعلى الرغم من أن مجهوداتهم الفكرية تعد هائلة، إلا أنه من الصعب أن نقيّم التــأثير الــصحيح لهــؤلاء المــصلحين التحررين على تاريخ الإسلام، وبشكل أساسي، فإن التطورات السياسية فـــي ذلك الوقت نحّت إصلاحاتهم جانبًا، ونقلتها إلى الهامش. ولم يكن المصلحون من العلماء والفقهاء – معظم الوقت – يقودون حركات جماهيرية، والفــراغ الديني الذي كانوا يعملون على مواجهته سرعان ما مُلئ بحركـــات شـــعبية يقودها رجال ليس لهم من تدريب ولا تعليم، كمثــل الــذي كـــان للفقهـــاء التحررين. غير أن فحص تأثير هؤلاء الفقهاء –على المدى القصير– ليغري المرء باستنتاج أن أولئك الفقهاء المصلحين لم يغيــروا كثيــرًا فـــي العـــالم الإسلامي. ومع ذلك فإني أعتقد أن هذا الاستنتاج فيه تـــسرع كبيـــر، إذ إن هؤلاء المصلحين قد ألهموا آخرين مثل: الشيخ عبد المجيد سالم (ت١٩٥٤)

والشيخ محمود شلتوت (ت ١٩٦٣) ومحمد الغزالي (ت ١٩٩٦) ومحمد عمارة وصبحي المحمصاني وعبد الرازق الصنهوري (ت١٩٧١) وسالم العوا وأحمد حسن (ت ١٩٥٨) وفضل الرحمن (ت ١٩٨٨) وآخرين واصلوا البناء على ما قام به أسلافهم من جهود عبر السنين حتى بدايات القرن العشرين. ولقد كان للمصلحين تأثير هام على الاتجاهات المعتدلة في الإسلام المعاصر، وعلى سبيل المثال، فإن بعض الأفكار التي أثارت خلافًا واسعًا حين اقترحت بشكل أصلي، هي الآن معتبرة كبديهية في نظر المسلمين المعتدلين. وبينما لم يملأ المصلحون التحرريون فراغ السلطة الذي تواجد في عصر ما بعد الاستعمار، فإن أفكار هؤلاء المصلحين هي التي أوحت فكر ما أسميه بالإسلام المعتدل. واليوم، فإن المعتدلين هم وحدهم الذين يتصدون للمتشددين ويتطلعون لملء فراغ السلطة الذي أصاب الإسلام المعاصر.

طبيعة الفراغ

في عام ١٩٣٣ انتقد الفقيه البارز الشيخ يوسف الدجوي (١٣٦٥- ١٩٤٦) بقسوة شديدة كثيرًا من توجيهات المتشددين التي أخذت تنتقص من العقيدة الإسلامية بتمكينها عددًا من ذوي التعليم المحدود جدًا في مجال الفقه؛ من أن يعلنوا عن أنفسهم أنهم خبراء في الشريعة. ولم تكن مخاوف الشيخ يوسف الدجوي موثوقًا بها فقط، بل إن الأشياء التي كانت آخذة في السوء، حتى إنه لم يكن ليتخيل – أبدًا – أن تصبح هكذا. قد أُكدت كثيرًا صدق مخاوفه، وهي أن الفراغ في السلطة لا يعني أبدًا أن لا أحد يمكنه أن يتكلم عن الإسلام بصورة رسمية، ولكن يعني أنه من الناحية العلمية لا يجوز أن يأتي بين الحين والآخر مسلم ذو معرفة متواضعة بالقرآن والسنّة، فيعتبر فجأة بأنه مؤهل للحديث عن العقيدة والشريعة، وقد يفعل مثل ذلك بعض المسلمين الذين ليس لديهم معرفة حسنة بالسلف وإنجازات الأجيال الماضية،

فيدّعون مثلما ادعى ذلك المسلم. ومعظم هؤلاء الذين نصّبوا من أنفسهم خبراء في الدين، هم مهندسون وأطباء وعلماء في الفيزياء. وفي الحقيقة، فإن قادة معظم الجماعات الدينية كالإخوان المسلمين والقاعدة، كانوا مهندسين وأطباء بشريين. إن هؤلاء الذين علّموا أنفسهم ونصّبوا من أنفسهم فقهاء، قد هبطوا بالتراث الإسلامي إلى أدنى مستوى عام، فالثقافة العقلية قد شهدت مستوى غير مسبوق من التدهور. والحقيقة المحزنة، هي أن الفقه الإسلامي وعلوم الدين في الفترة المعاصرة، قد تحولت إلى هواية حرة غير مدرسية لكتاب وقراء (الكتيبات). وحيث إن الشريعة قد هُمشت ونُحّيت، إذن فقد أصبح الميدان الآن مهيأً لقصص التقوى الخيالية والتعميمات الشديدة، بدلاً من النظام التقني للممارسات التفسيرية ومناهج التحليل الاجتماعي والنصي المعقدة. ولكي نجعل المشكلة أكثر قربًا من العقل، فلنتخيل أن القانون الرباني لليهود قد اغتصبه فجأة المهندسون والأطباء اليهود، وعندئذ وبسرعة فلن يتبقى من القانون الرباني إلا نوادر غير منظمة وتخمينات للتأمل. وبغض النظر عن مدى الاهتمام بالنتيجة الجماعية التي قد يُتوصل إليها، فإن القانون الرباني (أي الديانة اليهودية) كتراث متماسك سيكون قد ولّى. وإن الدور الذي لعبه من نصّبوا أنفسهم خبراء في الشريعة هو موضح جزئيًا لطبيعته المتعارضة مع الشريعة نفسها. وكما لوحظ من قبل فإن الشريعة – من ناحية – تمثل الكم الإجمالي للنظم القانونية التقنية وللسوابق والقرارات، وهي – أيضًا – من ناحية أخرى نموذج قوي للهوية الإسلامية. وبالنسبة للفقيه المدرب، فإن الشريعة عنده هي نظام قانوني مليئ بالعمليات المعقدة واللغة الاصطلاحية الفنية، أما بالنسبة للمسلم العادي – على امتداد التاريخ الإسلامي – فإن ذلك المسلم – الذي يكون قد عرف بصورة ترجيحية كاملة حظًا قليلاً من تقنيات الشريعة – سيُجِلُّ تلك الشريعة ويراها جسرًا مقدسًا يعبر عليه إلى ربه العظيم. وعلى سبيل المثال، فإن الفقيه المسلم الشهير ابن

القيم (٧٥١هـ- ١٣٥٠ م) نقل في كتابه إحساسًا بالتبجيل والعشق انعقد لتلك الشريعة في التاريخ الإسلامي. إنه يقرر: "إن الشريعة تمثل عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه، إنها ظل الله على الأرض، إنها الحكمة التي توصل إليه على أكمل وجه والتأكيد الأكثر ضبطًا على صدق رسالة نبيه (صلى الله عليه وسلم). إنها نور الله الذي يضيئ للسالكين وهي هدى الله لمن اهتدوا، إنها الشفاء المطلق من كل الأمراض والطريق المستقيم الذي إن اتّبع قاد إلى الخير... إنها الحياة والغذاء والدواء والنور والشفاء والحارس الأمين. كل خير في هذه الحياة نابع منها ومتحقق عن طريقها، وكل نقص في الوجود هو ناتج عن الانغماس في الملذات والخروج عليها. وإذا لم يكن من أجل حقيقة أن بعضًا من أحكامها يبقى ويستمر في هذا العالم، لآل هذا العالم إلى الفساد ولضل وانغمس في الملذات... ولو شاء الله أن يدمر العالم ويلغي الوجود، فإنه سيعيد إحياء ما شاء من وصاياها، تلك الشريعة التي أرسلت إلى نبيه (صلى الله عليه وسلم)... إنها عمود الوجود ومفتاح النجاح في الدنيا والآخرة..."

وفي هذا النص تكلم ابن القيّم عن الشريعة لا على أنها نظام قانوني تقني، ولكن كنموذج يوحد هوية المسلمين برغم تنوعها الملحوظ وتعدد وظائفها. وبسبب دور الشريعة الرمزي وقدرتها على استمالة وتحريك مشاعر العامة من المسلمين؛ فقد وجد النشطاء وقادة حركات المتشددين أنه من الضروري أن يستغلوها من أجل الظفر بتأثير شعبي متميز. وفي الحقيقة، فإنه في السبعينيات وجدنا أن حكومات عديدة كتلك التي في مصر والأردن وباكستان وماليزيا وإندونيسيا والسودان، تعاهدوا على نُصرة الحركات الإسلامية من أجل حصر الماركسية والمنظمات اليسارية. والحكومات- أيضًا- تمنت أن تعزز قاعدة سلطتها الخاصة بظهورها كداعمة لتلك الحركات الإسلامية التي رفعت راية الشريعة، ودعت المسلمين للالتفاف

حولها. وعلى أية حال، فإن فترة السلام بين الحكومات العلمانية وحركات المتشددين، كانت قصيرة الأمد؛ لأن تلك الحكومات سرعان ما اكتشفت أن هذه الحركات التشددية أصبحت تشكل تهديدًا خطيرًا على استقرار تلك الحكومات العلمانية. ثم جاءت الثورة الإيرانية عام١٩٧٩م – وبشكل خاص – لتمثل تنبيهًا عنيفًا لحكومات الدول الاستبدادية التي تحققت من أن خطر الشريعة قد اقتحم معاقلها، وأن الشريعة قد باتت تملك القدرة على تحريك الجماهير والإطاحة بالحكومات العلمانية. وعلاوة على ذلك، فإن اغتيال الرئيس المصري أنور السادات عام ١٩٨١م على يد جماعة متطرفة أضاف – فقط– إلى التخوف والعداء الموجودين بين مختلف الحكومات الاستبدادية وبين المتشددين. وفي محاولة للتخلص من خطر الجماعات المتزمتة في أوائل الثمانينيات من عام ١٩٨٠م، تم استبدال العديد من الحكومات الإسلامية في العالم الإسلامي القمع الوحشي بفترة السلام التي لم تدم طويلاً. وعلى أية حال، فقد نجح القمع السياسي – فقط – في تحذير الحركات التشددية بصورة أقوى، ثم إن هذا القمع ولّد إحساسًا عريضًا من التعاطف مع هؤلاء المتشددين الذين نظر إليهم على أنهم ضحايا الظلم والقسوة. تعاطف معظم المسلمين فيالسبعينيات والثمانينيات مع حركات المتشددين كخطوة للاحتجاج على قمع الحكومات المستبدة والفاسدة للجماعات المتشددة، وإن كان ذلك لا يعني بالضرورة موافقتهم على أن المتشددين ممثلون للإسلام. وبعيداً عن القمع السياسي، فلقد كانت هناك عوامل تاريخية أخرى وهي التي أدت إلى استغلال المتشددين للشريعة كرمز مؤثر للشريعة في محاولة لملء فراغ السلطة الدينية التي أزعجت الإسلام المعاصر. كان العالم الإسلامي، ولاسيما الشرق الأوسط، يفيض بالمذاهب الوطنية والحركات المعارضة للاستعمار في الستينيات والسبعينيات، والإيديولوجيون من القوميين العرب ودعاة الوحدة العربية، بدوا صامدين، ورأوا في الإسلام عقبة في طريق التقدم

التنموي والتحديث، وبسبب الأثر القوي للإسلام في المجتمع وقدرتـه علـى تحريك الجماهير؛ فقد رأي دعاة القومية والوحدة العربية أن ينظموا ويضبطوا – بشدة – الحركة الدينية، ثم يستخدمونها. ودعمًا لوجودهم وقضيتهم. فإننا نجد على سبيل المثال، الرئيس "جمال عبد الناصر" يحاول تحقيق هذا بجعله جامعة الأزهر التي كانت يومًا ما مستقلة وذات هيبة ووقار، تتبع الحكومة وتعتمد عليها وتتلقى منها الدعم فيما تقوم به من سياسات، ومن بينها الضغط العنيف على الجماعات الإسلامية كالإخوان المسلمين. وثمة مثال لتلك الظاهرة وقع بعد ذلك، عندما قام " صدام حسين " زعيم حزب البعث العلماني بوضع كلمة "الله أكبر" على علم العراق، وتناول صدام في أحاديثه عن موضوع الجهاد والحاجة إليه، وذلك في محاولة يائسة منه جعل العراقيين يجاهدون من أجل تدعيم نظامه. ومثلما وقع في محاولة صدام في الخمسينيات والستينيات من استغلال الدين بشكل انتهازي وقح يفتقر إلى المصداقية، فإن المحاولة أخفقت غير أنها نجحت – فقط – في إثارة وتحريك مشكلة السلطة الدينية في العالم الإسلامي. أما حرب ١٩٦٧ والتي هزم فيها عدة دول عربية على يد إسرائيل، فقد ألهب الجرح بذرّ الملح عليه، عن طريق التأكيد على ضعف الدول الإسلامية. ثم إن حرب ١٩٦٧ بترت بعنف جانبًا من مصداقية القوميين العرب ونظريات دعاة العروبة. ولم يكن فقد القدس وضمها لإسرائيل ضربة موجهة إلى العرب فقط، وإنما للمسلمين كافة وفي العالم أجمع. إن هذه الضربة التي حركت مشاعر المسلمين لها جذور في التاريخ، ففي عام ١١٨٧ – على سبيل المثال – قام صلاح الدين باستعادة بيت المقدس بعد أن هزم الفرنجة، ووقوف قائد دمشق في المسجد الأقصى ومدحه صلاح الدين بقوله: "لقد استعاد الإسلام كرامته بفضل أعمال صلاح الدين". وقد شعر المسلمون بأن استيلاء إسرائيل على المسجد الأقصى قد أفقد الإسلام مجده السابق، بل وشعر البعض أن الإسلام

قد أصبح في خطر. فالانهزامات العسكرية التي أدت إلى تدمير الفخر الوطني للبلاد الإسلامية، دمجت الشعور بخيبة الأمل بسيطرة الأوامر السياسية، ثم – أيضًا – جعلت الأزمة الشرعية الدينية أكثر حدة. ومع فقدان القدس وانتشار الإحساس بأن الحكومات العلمانية لم تطور أممها ولم ترد للمسلمين إحساسهم بالفخر، فقد شهدت السبعينيات والثمانينيات ما وصفه بعض الفقهاء بالإحياء الإسلامي أو العودة إلى الإسلام. ومهما يكن، فإن البعث الإسلامي شمل ظهور الحركات الجماهيرية التي كان غالبًا ما يقودها أولئك الفقهاء الذين نصّبوا من أنفسهم خبراء في الشريعة، والذين استغلوا ميزة فراغ السلطة الدينية. وردًا على الضربة القاسية التي وجهت إلى العزة والفخر القومي للمسلمين، فإن هؤلاء الذين زعموا أنهم فقهاء وادعوا العلم بالشريعة، لم يكونوا مهتمين بتعزيز وحدة الأراضي أو تطوير الفكر أو الشريعة الإسلامية، بينما كان اهتمامهم الرئيسي – وعلى نحو متزايد – ينصبّ على زيادة المقبلين على العقيدة الإسلامية، مطالبين بتحويلها إلى أداة إظهار لرموز السلطة. وكان هدف رمزية السلطة هو التغلب على الشعور بالعجز واستعادة فخر المسلمين من خلال التمسك بالإسلام كرمز للمقاومة والمواجهة، ولقد أصبحت رمزية السلطة علاوة على ذلك وسيلة للتعبير عن المقاومة للهيمنة الغربية في العصر الحديث، وأصبحت أيضًا وسيلة للتعبير عن الطموح الوطني من أجل تحقيق الاستقلال السياسي والاجتماعي والثقافي في العالم الإسلامي. وهذا يعني وضع العقيدة الإسلامية في خدمة الأغراض السياسية والقضايا الوطنية وهذه الخدمة لها تأثيران: **الأول** هو إنه مثلما كان يعمل التراث الفكري الإسلامي بمواظبة وإصرار على دعم القضايا السياسية المتقلبة والمتغيرة، فإن العقيدة الفكرية الإسلامية وشريعة الإسلام تعاني من الفساد والدمار، لذا يجب دعمها. أما **الثاني** فهو أن الإسلام قد صار في بلاد غير المسلمين مقرونًا بالقضايا السياسية. ولذا فقد أصبح من الصعب أن يفكر

الغربيون في الإسلام دون الإشارة إلى تلك القضايا السياسية. والمثال الأكثر وضوحًا على ذلك، هو الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، حتى أن الكثير من الناس في الغرب – على سبيل المثال- لايستطيعون التفكير في الإسلام دون التفكير في تأثيره على ذلك الصراع، وكثيرًا ما أواجه تلك المشكلة عند تعليم الشريعة الإسلامية. ويظن الكثير من طلابي أن المنهج التعليمي الخاص بالفقه الإسلامي لابد أن يربط بين هذا الفقه والنزاع الفلسطيني الإسرائيلي، وعندما أوضحت أن ذلك المنهج لن يتناول ذلك النزاع، وجدت أن عددًا كبيرًا من الطلاب قد انسحب من الدورة التعليمية، وإليك مثال آخر مشابه لسابقه: درجت مدرسة يالى القانونية على أن تقيم ندوة دولية سنوية حول القانون الإسلامي، وعندما اشتركت في تلك الندوة وجدت أن المؤتمر انصب نشاطه على مناقشة النزاع العربي الإسرائيلي، تاركين – وهم في حالة الارتباك والخلط، وهذا مفهوم – الموضوع الرئيسي للندوة جانباً، وإذا بهم يتحولون عنه إلى بيان علاقة الإسلام بالقضايا والموضوعات السياسية، فإننا نجد أن الفكر الإسلامي مهتم بالمناخ الفكري الضعيف الذي كان ملائمًا للاستغلال من قبل الحركات الجماهيرية "الدينية" ولقد قُدّر لاثنتين منها أن تملك التأثير والقوة وهما السلفية، والوهابية التي تأسست في السعودية. ويحمل الفكر الإسلامي تأكيدًا على أن هاتين الحركتين اللتين وجدتا مناخًا فكريًا ضعيفًا ملائمًا للنمو والتمدد لم تكونا وحدهما. ففي الواقع، كان يوجد الكثير من الحركات الجماهيرية حول العالم الإسلامي ساهمت في حالات الفوضى التي عانى منها وأصيب بها العالم الإسلامي. وفي رأيي أنه في نفس الوقت أي في الثمانينيات، وبعد ذلك، فإن جماعتي السلفيين والوهابيين قد أصبحتا – بدون شك – من أكثر الجماعات المتزمتة تشددًا في معظم أنحاء العالم الإسلامي. وبشكل قاطع، فإن هاتين الجماعتين- أكثر من غيرهما- قد أصبحتا من القوى الإيديولوجية الحاسمة للإسلام المتشدد.

الفصل الثالث

ظهور المتشددين الأوائل

أصول الوهابيين

لقد بدأت قصة الإسلام التشددي غالباً مع الوهابيين، ومن المستحيل أن نقيِّم حجم تأثير الوهابيين على الفكر الإسلامي في العصر الحديث، حتى عقب أحداث الحادي عشر من سبتمر والاستيقاظ المفزع لدول العالم على عنف تفجيرات القاعدة، ولقد بات واضحًا أنهم تركوا تأثيرًا بينـًـا على كل حركة تشددية في العالم الإسلامي في الوقت المعاصر، فلقد تأثرت بفكر الوهابيين وبشدة كل جماعة إسلامية تمكنت من تحقيق درجة من الشهرة على المستوى العالمي من أمثال طالبان والقاعدة. لقد وضع المبشر "محمد عبد الوهاب" (تُوفي ١٢٠٦-١٧٩٢) أسس الفكر الوهابي في القرن الثامن عشر، وكان اعتقاد "عبد الوهاب" الرئيسي أن المسلمين قد أخطأوا بانحرافهم عن الصراط المستقيم للإسلام، وأنه من الممكن أن يستعيد المسلمون رضا الله وقبوله وذلك فقط بالعودة إلى الدين الوحيد الصحيح. ولقد سعى "عبد الوهاب" بحماسة تشددية لتخليص الإسلام من كل أشكال الفساد التي يعتقد أنها انسلت إلى الدين؛ وطبقـًـا لعبد الوهاب، فإن أشكال الفساد هذه تشتمل على التصوف وعقيدة الشفاعة والمذهب العقلي والشيعية، وأيضًا بالإضافة إلى الممارسات الكثيرة التي اعتبرها عبد الوهاب بدعًا كافرة.

ففي وقت عبد الوهاب أنتجت الحداثة ثورة في المفاهيم الإنسانية حول الحقيقة في العالم من خلال تقديمها الإدراك المزعزع للاستقرار لذاتية كل المعرفة الإنسانية، وأيضًا من خلال تقديمها التجريبية العلمية. وقد زادت الحداثة بشكل ملحوظ من تعقيد الترتيبات الاجتماعية والاقتصادية، الأمر الذي زاد من الإحساس بالعزلة في تلك المجتمعات التقليدية التي تصارع كي

تتمو وتتحدث. ولقد استجابت مختلف المجتمعات والحضارات والحركات في العالم الإسلامي لتأثير الحداثة المزعزع للاستقرار بطرق مختلفة، فالبعض استجاب من خلال محاولة التشبه بالغرب والابتعاد قدر الإمكان عن الإسلام كما حدث في تركيا على يد الحركة الكمالية وآخرون - حاولوا من خلال رفضهم للحضارة الغربية - أن يوفقوا بين الإسلام والحداثة من خلال التأكيد على أن الفكر العلمي والعقلاني يتوافقان ويتسقان تمامًا مع الأخلاق الإسلامية. ولقد استجابت الوهابية لقوى الحداثة المزعزعة للاستقرار ولخطرها الأخلاقي والاجتماعي الداهم بالجري وراء ساتر يتمثل في التشبث بنصوص إسلامية معينة كي يستمدوا منها الشعور باليقين والراحة، ويبدوا أن الوهابية اعتقدت أنها قد حصنت نفسها ضد تحديات وتهديدات الحداثة من خلال تطويع النصوص الدينية بحيث توفر إجابات حاسمة لا تقبل الجدل لكل قضايا الفرد والمجتمع تقريبًا.

لقد أظهرت الوهابية عداءً شديدًا لكل أشكال المذهب العقلي والتصوف والطائفية الموجودة في الإسلام واعتبرتها جميعًا بدعًا فاسدة تسللت إلى الإسلام كنتيجة لتأثيرات غير إسلامية، لقد صار الوهابيون يعاملون كل شيء يأتي من خارج الجزيرة العربية على أنه جدير بالشك، وقد آمن الوهابيون بأن التأثيرات غير الإسلامية إنّما جاءت من أمم مثل الفرس وتركيا واليونان، فعلى سبيل المثال، يعتقد الوهابيون أن الصوفية مأخوذة من الفرس، والإيمان بالتبرك بالأولياء وتبجيل الأضرحة هو سلوك مأخوذ عن الأتراك، أمّا المذهب العقلي والفلسفة فهما من اليونان. إن تلك الادعاءات الوهابية سطحية للغاية وغير دقيقة، وإنه لا يوجد أدنى شك في أن الوهابيين قد كانوا يساوون بين الممارسات البدوية المتزمتة وبين الإسلام الصحيح ويجعلونها على قدم المساواة . فطبقاً للوهابيين كان لزامًا علينا أن نعود إلى الإسلام القويم البسيط والمحتفظ بنقائه الأصلى الذي يعتقدون أنه يمكن استعادته من

خلال التنفيذ الحرفي لأوامر الرسول (صلى الله عليه وسلم) والاقتداء بأفعاله والتمسك التام بالشعائر الصحيحة . لقد تعامل الوهابيون مع النصوص الدينية كما لو كانت كتالوج تعليمات خاصًا بالمدينة الفاضلة المصوغة على غرار دولة الرسول (صلى الله عليه وسلم) في المدينة. إن أسباب تخلف المسلمين وشعورهم الجماعي بالمذلة سيزول ويختفي فقط إذا ما عادوا إلى اعتناق الممارسات والمعتقدات الصحيحة كما شرعها الله؛ وذلك لأن المسلمين بهذا يكونون قد حظوا مجددًا بفضل الله ورعايته. وقد رفضت الوهابية أيضًا العادة الإسلامية المعمول بها منذ زمن طويل، ألا وهي اعتبار مختلف مدارس الفكر رشيدة الرأي ومتساوية في ذلك، وحاولوا أن يضيقوا من نطاق القضايا التي اختلف المسلمون حولها فقهيًا. ولقد عرّف الوهابيون استقامة الرأي بشكل محدود، وطبقــًا لهذا التعريف، فإن عادة قبول تعدد الأراء التاريخية واعتبارها جميعًا شرعية وصحيحة كانت السبب وراء تفكك المسلمين وأيضًا أحد أسباب تخلف والمسلمين وضعفهم.

ولطالما تورط "عبد الوهاب" وأتباعه في خطب بلاغية مسهبة وعنيفة ضد فقهاء العصور الوسطى والفقهاء المعاصريين الذين اعتبروا في نظر هؤلاء ملحدين، بل وطالبوا بإعدام واغتيال عدد كبير من الفقهاء الذين اختلفوا معهم، لقد كان "عبد الوهاب" يشير باستمرار في كتاباته للفقهاء على أنهم شياطين أو أعوان الشياطين. ولقد أزال بهذا أي حاجز نفسي يحول دون انتهاك سيرة العلماء البارزين. وطبقــًا لعبد الوهاب وأتباعه، فإن الميراث الفقهي (فيما عدا قلة من الفقهاء مثل ابن تيمية (تُوفي ٧٢٨هـــ/١٣٢٨م) الذي كانوا يُجلونه للغاية يعد فاسدًا إلى حد كبير، وأن الإذعان إلى مدارس الفكر الفقهية المعروفة أو إلى الفقهاء المعاصريين يعد عملاً من أعمال الهرطقة. لقد كان جميع الفقهاء الذين لا يتمسكون بالمعنى الحرفي أو أولئك الذين يُعتقد أنهم يستخدمون العقل في التفاسير الشرعية أو الذين دمجوا طرق

التحليل العقلاني بتفسيراتهم يُعتبرون منشقين. ومن بين فقهاء العصور الوسطى الذين أدانهم الوهابيون على نحو بيِّن واعتبروهم كفارًا، علماء بارزين على شاكلة فخر الدين الرازى (تُوفي ٦٠٦هـ / ١٢١٠م) تمامًا مثلما اتهم اليهود موسى بن ميمون أو كما اتهم المسيحيون الكاثوليك توماس أكونيوس بأنهما كافران؛ وذلك لأنهم اعتمدوا على معايير عقلانية في التفكير في قانون الله، علاوة على ذلك، فلقد اعتبر الوهابيون الشيعة جميعًا وبلا استثناء وكذلك جميع الفقهاء الذين يتعاطفون مع الشيعة منشقين أيضًا. إن إطلاق لقب منشق على مسلم له أهمية بالغة، فالمنشق يعامل كالمرتد عن الدين، ومن هنا فإن قتله أو إعدامه يعتبر أمرًا مشروعًا . ولقد كان "عبد الوهاب" نفسه مولعًا بعمل قوائم طويلة للمعتقدات والأفعال التي اعتبرها معتقدات و أفعال منفاقين والتي تُحيل المسلم الذي يعتنقها أو يرتكبها لأن يكون غير مؤمن فورًا، وعلى سبيل المثال لا الحصر، يقول "عبد الوهاب" بأنه إذا ما أعلن مسلم أن استهلاك الخبز واللحم أمرًا ليس حلالاً، إذن فمثل هذا المسلم يصبح كافرًا؛ لأنه من الجلي أن الخبز واللحم حلال في الشريعة الإسلامية، وبما أنه أنكر ما أحل الله فمثل هذا المسلم يُباح قتله. ولقد أكد "عبد الوهاب" في تعاليمه على أنه لا يوجد طريق وسط للمسلم، فإمّا أن يكون مؤمنًا حقـًا أو لا يكون، فإن لم يكن المسلم مؤمنًا حقـًا. وطبقـًا لمعايير "عبد الوهاب" فلن يكون لدى "عبد الوهاب" أي وخز ضميري في إعلان أن ذلك المسلم كافر، ومن ثمّ يُعامل على هذا الأساس. وإذا ما ارتكب المسلم ضمنـًا أو صراحة عملاً ينم عن عدم نقاء إيمانه بالله أو أنه أشرك بالله تلميحًا أو تصريحًا (تعبير إسلامي يعني أن يعلن عدم الإيمان بوجود إله واحد فقط هو الآخر الصمد، أو أن يشرك بالله بأن يجعل له شركاءً أو أندادًا) إذن فيجب أن يعتبر ذلك المسلم كافرًا أو يقتل. وبالنسبة لعبد الوهاب يُعتبر أي انغماس في المذهب العقلي أو إتيان أي عبث أو عمل تافه مثل الموسيقى

أو الفن أو الشعر غير الديني يمثل عند "عبد الوهاب" شكلاً من أشكال الشرك بالله، وهو أمر جد خطير بحيث يكفي لإخراج المسلم من دائرة الإسلام . لقد كان "عبد الوهاب" عدائي بشكل متطرف إلى أبعد الحدود مع غير المسلمين أيضًا، وكان يصر على أن المسلم يجب ألا يتخذ أيًا من عادات غير المسلمين ويجب ألا يصادق أيضًا أناسًا مثل هؤلاء. لقد كان ما يعتقده غير المسلمين حول ممارسات المسلمين أمرًا غير هام على الإطلاق ولم يكن مهمًا أيضًا إذا ما كان غير المسلمين متأثرين أو موافقين على سلوك المسلمين أم لا. والجدير بالأهمية أن "عبد الوهاب" كان يرى أن غير المؤمنين ليسوا فقط المسيحين أو اليهود بل وأيضًا المسلمون الذين أصبحوا (حسب تقييمه) مرتدين نتيجة لمعتقداتهم أو أفعالهم. إننا إذا ما وازنّا الأمور فسنجد المسلمين المرتدين من منظور "عبد الوهاب" أسوأ من المسيحين واليهود؛ لأن معتقداتهم وأعمالهم المهرطقة أكثر إضرارًا بالدين.

لقد أصرّ "عبد الوهاب" على أن الاهتمام أو الولع بمعتقدات أو ممارسات غير المسلمين تعد علامة من علامات الضعف الروحي عند المسلمين، ووفقاً لعقيدة الولاء والبراء، يقول "عبد الوهاب" أنه يجب على المسلمين ألا يصادقوا غير المسلمين أو المسلمين المنشقين وألا يتحالفوا معهم وألا يحاكوهم. علاوة على ذلك، فإن تلك العداوة والعداء من جانب المسلمين تجاه غير المسلمين والمسلمين المنشقين يجب أن تكون واضحة وجلية لا لبس فيها، فعلى سبيل المثال، كان ممنوعًا منعًا باتــًا أن يبدأ المسلمون بإلقاء التحية على غير المسلمين، وحتى إذا قام المسلمون برد التحية فإنه يجب على المسلم ألا يتمنى لغير المسلم السلام. وفوق ذلك يجوز للمسلمين أن يقدموا العزاء لغير المسلمين، لكن يجب ألا يدعوا لهم بالرحمة وألا يسألوا الله أن يغفر لهم خطاياهم. وعند "عبد الوهاب" يُسمح فقط للمسلمين بأن يقولوا " نسأل الله أن يهديكم إلى الصراط المستقيم " أو"نسأل الله أن يعوضكم عن

خسارتكم"، وإذا ما خالف مسلم أو مسلمة تلك القواعد فإنه يعامل أو تعامل على أنه أو أنها مرتد أو مرتدة وستحدث نفس العواقب الوخيمة إذا ما أشار مسلم إلى غير المسلم بكلمة أخ أو أخت . علاوة على ذلك، فلقد حرم الوهابيون استخدام ألقاب التوقير التي تُجل الإنسان مثل "معلم" أو " دكتور" أو "سيد" أو "سير"، فعبد الوهاب يقول بأن مثل تلك الألقاب تعد شكلاً من أشكال الإشراك بالله، لذا فاستخدامها يكفي لأن يجعل المسلم كافرًا، والأكثر إثارة من ذلك أن "عبد الوهاب" يقول بأن تلك الألقاب والأوصاف تشكل نوعًا من أنواع المحاكاة لغير المؤمنين الغربيين، ولذا فهي محل إدانة لأن أولئك الذين يحاكون غير المؤمنين هم أنفسهم غير مؤمنين، وبالمثل فالمشاركة في الاحتفالات أو العطلات أو المهرجانات أو أي حدث اجتماعي ابتدعه أصلاً غير المسلمين يعد أمرًا كافيًا لأن يجعل المسلم كافرًا . لقد كان "عبد الوهاب" يناصر نظام إيمان مكتفٍ بذاته ومنغلق على ذاته ولا يوجد من الأسباب ما يجعله يلتقي أو يتعامل مع غيره وهذا الأمر بالذات مهم للغاية؛ لأن توجه "عبد الوهاب" هذا لايختلف جوهريًا عن المسار الذي اتخذته الجماعات الإسلامية التشددية بعد ذلك فيما يتعلق بعدم وجود علاقة بين القيم الأخلاقية الكونية وبين رسالة الإسلام. إن ذلك الانعزال والفصل الأخلاقي الذي يظهر بوضوح في كتابات "محمد عبد الوهاب" استخرجه وبقوة مفكرو الجماعات المتشددة اللاحقة. فمثلاً "سيد قطب" أكثر المفكرين المتشددين تأثيرًا قال في منتصف القرن العشرين أن العالم بما فيه العالم المسلم يعيش في الجاهلية (الظلام والجهل اللذان كانا موجودين قبل العصر الإسلامي)، ومثل "عبد الوهاب" كان "قطب" يناصر نظام انعزال فكري مغلق وكان يقول بأنه يجب على المسلمين ألا يتعاملوا مع غير المسلمين إلا من وضع أعلى . ومما يثير السخرية حقاً أنه في صميم حماسة "عبد الوهاب" من أجل توفر نقاء إسلامي توجد نزعة عرقية موالية للعرب، وهذا يناقض تمامًا رسالة الإسلام العالمية،

وكما هو الحال في الحركات التشددية اللاحقة، كان يوجد سبب سياسي وقومي قوي لفكر "عبد الوهاب"، سبب ينمو ويختفي تحت قناع اللغة الدينية. إن ألد أعداء "عبد الوهاب" لم يكونوا المسيحيين أو اليهود فقط بل كانوا العثمانيين الأتراك، فقد اتهم "عبد الوهاب" العثمانيين الأتراك بأنهم أفسدوا الإسلام ووصفهم بأنهم على المستوى الأخلاقي يقفون على قدم المساواة مع المغول الذين غزوا الأراضي الإسلامية سابقـًا ثم تحولوا بعد ذلك إلى الإسلام، لكن الأتراك في نظر "عبد الوهاب" مثل المغول تحولوا إلى الإسلام اسمًا فقط ، وفي الواقع وطبقًا لرؤية "عبد الوهاب"، فإن العثمانيين الأتراك كانوا العدو الأول للإسلام؛ لأنهم كانوا يفسدون الدين من الداخل في الوقت الذي يتظاهرون فيه بأنهم مسلمون حقيقيون ومخلصون، ولقد وصف "عبد الوهاب" الخلافة العثمانية بأنها الدولة الكفرية وادعى بأن دعم العثمانيين أو التحالف معهم يعد خطيئة بينة تمامًا مثل التحالف مع المسيحيين أو اليهود .

ولقد كان "عبد الوهاب" مخطئـًا فيما يتعلق بالعثمانيين الأتراك، فهم لم يكونوا مثل المغول الذين اغتصبوا العالم الإسلامي في القرن الثاني عشر والذين ذبحوا مئات الألوف من الناس وقاموا بتدمير ما لا حصر له من مخطوطات المسلمين. وقد أسس العثمانيون واحدة من أقوى الخلافات التي ظلت تدافع لوقت طويل عن الدين الإسلامي، وحتى قبل الخلافة العثمانية كان الأتراك قد أصبحوا عرقـًا مهمًا في التركيب العرقي المتعدد والمكون للإمبراطورية الإسلامية، وحقيقي أنه في الفترة الأخيرة للعثمانيين، تبنى العثمانيون نظام ضرائب فاسدًا وغير فعال تمامًا يرتكز على امتيازات خاصة ومحسوبية، وكانوا في بعض الأوقات قمعيين واستغلاليين، لكن "عبد الوهاب" وأتباعه لم يعترضوا في كتاباتهم على تلك السياسات، ولهذا يبدو أن عداء الوهابيين للعثمانيين لم يكن الدافع وراءه موقف تدعمه المبادئ ضد الظلم العثماني؛ بل كان "عبد الوهاب" يتصرف على أساس اعتقاد عرقي قديم يقول

بأن العرب وحدهم هم الذين لهم الحق في تمثيل الإسلام الواحد الصحيح والإسلام الجدير بالثقة . لكن العامل الآخر الذي يفسر عداء "عبد الوهاب" للعثمانين هو استجابته للجهود البريطانية في القرن الثامن عشر الهادفة لتدمير الخلافة العثمانية عن طريق إشعال نيران الأعراق المحلية بما في ذلك القومية العربية، وإن الأمر المثير للاهتمام هو أن "عبد الوهاب" خلافـاً للقوميين العرب الآخريين غير العلمانيين لم يدافع عن تكوين خلافة عربية بدلاً من الخلافة العثمانية، لكن "عبد الوهاب" لم يكن مهتمًا بالنظرية السياسية أو الممارسات السياسية بقدر ما كان مهتمًا بثقافة عربية خالصة والتي كانت تمثل في عقل "عبد الوهاب" نفس الإسلام الحقيقي، ومع ذلك لم يدرك عبد الوهاب أنه يخلط بين الثقافة العربية – تحديدًا الثقافة البدوية للجزيرة العربية – وبين مبادئ الإسلام العالمية ولم يعترف بذلك، وأعلن أن مفردات الثقافة البدوية هي نفسها الإسلام الوحيد الحقيقي فقط، ومن ثم فتلك المفردات عالمية، وبالتالي تصبح ملزمة للمسلمين جميعًا . إن هذا كله يشير إلى حقيقة أغفلها العديد من الملاحظين المعاصرين وهي: أن الوهابية في القرن الثامن عشر قد أُبتليت بتناقضات فكرية لم تسو أو تُحل حتى وقتنا الحالي. لذا وعلى سبيل المثال، فبينما تدين الوهابية جميع الممارسات الثقافية وتتقيد كلية بتعاليم الإسلام، إلا أنها في الواقع وبصورة كاملة، تعتبر نتاج ثقافتها الخاصة أي ثقافة "نجد"، وهي ثقافة بدوية لمنطقة نجد في الجزيرة العربية (التي هي الآن جزء من المملكة العربية السعودية). وفي الوقت الذي كانت تصر فيه الوهابية على أنه يوجد إسلام واحد حقيقي، فإنها في الواقع ، تعمل على نشر ثقافتها الخاصة عالميًا وتعلن أنها هي– فقط – التي تمثل الإسلام الصحيح. وفي الوقت الذي تدين فيه الوهابية نفوذ غيرالمسلمين وترفض أي شكل من أشكال التعاون مع الغرب، إذ بنا نجد أن الأمر غير ذلك. ففي حقيقة الأمر كان المستعمرون الإنجليز يقومون بمساعدة وتحريض الوهابية على التمرد

ضد العثمانيين، مما يعني بالتالي أن الوهابية قامت بالتحالف مع رجال إنجليز غير مسلمين ضد أعدائهم العثمانيين المسلمين. علاوة على ذلك، ففي الوقت الذي كانت الوهابية تدين فيه كل أشكال الوطنية على أنها أساسًا بدعة غربية، فإن الوهابية حقيقةً كانت بحسب ماضيها حركة وطنية عربية، وقد رفضت الهيمنة التركية على العرب وجاء هذا الرفض تحت عباءة الدفاع عن الإسلام الصحيح الوحيد. وبالطبع مثلما قام الوهابيون في القرن الثامن عشر بتبني ثقافة بدو "نجد" وتعميمها على أنها الإسلام، فإن وهابيّ الوقت الحاضر قاموا بتبني ثقافة المملكة العربية السعودية وتعميمها على أنها الإسلام الحقيقي الواحد . إن التبعية الثقافية للحركة الوهابية تناقض ادعاءاتها بالتمسك بالمعنى الحرفي للنصوص، وحقيقة قيام الحركة الوهابية بإطلاق تسمية على سياق ثقافي محدد ومن منظور ضيق، فهو عمل لا يتفق مع ادعائها بأن معتقداتها وقوانينها مبنية على قراءة حرفية للنصوص الإسلامية. ففي الواقع أن "عبد الوهاب" وأتباعه قاموا بتفسير النصوص بطرق انتقائية تخدم آراءهم السابقة في مختلف القضايا. ومما ساهم في تلك القراءة الانتقائية للأدلة النصية، حقيقة أن الوهابيين قد تحللوا وحرروا أنفسهم من جزء لا يستهان به من التراث الفقهي. ومما سهل من أمر قراءة المصادر الإسلامية بطريقة تدعم مفاهيم وميول الوهابيين الثقافية، هو عدم تعارضها مع الكثير من التفاسير السابقة، أما المواقف السابقة التي كانت لا تدعم مواقف الوهابيين، فقد كان يتم تجاهلها بمنتهي البساطة، وكان يتم التعامل مع فقهاء الأجيال السابقة الذين لم يشاركوا عبد الوهاب مفاهيمه على أنهم مشركون . وذكر "عبد الوهاب" – علىسبيل المثال – أن المسلمين الذين يقومون بأعمال شرك يجب أن يُقاتَلوا ويُقتلوا، وقد استشهد بحادثة مماثلة سابقة حدثت في عهد أول الخلفاء الراشدين أبي بكر الصديق (١٣هـ/٦٣٤م) عندما قال: "إن البعض برغم تظاهرهم بالإسلام، إلا أنهم منافقون، لذا فيجب أن يقتلوا؛ لأن مَخْبَرَهُم عكس

ما يدّعون". وقد ادعى "عبد الوهاب" أن أبا بكر الصديق حارب وقاتل العديد ممن أسماهم بالمنافقين، وذلك على الرغم من أنهم كانوا يقومون بأداء أركان الإسلام الخمسة، وقد شدد على أن العثمانيين الأتراك وحلفاءهم وجميع المشركين والمنافقين الآخرين ليسوا في الواقع إلا كفارًا يستحقون الموت بأشنع الوسائل، وذلك في محاولة منه لتبرير ما يقوم به أتباعه من أعمال قتل وتعذيب لمن يعارض فكرهم . ولقد كان "عبد الوهاب" مولعًا بالاستشهاد بحادثة سابقة حيث يُقال: إن أبا بكر أول الخلفاء الراشدين قد أحرق من أسماهم بالمنافقين، وقد استخدم "عبد الوهاب" هذه الحادثة المُلفقة؛ لإيجاد مبرر لما يرتكبه أنصاره من تعذيب المخالفين لهم. ولا يوجد شك في أن تلك الحادثة مُلفقة، وقد أجمع علماء الإسلام على أنها ليست سوى تلفيق واختراع، ولعل اعتماد "عبد الوهاب" على مثل تلك الوقائع له مدلول واضح، إذ يبرهن على رغبته في اختيار أحداث من التاريخ الإسلامي لتدعيم سلوكه الوحشي وغير الإنساني ليس إلا، وهذه الأحداث قد بذل علماء وفقهاء العصر الماضي الكثير من الجهد في إثبات أمرها ومدى صحتها.

فعلى سبيل المثال، لقد وجد علماء التاريخ الإسلامي أن الحادثة المُلفقة التي قيل فيها أن أبا بكر الصديق اتهم بعض الناس ممن كانوا يقومون بأداء أركان الإسلام الخمسة بالنفاق وحاربهم، هي في الواقع حادثة عارية تمامًا من الصحة، بالإضافة إلى أن القوانين الإسلامية تدين تمامًا أي استخدام للنار ضد المسلمين أو غير المسلمين. ولقد وجد الكثير من العلماء أن الادعاء بأن أبا بكر قد استخدم الحرق ضد أعدائه، هو في الوقع من اختراع أعداء أبي بكر. وقد نُقل هذا الخبر عن أفراد مجرّحين لا يمكن الوثوق بهم نهائيًا. ولم ينفِ علماء الإسلام فقط صحة ومصداقية تلك الواقعة الخاصة بأبي بكر الصديق، ولكنهم أيضًا أثبتوا أن تلك الوحشية هي على النقيض من أخلاقيات القرآن أو الرسول "صلى الله عليه وسلم".

ولقد تجاهل "عبد الوهاب" هذا الكم الهائل من النصوص المخالفة لفكـــره كي يبرر عمليات القتل والتعذيب لمن اعتبرهم منشقين عن الإسلام، وقد سلّم تلاميذه بهذه الأفعال الوحشية وأقروا بشرعيتها، وأحل "عبد الوهاب" وأجـــاز لنفسه استخدام بعض الوقائع في التاريخ الإسلامي بعد أن عبث بها وأضاف إليها طابعًا شيطانيًا صيّرها وحشية، غير عابئ بمعارضة العلماء الـــسابقين، واستطاع "عبد الوهاب" أن يعيد ضخ هذه الوقائع الوحشية في دمـــاء وقلـــب الفكر الإسلامي، وبناءً عليه قام بإعادة اختراع إسلام جديد علـــى أســـس لا أخلاقية . وترجع الأهمية الكبرى لتلك النقطة إلى أن المسلمين المتطرفين من أمثال "أسامة بن لادن" و"عمر عبد الرحمن" قد اتبعوا نفس خطـــوات "عبـــد الوهاب" في الاعتماد على تلك الوقائع الوحشية كوسيلة لتبرير قتل الأبرياء. ومن المزعج أن تلك الوقائع التي دافع عنها "عبد الوهاب"، قامت الجماعات التي تذبح الرهائن في العراق بنشرها في مواقع على شبكة الإنترنت. ولـــم يكن من المدهش أن هؤلاء المتطرفين قد تأثروا كثيرًا بكتابات "عبد الوهاب" ومجهوداته الكبيرة للدفاع عن مصداقية الأقاويل التاريخية التي تبرر عمليات القتل والتعذيب . وبالنظر إلى موقف "عبد الوهاب" تجـــاه تـــاريخ الإســـلام وقوانينه وتقاليده بوجه عام، فإنه ليس بالشيء الغريب أن تصاحب حركتـــه هذه انتقادات كثيرة من جانب عدد كبير من العلماء المعاصريين، ولعل مـــن أبرزهم "سليمان" شقيق "عبد الوهاب" ووالده – أيضًا – كما يقولون. فقد قام "سليمان" بكتابة أطروحة كاملة مخصصة لانتقاد سلوكيات وتعليم وتعاليم أخيه المتشدد. ولقد ذكر ابن حميدي (ت ١٨٧٨ – ١٢٩٥ هـ) مفتـــي المـــذهب الحنبلي في مكة، وهو رجل كان ذا مكانة ونفوذ في ذلك الوقـــت. أن والـــد "محمد بن عبد الوهاب" كان حزينًا ومتضررًا جدًا من ابنه؛ لأنه لم يكن طالبًا جيّدًا في مدرسة الفقه الإسلامي، وكان يسيء معاملة أساتذته ويتحداهم. وفي الحقيقة فإن "عبد الوهاب" لم يكمل دراسة الشريعة الإسلامية. ولـــيس مـــن

المعلوم ما إذا كان قد ترك الدراسة بإرادته أو قد تم طرده منها، وقال "ابـن حميدي" إن "عبد الوهاب" لم يجرؤ على نشر رسالته إلا بعد وفاة والده؛ لأنه كان خائفًا من غضب والده عليه . وبصفة عامة، فالانتقـادات التـي كانـت موجهة ضد "عبد الوهاب" وأتباعه من قبل معاصريهم، لم تكن بالشيء المثير للدهشة على الإطلاق، فقد تم انتقاد الوهابيين؛ لأنهم لم يعبأوا و لم يلقوا بالاً لتاريخ الإسلام ومعالمه التاريخية وآثاره، أولعادات الإسلام وتقاليده أو لقدسية حياة المسلم، ولقد كان من بين من نقدوه، أخوه مع آخرين، فقـد قـالوا: إن تعليم "عبد الوهاب" لم يكن بالتعليم السليم، وأنه كان لا يتسامح مع أية أفكار أو أشخاص تخالفه الرأي، ولقد اشتكى "سليمان" من أن أراء أخيه كـان لا يدعمها إلا العناصر المتعصبة والمتشددة والمتطرفة. وفضلاً عن هذا فإنه لا يوجد من الوقائع في التاريخ الإسلامي ما يتفق معها "عبد الوهاب"، وعلـى سبيل المثال، فقد أكد سليمان أن غالبية علماء الإسلام امتنعوا عن توجيه أي اتهام للعقلانيين والصوفيين، وبدلاً من ذلك ناقشوهم بهدوء . إن "عبد الوهاب" طبقًا لكتابات أخيه لم يشغل باله بقراءة أو فهم أعمال الفقهاء السابقين، ومـع ذلك ففي الوقت الذي كان يرفض فيه "عبد الوهاب" أعمال أغلب الفقهاء، كان يتعامل مع أقوال البعض الآخر من أمثال الفقيه الحنبلي ابن تيمية (١٣٢٨ م ، ٧٢٨ هـ) كما لو كانت منزّلة من السماء وليست محل نقاش أو تـساؤل، وبالرغم من ذلك كان "عبد الوهاب" ينتقي بعناية من بين أعمال ابن تيمية ما يظهر ويخدم أغراضه منها ويتجاهل الباقي. وقد كرر ابن حميدي وهو مـن أشد المعجبين بابن تيمية نفس الاتهام لـ "عبد الوهـاب" . وعلـق سـليمان وعلماء آخرون على السخرية من "عبد الوهاب" النابعة من حقيقة أنـه فـي الوقت الذي يقوم فيه عبد الوهاب وأتباعه بمنع التقليد (تقليد واتباع الفقهـاء السابقين)، إذا به ينتهي به الحال إلى تأكيد، بل وأيـضًا تبنـي آراء هـؤلاء الفقهاء، ولكن بشكل مختلف، يتمثل في منعهم التقليد طالما كان تقليدًا للفقهاء

الذين لم ينالوا إعجاب الوهابيين، وطلب هؤلاء أن يتبع المسلمون فكر الوهابية وهم مُغمضو العيون ودون تفكير، وقد أدان "سليمان" ازدواج المعايير، وقال: إن الوهابيين يتصرفون كما لو كان المقياس الوحيد لمدى التزام المسلم بالإسلام مقصورًا على اتباع وطاعة الوهابيين، ولو حدث أن اختلف شخص مسلم معهم، فهو بالضرورة ملحد. ولقد كان الوهابيون يسمون أنفسهم " المسلمون" أو " الموحدون" مما يعني أن هؤلاء الذين يرفضون عقيدتهم ليسوا بمسلمين ولا بموحدين . وبإيجاز، فإن "سليمان" أصر على أن المذهب الوهابي يرتكز على مفهوم استبدادي عميق، حيث تم إهمال التراث الفكري الإسلامي بالكامل عمدًا، وأصبح أمام المسلمين أحد خيارين: إما أن يقبلوا تفسير الوهابيين للإسلام طبقًا لمزاجهم الخاص أو أن يُعتبروا كفارًا، ومن ثم يُقتلوا. وفي الحقيقة، فإنه في أثناء غزو الوهابيين للجزيرة العربية في القرن الثامن عشر كانوا في كل مرة يقتحمون فيها مدينة أو قرية، يطلبون من ساكنيها أن يرددوا الشهادة، غير أنهم في هذه المرة أوجبوا على السكان أن يرددوها وهم يقسمون أن يلتزموا بمعتقدات وممارسات الوهابية. وأولئك الذين لا يعلنون التزامهم بالإسلام كما يعنيه ويفسره الوهابيون، يُسلّم بأنهم كفار ومن ثمّ يقتلون. والمصادر التاريخية تصف مذابح شنيعة ارتكبتها القوات الوهابية في القرن الثامن عشر في أنحاء الجزيرة العربية . لقد ذكر "سليمان" في بحثه أن الوهابيين تظاهروا بأنهم– وبعد مرور قرون عديدة من التاريخ الإسلامي– هم الوحيدون الذين اكتشفوا حقيقة الإسلام وهم في نظر أنفسهم معصومون. ولقد أوضح "سليمان" أن هذا الادعاء منهم – من منطلق إيماني – يعتبر خطيرًا للغاية، حيث إنه من المستحيل أن يكون المسلمون قد ضُللوا وأخطأوا في فهم دينهم وإقامة شعائره لقرون عديدة، وبعد ذلك وعقب ولادة "محمد بن عبد الوهاب"، فقد يكتشفون على يديه حقيقة الإسلام. وأوضح "سليمان" أن هذا الادعاء ليس سوى كارثة بالنسبة لدين المسلم، فقد

كان "سليمان" حريصًا على إيضاح أن نعت المسلمين بالكفار هو ذنب عظيم، حتى الفقيه ابن تيمية، والذي كان عبد الوهاب مولعًا به حرّم التكفير، وفي سعيه لإثبات وجهة نظره، اختتم "سليمان" بحثه باثنين وخمسين حديثًا عن الرسول "صلى الله عليه وسلم" وعن الصحابة تدور كلها حول خطيئة اتهام المسلم بأنه غير مؤمن أو أنه مُلحِد . إن تركيزي هنا على رسالة "سليمان" التي كان ينتقد فيها أخاه والحركة الوهابية، إنما يرجع إلى الأهمية التاريخية لهذه الرسالة، ولم يكن سلوك السعودية في منع وإدانة رسالة سليمان بالشيء المثير للدهشة. فلقد بُذل جهد كبير في تلك الدولة وأنحاء أخرى لدفن هذه الوثيقة. وفي الوقت الحالي، فإن هذا العمل الهام غير معروف في العالم الإسلامي، كما أن العثور عليه ليس بالعمل الهين. وقد توجّب عليّ أن أقطع المسافات الكبيرة، لأحدد مكانه حتى في مصر، ولكن الرسالة تقدم صورة قوية وواضحة لميلاد تلك الحركة المتشددة التي لعبت وستلعب فيما بعد دورًا مهمًا في القرن العشرين وما يليه. إن الحركة الوهابية كان لها تأثير قوي في تحديد عقيدة ومذهب جميع الحركات المتشددة التالية، وكذلك فإن وثيقة سليمان أثبتت أن العديد من أفكار وممارسات الوهابية تعتبر إفسادًا للاتجاه السائد في الإسلام وانحرافًا عن الطريق الصحيح. فالإسلام المتشدد ليس إلا انحرافًا عن الاتجاه السائد للإسلام، والعديد من الفقهاء بما فيهم سليمان اعتقدوا أنها ظاهرة قصيرة الأجل . وقد أعرب فقهاء آخرون عن قلقهم البالغ إزاء الخطر المحتمل الذي تشكله الوهابية على تكامل أخلاقيات الدين الإسلامي، ولقد قام سليمان بن سحيم (١٧٦١ – ١١٧٥ هـ) وهو فقيه حنبلي بارز من نجد، والذي كان في الماضي يساند "عبد الوهاب" بكتابة رسالة كان لها تأثير قوي، في ذلك الوقت ناشد فيها فقهاء الإسلام بأخذ التهديد الوهابي على محمل الجد، وأن يقوموا باتخاذ إجراءات فعالة لمواجهته. وقد وصفت كتابات العديد من فقهاء التيار الإسلامي السائد في

تلك الفترة من أمثال الفقيه الحنفي ابن عابدين (١٢٥٣هـ-١٨٣٧م) والفقيه المالكي الصاوي (١٢٤١هـ -١٨٢٥) وصفت الوهابيين بأنهم جماعة متعصبة. وبسبب الممارسات الدموية للوهابيين؛ فقد أُطلق عليهم لفظ خوارج العصر الحديث. والخوارج هم طائفة عنيفة ومتعصبة ظهرت في بدايات الإسلام في الجزيرة العربية، ولكن سرعان ما ضعُفت تلك الطائفة وتم تهميشها وكما هو الحال بالنسبة للوهابيين، اعتبر الخوارج أنفسهم المسلمين الوحيدين ومن عداهم كفارًا، وأيضًا فإنه مثلما فعل الوهابيون فعل الخوارج، إذ قاموا بارتكاب مذابح مروعة راح ضحيتها أعداد كبيرة من المسلمين في الجزيرة العربية، حتى أنهم قاموا باغتيال سيدنا "علي" الذي كان ابن عم الرسول (صلى الله عليه وسلم) ورابع الخلفاء الراشدين. وفي نهاية الأمر وبسبب عداء المسلمين الشديد لهم ونقد الفقهاء القدامى والحملات العسكرية الموجهة ضدهم والتي كانت تدعمها دول إسلامية عديدة، تم إجبار الخوارج على الانصلاح أو فليواجهوا الهلاك. وفي الوقت الحاضر، فإن الفرع الوحيد الباقي من الخوارج ويُدعى "العبادية"، يقطن في سلطنة عمان وفي بعض أجزاء من الجزائر. إن شريعة ومذهب "العبادية" لا يتشابه في شيء مع أسلافهم المتعصبين. وفي الحقيقة لقد اضطرت العبادية لتحديث أفكارها والاقتراب أكثر من الاتجاه الإسلامي السائد، ولكن مع الأسف الشديد، فإن كل توقعات العديد من الفقهاء بأن الوهابية سينتهي بها الحال حتمًا إلى ذات المصير الذي لقيه الخوارج، إلا أنها لم تتحقق ولم تسفر عن شيء . لقد كانت بساطة واستبدادية وقطعية الفكر الديني لعبد الوهاب، هي العوامل الجاذبة لقبائل الصحراء خاصة في منطقة "نجد"، وفي ذلك الوقت كانت "نجد" منطقة قبلية أكثر وأقل تطورًا وتحررًا من بقية المملكة السعودية. وحيث إن أفكار "عبد الوهاب" كانت شديدة التطرف، فلذا لم تستطع أن يكون لها تأثير واسع المدى على العالم العربي. فضلاً عن العالم الإسلامي، وقد أقر العلماء

المعاصرون أن الفكر الوهابي هامشي نسبيًا، وكان ذلك في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر وأظهر هؤلاء العلماء أن فكر الإحيائيين من أمثال محمد الشوكاني (١٢٥٠هـ-١٨٣٤م) وعلي جلال الصنعاني (١٢٢٥هـ/١٨١٠م) كان على النقيض تمامًا من الفكر الوهابي وكان ذا تأثير أكبر في ذلك الوقت . و لم يكن مقدرًا لأفكار "عبد الوهاب" الانتشار في الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر، لولا أن قامت عائلة آل سعود بالتحالف مع الحركة الوهابية وتمردتا معًا ضد الحكم العثماني في الجزيرة العربية. وقد وصل التمرد إلى دمشق شمالاً وإلى عمان جنوبًا متسلحاً بالحماس ومشاعر وطنية عربية قوية، ولكن عقب عدة حملات فاشلة، قامت القوات المصرية تحت قيادة القائد "محمد علي" بسحق هذا التمرد وبسحق الوهابية عام ١٨١٨. ومثل جميع الحركات المتطرفة في التاريخ الإسلامي بدا الأمر وكأن الحركة الوهابية في طريقها للاندثار غير أن هذا لم يقع . إن التحالف بين الوهابية وآل سعود منذ عام ١٧٤٥ وحتى عام ١٨١٨ معروف بأنه أول مملكة سعودية. ولقد انتهت المملكة بعد تدمير مدينة (الدرعية) معقل المملكة السعودية الأولى على يد القوات المصرية والتركية، التي قامت بذبح ساكني المدينة. وظلت تلك المذبحة في ذاكرة الوهابيين تلهب حماسهم وتذكرهم بمعاناتهم وتضحياتهم . ثمّ انتعشت الحركة الوهابية من جديد في أوائل القرن العشرين تحت قيادة "عبد العزيز آل سعود" (٧٣-١٣١٤/٥٣-١٩٠٢) مؤسس المملكة السعودية الحديثة، والذي تبنى فكر الوهابيين المتزمت وتحالف مع قبائل نجد، وبذلك تأسس ما عُرف فيما بعد بالمملكة العربية السعودية، وكان التمرد الأول للوهابيين في القرن الثامن عشر يهدف إلى إسقاط الحكم العثماني وفرض الصورة المتزمتة للإسلام الخاصة بـ"محمد عبد الوهاب" في الجزيرة العربية، على أكبر عدد ممكن ممن ينطقون باللسان العربي، وقد سعى الوهابيون أيضًا لإحكام سيطرتهم على كل

من مكة والمدينة؛ لأنهم بذلك يكونون قد حققوا انتصارًا عظيمًا ذا رمز هام؛ إذ أنهم بهذا يكونون قد سيطروا على المركز الروحي للـدين الإسـلامي .

وعلى الرغم من سحق تمرد القرن الثامن عشر، إلا أن تمردات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين كان لها موقف مختلف، فبدءًا من القرن السابع عشر وحتى أوائل القرن العشرين، كانت الجزيرة العربية مجتمعًا قبليًا يضم عائلات كبيرة تتنافس فيما بينها لتفرض إحداها سـيطرتها علـى الأخـرى وبالأخص في منطقة الحجاز التي كانت على النقيض من منطقة نجد فإنهـا كانت مختلفة تمامًا من حيث العادات والتقاليد والتوجهات الفكرية. إنها مشكلة معتقدات وممارسات موسوية معقدة للغاية، فعلى المستوى الفقهي كـان فـي مكة والمدينة المنورة اللتين تقعان في الحجاز، كان يوجد مـذاهب وأحكـام الأئمة الأربعة: الشافعي والحنفي والمالكي والحنبلي، وكـان يوجـد أيـضًا صوفيون، هذا بخلاف الشيعة، وقد كان موسم الحج الـسنوي يبـدو وكأنـه مهرجان للشعائر والطقوس المتباينة التي تعكس التصدع الرهيب داخل العالم الإسلامي. وكان الحكم العثماني يستوعب ويجيز كل ذلك. وكان ذلك الانقسام في المعتقدات والمذاهب والشعائر والطقوس بمثابة لعنة. وكان أحد أهـداف الوهابيين هو جمع كل الحجاج على شعائر واحدة هي بالنـسبة لهـم الأداء الشرعي الوحيد للدين . لقد تشكل المثلث الذي غيّر الجزيرة العربيـة، بـل وربما العالم الإسلامي، هذا المثلث كان يتكون من عائلة آل سعود والوهابيين والبريطانيين، فقد كانت عائلة سعود تأمل في القضاء علـى كـل منافـسيها والانفراد بحكم الجزيرة العربية، بينما كان الوهابيون يريدون فرض رؤيتهم المتشددة للدين في جميع أنحاء الجزيرة العربية، أما بريطانيا فقد كانت تريد حكومة مركزية قوية في السعودية تخدم المصالح البريطانية، وذلك من خلال إعطاء بريطانيا إمتيازًا حصريًا لاسـتخراج البتـرول لـصالح الـشركات البريطانية، كما أنها أرادت إضعاف الإمبراطورية العثمانية أكثر، وذلك من

خلال انتزاع مكة والمدينة بعيدًا عن سيطرة الإمبراطورية. ولم تضع بريطانيا كل البيض في سلة واحدة وبطريقة استغلال الفرص وفي سعيها لتحقيق أهدافها، قامت بريطانيا بتدعيم العديد من العائلات القوية وفي وقت واحد مثل الراشيديين والهاشيميين وبني خالد وآل سعود، وكانوا جميعًا يتصارعون للسيطرة على الجزيرة العربية . ترجع علاقة الوهابيين بآل سعود إلى عام ١٩٤٤ عندما قام محمد بن سعود (ت ١٧٦٢) حاكم مدينة "الدرعية" وهي مدينة صغيرة في "نجد"، بإعطاء "عبد الوهاب" ملجأ وقاعدة من الأراضي، في الوقت الذي تكاتف فيه فقهاء "نجد" ضد "عبد الوهاب" بسبب أعماله المتعصبة وغير المسبوقة، ولقد حظى آل سعود بتحالفهم مع الوهابين بقوة مقاتلة حماسية، أعطتهم مزية على العائلات الأخرى التي تنافسهم للحصول على تأييد وقوة البريطانيين، ولقد قام آل سعود بتوفير الدعم المالي للوهابيين والأسلحة التي كانوا يحتاجون إليها بكثرة، وذلك من خلال علاقتهم بالقوات البريطانية. وقد توقع الوهابيون أن عائلة آل سعود ستطلق لهم العنان فيما يخص النواحي والعلاقات الدينية، وذلك عقب غزو الأراضي وتنصيب آل سعود حكامًا سياسيين شرعيين للبلاد، ولقد جذبت عائلة آل سعود اهتمام البريطانيين بالكامل في القرن العشرين من خلال هذا الاتحاد المنتصر، ممّا حدا بالبريطانيين إلى تأييد عائلة آل سعود باعتبارها العائلة الحاكمة الشرعية لما سيصير لاحقًا في المملكة السعودية . وعلى الرغم من أن التحالف بين آل سعود والبريطانيين، وهو تحالف بين مسلمين وغير مسلمين، لم يكن ليتماشى مع تعاليم الوهابيين، إلا أن من المهم أن ندرك أن التحالف بين آل سعود والوهابيين كان ذا طبيعة مختلفة. ذلك أن تحالفهم لم يكن الدافع وراءه المصلحة أو الضرورة العملية، بل كان بدافع من فكر أساسي مشترك بينهما وقناعة تامة. وبناءً على تلك الرؤية، تحول آل سعود إلى الوهابية، وقد شكلت القوتان اتحادًا (غير) ديني استمر إلى يومنا

هذا. وصار الارتباط بين آل سعود والوهابيين ارتباطًا وثيقًا سواء أكان ذلك نتاج المصلحة أو الاقتناع، وفي الحقيقة لقد أنهت الوهابية الانقسام العميق الذي كان موجودًا يومًا من الأيام في منطقة الحجاز وخاصة في مكة والمدينة وجدة. وأرغمت الوهابية الجزيرة العربية كلها على الرضوخ لحكم آل سعود . لقد كون آل سعود والوهابيون ميراثًا من التعصب والكراهية وعدم التسامح، ونتجت عنه فظائع ومذابح وحشية، وذلك على مر المراحل المختلفة التي أدت إلى تكوين المملكة السعودية عام ١٩٣٢، حيث قام في الفترة مابين ١٧٤٥-١٨١٨ ما سُميَّ بالدولة السعودية الأولى، ولكنها كانت فاشلة. والدولة الثانية الفاشلة أيضًا قامت تقريبًا في الفترة ما بين ١٨٢٤-١٨٩١. والدولة الثالثة والتي كانت ناجحة نشأت عام ١٩٠٢ واستمرت حتى عام ١٩٣٢. ولقد صار هذا الميراث جزءًا من الماضي اللاإنساني وسيلازم المملكة السعودية للأبد، بل وسيشكل أيضًا الحس الأخلاقي لنوعية الإسلام الذي دعا إليه الوهابيون، وإن نشره في العالم الإسلامي سوف يطارد المملكة العربية السعودية إلى المدى البعيد، ويُظهر أيضًا نوع سياسة الوهابيين التي حاولوا أن يفرضوها على كل العالم الإسلامي. إن قائمة الخطايا الوحشية والمتعصبة للوهابيين لا يمكن حصرها حقًا، فعلى سبيل المثال، إن التمردات التي قام بها الوهابيون في القرن التاسع عشر والقرن العشرين كانت تمردات دموية، حيث كان الوهابيون يقومون بذبح المسلمين خاصة أولئك الذين ينتمون إلى الصوفية أو طائفة الشيعة دون أن يشعروا أن هناك ثمة جرمًا، ففي عام ١٨٠٢ قام الوهابيون بذبح جميع السكان الشيعة لبلدة "كربلاء" وفي عام ١٨٠٣ ، ١٨٠٤ و ١٨٠٦ قاموا بإعدام عدد كبير من السنيين في مكة والمدينة من الذين اعتبروهم لسبب أو لأخر ملحدين، إن عدد أولئك الذين قام التحالف بين الوهابيين وآل سعود بذبحهم أو بإعدامهم، لم يتم حصره أبدًا، ولكن من السجلات التاريخية فإنه من الواضح أن عددهم يُقدّر بعشرات

الألوف إن لم يكن أكثر، فعلى سبيل المثال، خلال الغزو الثاني لشبه الجزيرة العربية، قام الوهابيون وبموجب أوامر من ابن سعود بتنفيذ الإعدام في أربعين ألف شخص إعدامًا علنيًا وتنفيذ نفس العملية في ثلاثمائة وخمسين ألف آخرين . وفي عام ١٩١٢ قام الملك "عبد العزيز" من عائلة آل سعود بتشكيل قوة مقاتلة من "نجد" عُرفت بالإخوان، تتكون من عناصر متحمسة دينيًا وملتزمة تمامًا بالفكر الوهابي، وكان الغرض الأساسي من تشكيل قوة الإخوان هو إحكام السيطرة على الجزيرة العربية وسحق جميع المنافسين وكل من يتنافس على السلطة وتأسيس دولة إسلامية مبنية على التعاليم الدينية لعبد الوهاب، وقد لعب الإخوان دورًا مؤثرًا في تأسيس ونشر حكم الملك، ولكن في النهاية صاروا يشعرون بالاستياء لما رأوه من تحرر الملك ورغبته في التعاون مع غير المسلمين، ألا وهم البريطانيون. وفي هذه الحالة، فقد أُرغم "عبد العزيز" على تعلم الدرس الذي سيكرر نفسه بطريقة مؤلمة بعد عدة عقود مع الحكومة السعودية والقاعدة، وهو أنه لا يمكن السيطرة على اندفاع التعصب ولا استغلاله من قبل أي حكومة. لقد أعطى "عبد العزيز" الإخوان حرية مطلقة في ذبح المسلمين داخل الجزيرة العربية خاصةً في الحجاز واليمن، ولم يكن الإخوان سعداء بتوجهات "عبد العزيز" في استخدام الاختراعات الحديثة مثل التلغراف والتلجرام والسيارات والطائرات في الأراضي التابعة للحكم السعودي، بل والأسوء من ذلك، أن الإخوان بدأوا في التوسع وارتكاب المذابح في العراق وفي بعض الأراضي التي هي الآن أجزاء من الأردن، فقد أصروا على حقهم في مواصلة نشر الوهابية بصرف النظر عن الحدود الإقليمية التي اخترعها البريطانيون. ولقد كانت هذه المذابح تسبب حرجًا كبيرًا للحكومة البريطانية؛ لأنه – في ذلك الوقت – كانت تلك الأراضي تحت الاحتلال البريطاني وكانت بريطانيا ملتزمة قانونًا أمام السكان بتوفير الحماية لهم، وعلاوة على ذلك، فقد كان ينتهي الحال

بالإخوان خلال هذه الغارات بالتصادم مع الجنود البريطانيين وقتلهم. وفي عام ١٩١٥ قام الملك "عبد العزيز" بتوقيع معاهدة "الصداقة والتعاون" مع البريطانيين، وكان يصله إعانة شهرية سخية جدًا من الحكومة البريطانية والتي كان لا يحتمل خسارتها . ولقد داوم الإخوان على عادة مهاجمة وعقاب الحجاج الذين يأتون من جميع أنحاء العالم للقيام بما يُعد طبقًا للوهابيين شعائر مخالفة الإسلام. وفي حالات عديدة قام الإخوان بجلد، بل وحتى إعدام الحجاج بسبب تأديتهم لشعائر تخالف مفهوم الوهابية للشريعة الإسلامية، على الرغم من أن بعض مدارس الفكر الأخرى كانت تعتبر هذه الشعائر صحيحة تمامًا. وفي الوقت الذي كان يعمل فيه "عبد العزيز" جاهدًا على تكوين تحالفات سياسية من شأنها أن تمده بالقوة ضد أعدائه في الجزيرة العربية، كان سلوك الإخوان يسبب له أزمة دبلوماسية ليس فقط مع بريطانيا، بل وأيضًا مع عدد من الدول الإسلامية الأخرى.

لقد حاول الملك "عبد العزيز" منع الإخوان من مهاجمة الأراضي التابعة للحكم البريطاني، وحاول أيضاً منع الإخوان من التعرض للحجاج، لكن الإخوان رأوا أن رغبة "عبد العزيز" في التعامل مع قوم ملحدين والسكوت على أعمالهم الشريرة، تعد إهانه لهم، ونتيجة لذلك تمرد الإخوان ضد الملك "عبد العزيز" عام ١٩٢٩، غير أنه استطاع أن يحطم و يُسرّح قوات الإخوان بمساعدة القوات البريطانية التي استخدمت سلاح الطيران لقتلهم، وقد كافأت بريطانيا تابعها المخلص الملك "عبد العزيز" بزيادة إعانتها له وأنعموا عليه بوسام الفروسية عام ١٩٣٥. وعلى الرغم من أن تنظيم الإخوان القبلي قد تفكك، إلا أن ذلك لا يعني أن عائلة آل سعود قد هجرت الوهابية، فهذا مستحيل عمليًا. فالوهابية وآل سعود كونتا علاقة يعتمد فيها الطرفان على بعضهما البعض ولا يمكن لأيّ منهما أن يتواجد بدون الآخر، لقد خدمت الوهابية أغلب الوقت الدولة أو أولئك المتواجدين في السلطة بقدر ما كان

هؤلاء يخدمون الوهابية . وقد قامت الوهابية في المنـــاطق الواقعـــة تحـــت سيطرتها بممارسات من شأنها توسيع سلطات الدولة التي أدخلت في المفهوم المحدود للإسلام، والذي يراه الوهابيون على أنه الإسلام الصحيح الوحيـــد. ولقد صارت العلاقة بين الوهابية وآل سعود على ما يرام. بل وأكثـــر مـــن مجرد علاقة نفع متبادل، كما أن الوهابيين وآل سعود قاموا باختراع نموذج لما يجب أن تتصرف الدولة الإسلامية بمقتضاه في العالم الحديث، وطبقًا لهذا النموذج الذي أثرّ كثيرًا في المسلمين المتشددين، فإن الـــصلاحيات الجديـــدة التي زيدت وأضيفت إلى الدولة، كانت تَحُدُّ وبشدة من حرية الفرد وتفـــرض الالتزام بمواضيعها غير المرغوب فيها أوبسلوك معين لها. وكل هذا تحـــت مسمى تطبيق "شريعة الله". و بدلاً من أن تستوعب وتتقبل الدولـــة وبـــصدر رحب مجموعة الممارسات الدينية والثقافية المختلفة كما كان عليه الحال في مكة والمدينة في العصر العثماني على سبيل المثال، قامت المملكة بمحو كل مظاهر التعددية الدينية وفرضت رأيًا واحدًا مستقيمًا متشددًا. وفي النمـــوذج السعودي، قامت الدولة بتكوين ومنح السلطة فعليًا لما يسمى بالشرطة الدينية. ولقد لعبت تلك القوة دورًا مزدوجًا في فرض رأي الدولة المتصلب المتشدد، وفي القضاء على مظاهر الاختلاف الديني أو المعارضة. وقد كان الوهابيون يرتكبون تلك الأفعال تحت مسمى فرض شريعة الله، ولكنهم فـــي الحقيقـــة، كانوا يفرضون رؤية محدودة وخاصة جداً للشريعة الإسلامية والتي كانـــت على النقيض من أفكار وممارسات المسلمين السائدة وقتئـــذ، فعلـــى ســـبيل المثال، كان الوهابيون يجلدون سكان الأراضي الواقعة تحت سيطرتهم لمجرد سماع الموسيقى أو حلاقة اللحية أو ارتداء الحرير أوالذهب (وكان هذا يطبق على الرجال فقط) وكانوا يفعلون نفس الشيء مع من يدخن أو يلعب الـــورق أو الشطرنج أو الطاولة أو عند التقاعس عن مراعاة الشروط المتشددة فـــي عدم الاختلاط بين الجنسين، ولقد دمروا جميع الأضرحة وأغلـــب المعـــالم

والآثار الإسلامية الموجودة في الجزيرة العربية . وقد سبب تدمير الوهابيين لأضرحة أهل بيت الرسول (صلى الله عليه وسلم) وصحابته صدمة كبيرة وجدالاً واسعًا في العالم الإسلامي، تمامًا مثل تدمير طالبان لتماثيل بوذا في أفغانستان، فتدمير الوهابيين لمقابر أهل الرسول (ص) وصحابته في مكة والمدينة وجبيلة، حدث غير مسبوق في التاريخ الإسلامي. ولقد حافظ المسلمون على هذه المقابر ووقروها لما يزيد عن ألف سنة، حتى أن بعضها تحول إلى أضرحة زارها ملايين المسلمين على مدار قرون . وفي حادثة أخرى غير مسبوقة سببت الكثير من الأذى لمشاعر المسلمين، قام "محمد بن عبد الوهاب" بقطع شجرة كانت تعرف باسم "شجرة الذيب" والتي كانت موجودة في وادي حنيفة بالقرب من "جبيلة"، وكان عمر هذه الشجرة أكثر من ألف سنة، وكان لها أهمية تاريخية كبيرة جدًا، وكان يتم ارتكاب هذا التدمير العشوائي للمواقع التاريخية تحت مسمى حماية الإسلام من الخطر الذي يهدده والمتمثل في العودة إلى الممارسات الوثنية . لقد قدمت لنا الوهابية سابقة هي الأولى من نوعها، وهي إحصاء الغائبين المتخلفين عن الصلاة في الصلوات الخمس، حيث تم تحضير قوائم بأسماء السكان وكان يتم نداء أسمائهم على مدار الصلوات الخمس في المسجد ومن يتغيب بدون عذر كافٍ كان يتم جلده.

وكان الوهابيون يفرضون رؤيتهم الخاصة على الحجاج من جميع أنحاء العالم؛ وذلك بسبب موقعهم المتفرد كحماة لمكة والمدينة، ومما يدل على عدم انتشار عقيدة الوهابية ذلك الوقت، هو تلك المصادمات مع الحجاج القادمين من إفريقيا وجنوب شرق آسيا، فمثلاً في عام ١٩٢٦، أدى عداء الوهابية الشديد للآلات الموسيقية، إلى أزمة بين مصر والمملكة السعودية حينما تمت مهاجمة وضرب الجنود المصريين الذين يحملون المحفّة؛ لأنهم يستخدمون الأبواق في مراسم الحج، كما تم تكسير الآلات الموسيقية وحُلت الأزمة

عندما قام الملك "عبد العزيز" بتوجيه بعض العبارات المرضية للحكومة المصرية، ولكن تلك كانت آخر سنة استطاع فيها الحجاج المصريون أن يقيموا مراسمهم السنوية في موسم الحج فيما يتعلق بالأبواق والموسيقى. وقام الوهابيون بتجريم الغناء والرقص الصوفي في مكة والمدينة ثمّ في السعودية كلها. ومن أبشع الأعمال التي قام بها "عبد الوهاب" في الجزيرة العربية والتي نتج عنها الكثير من الاضطرابات والمعارضات، هو رجم امرأة حتى الموت بسبب ارتكابها جريمة الزنا. وتؤكد المصادر التاريخية أنه لم يتم رجم أي شخص حتى الموت في الجزيرة العربية منذ أمد طويل، وقد فزع الكثير من الفقهاء مما أسموه بالإعدام اللاإنساني لهذه المرأة. وهذا التقرير التاريخي ليس معبرًا الآن؛ لأن العديد من وقائع الرجم حتى الموت ترتكب في الوقت الحالي في السعودية وطوال الوقت دون أن يهز ذلك شعرة واحدة في رأس أي شخص[1].

---

[1] لقد حدد الإسلام في القرآن الكريم عقاب من يزني، فالجلد لغير المحصن (غير المتزوج) والرجم للمحصن أو المحصنة، قال تعالى: " فاجلدوا كل واحدٍ منهما مائة جلدة..." وقال أيضًا: "ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله.." وقال بعد ذلك: وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين..". وهناك حديث "ماعز والغامدية، وهو مشهور، وقد اعترف الاثنان بجريمتهما فأقام الرسول (ص) الحد رجمًا على الرجل، وأرجأ المرأة حتى تضع حملها ثم أمهلها حتى ترضعه. فلا لوم ولا تثريب على أحد ينفذ حكم الله جلدًا أو رجمًا–ولا تأخذكم بهما رأفة– إنما اللوم على من يعترض على شرع الله ويتمرد على ربه فلا ينفذ أحكامه، ونحن لن تهتز في رؤوسنا شعرة لما يقولون. ثم أهذه دعوة لتعطيل الحدود حدًا بعد حد، فلا جلد ولا رجم ولا قصاص ولا قطع يد بحجة، فذلك كله لم يعد يواكب العصر؟ فهل الله الذي شرّع لا يعلم باختلاف العصور والأزمان وتفرق المكان، ولا دين بعد الإسلام فهو الخاتم، وإذن فتشريعه في الحدود ثابت لا يتغير سائر مع الزمان والمكان طاعة لله وامتثالاً لأمره ونهيه. "المترجم"

لقد كانت الوهابية بممارساتها المتعصبة والوحشية تلك تثير اعتــراض العالم العربي والدول الإسلامية غير العربية، مما كان يؤدي إلى وضع عائلة آل سعود في مواقف سياسية محرجة. ولكي لا يفقد السعوديون (قبل وبعــد تأسيس الدولة السعودية الحديثة) الدعم السياسي من الدول الإسلامية والــذين كانوا في أشد الحاجة إليه، كانوا دائمًا يتعاملون مع تلك المواقف المحرجــة بإصدار تصريحات مصالحة تهدف إلى الحد من قلق المــسلمين علــى مــا أصبحت عليه المدن المقدسة كمكة والمدينة. ولكن عدا الظروف الاســتثنائية التي أدت إلى القمع العنيف للإخوان عام ١٩٢٩، لم يقم الحكام من عائلة آل سعود بفعل الكثير لمنع ممارسات الوهابيين. ففي الفتــرة مــن ١٩٣٠ إلــى ١٩٤٠ تغلبت الحكومة السعودية على كل ما يدعو إلى تحجيم الممارســات المتعصبة للوهابية والتضييق عليها، بل وعززت من سلطة الوهابيين في مكة والمدينة وتلك السلطة هي التي أدت إلى إعطائها ذلك الحق الحــصري فــي تحديد الشعائر التي يتم تأديتها في المدينتين المقدستين، وفي الخمسينيات لــم تعد الحكومة السعودية تقدم أي تصريحات مصالحة للدول الإسلامية أو حتى تعتذر عن ممارسات وتعديات الوهابيين، حيث إن الحكومة السعودية واصلت اعتمادها على المساعدات القادمة من الحكومة البريطانية (أصــبحت تعتمــد أكثر على المعونات من الحكومة الأمريكية) ولم تعد في حاجة إلــى دعــم الدول الإسلامية الأخرى. لقد ثبتت الوهابية جذورها في المملكــة العربيــة السعودية وأيضًا في عصب الإسلام أي مكة والمدينة. وبسبب الدعم القــادم من غير المسلمين واكتشاف البترول، أصبحت الحكومة السعودية في موضع يمكنها من مقاومة الانتقادات الموجهة ضدها من الدول

الإسلامية المعتدلة. ولم يعد من الممكن أن تمارس تلك الدول أي ضغط من شأنه أن يؤثر على الحكومة السعودية أو يمكنها من خلاله التأثير علــى نوعية الإسلام التي أصبحت مهيمنة في الأراضي المقدسة ولم يكــن لــدى

الحكومة السعودية حافز يدفعها لتعديل أو تغيير العقيدة التي تتمسك بها. ولكن السبعينيات كانت بحق نقطة تحول هامة بالنسبة للسعودية والعالم الإسلامي. فقبل السبعينيات كان السعوديون يتصرفون كما لو أن الوهابية من الشئون الداخلية والتي تلائم الاحتياجات المحلية للثقافة والمجتمع السعودي. ولقد كانت السبعينيات نقطة تحول، حيث قررت الحكومة السعودية أن تتعهد بنفسها بعمل حملة دعائية لنشر المذهب الوهابي في جميع أنحاء العالم الإسلامي.

في البداية كانت عملية نشر هذا المذهب تتضمن تقديم المساعدات المادية للمنظمات الأصولية، ولكن بحلول الثمانينيات، أصبحت أكثر تطورًا وشمولاً. فعلى سبيل المثال، قامت السعودية بتكوين عدد من المنظمات الرسمية مثل رابطة العالم الإسلامي التي نشرت الفكر الوهابي على مدى واسع وبجميع اللغات الرئيسية في العالم. وقامت بتقديم الجوائز والمنح والتمويل المالي لشبكة كبيرة من الناشرين والمدارس والجوامع والمنظمات والأفراد. وكانت نتيجة هذه الحملة، أن الكثير من الحركات الإسلامية في العالم الإسلامي أصبحت مؤيدة للفكر الوهابي. علاوة على ذلك، تعلم العديد من الأفراد والمؤسسات صياغة أفكارهم وخطبهم وتصرفاتهم بطريقة تمكنهم من استقطاب الهبات السعودية والاستفادة منها.

وفي النهايه نستطيع أن نقول إن هناك أربعة عوامل رئيسية ساهمت في بقاء وتوسع الجماعة الوهابية في الإسلام المعاصر:-

١- التمرد ضد العثمانيين، حيث استغلت الوهابية ظهور فكر القومية العربية في القرن الثامن عشر، واستطاعت أن تعطي أولوية مطلقة لمفاهيم مثل حق العرب في تقرير المصير والحكم الذاتي، وذلك عن طريق التعامل مع الحكم العثماني الإسلامي على أنه قوة احتلال أجنبية.

٢- وكما ذكرنا أعلاه، فقد دافع الوهابيون عن العــودة لمـــا رآه "عبــد الوهاب" أصول الإسلام الصافية. ووفقًا لذلك فقد رفض الوهابيون الميــراث التاريخي المتراكم وطالبوا بالعودة لتقاليد السلف الصالح. إن مصطلح الأوائل الراشدين يستخدم للإشارة إلى جيل صحابة الرسول (صلى الله عليه ســلم)، والجيل الذي يليه يُشار إليه بـــ "التابعين"، وهذه الأجيال كان ينظــر إليهــا بنظرة مثالية، ودائمًا ما يستشهد بها كأمثلة يُحتذي بهـــا. ولقــد كـــان فكــر الوهابيين فكرًا تحرريًا بالنسبة للإصلاحيين المسلمين، حيـــث إن الوهابيـــة تعني إعادة ميلاد الاجتهاد أو العودة لفحص وتقرير القضايا القانونيـــة، دون أن يُعيقهم الميراث الضخم والشرائع التي وضعها السابقون بعبارة أخـــرى، وفكرة التخلص من ماضٍ بكل ما فيه والبدء من جديد، هي فكرة تحررية - نظريًا - على الأقل، إذ يمكن للمسلمين أن يستخدموا الاجتهاد (تحليل وتفكير جديدان ومستقلان) للنظر في المصادر الأصلية ويمثلها القرآن والسنّة بنظرة أخرى، والوصول إلى تفاسير جديدة وحلول لمشاكل الوقت الحـــالي دون أي إعاقة من الماضي.. أما بالنسبة للوهابيين، فإن الماضـــي الوحيـــد الملـــزم والواضح يتمثل في الرسول والصحابة والتابعين وسلوكهم.

٣- بفرض السيطرة على مكة والمدينة أصبحت السعودية فـــي موقـــع يمكنها من أن يكون لها تأثير على ثقافة وفكر المسلمين. فالمدن المقدسة مكة والمدينة هما قلب الإسلام وهما المكانان اللذان يقصدهما ملايين المسلمين كل عام لأداء فريضة الحج وزيارة الرسول (ص) بتنظيم ما يمكـــن أن يعتبـــر معتقدات وممارسات أرثوذكسية أثناء موسم الحج، وأصبحت السعودية فـــي موقع متفرد يمكنها من خلاله التأثير في نظام العقيدة في الإسلام نفسه.

٤- الأمر الذي ربما يكون أكثر أهمية، هو اكتشاف واستغلال البتـــرول في السعودية. فقد أعطى هذا البترول هذه الـــبلاد ســـيولة ماليـــة كبيـــرة. وبالأخص قبل عام ١٩٧٥، وبسبب الارتفاع الرهيب في أســـعار البتـــرول؛

استثمرت السعودية الأموال وبشكل كبير في نشر أفكار الوهابية في العالم الإسلامي. وبفحص سريع للأفكار والممارسات السائدة في المساجد، يتضح لنا التأثير الواسع للفكر الوهابي في العالم الإسلامي اليوم.

إن جزءًا من السبب الذي أدى إلى أن تجمع السعودية بهذا الشكل العنيف أنصارًا لعقيدتها، يرتبط بالنقطة الثالثة المذكورة أعلاه، حيث إنه كان سيصبح من الغريب سياسيًا أن تكون المملكة السعودية خادمة الحرمين الشريفين، وهي في الوقت نفسه تتبنى معتقدات على النقيض تمامًا من بقية العالم الإسلامي. إن القيام على خدمة الحرمين الشريفين موقع حساس في العالم الإسلامي. وادعاء السعودية بأن لها السيادة الحصرية على المدن المقدسة، كان موضع مشاكل في الفترة من ١٩٢٠ إلى ١٩٦٠ خاصة في ظل تعصب الوهابيين تجاه الشعائر الأخرى التي حكموا عليها بأنها غير قويمة. وفي الخمسينيات والستينيات، وقعت المملكة السعودية تحت ضغط كبير من الأنظمة الجمهورية والوطنية العربية التي اعتبرت النظام السعودي نظامًا رجعيًا وباليًا. فالأنظمة القومية العربية خاصة نظام "جمال عبد الناصر"، تعتبر أنظمة علمانية واجتماعية خالصة وثورية. وكذلك توارث الحكم والرأسمالية والحكم الديني للنظام السعودي ودول الخليج الأخرى، يعتبر نظامًا متخلفًا تاريخيًا وغير ثوري. ووفقًا للقوميين العرب الثوريين، فإن المملكة السعودية تعتبر دولة مُصنعَة أوجدتها قوى الاستعمار من أجل خدمة مصالح الإمبريالية الغربية. ولذلك فعلى سبيل المثال، لم يتحد "جمال عبد الناصر" سيادة السعوديين على المدن المقدسة فحسب، بل حاول الإطاحة بحكومة المملكة السعودية. وفي السبعينيات امتلكت السعودية أخيرًا الوسائل المالية لتقديم اهتماماتها الشرعية. وأصبح أمام الوهابيين إمّا أن يغيروا نظام معتقداتهم ليتوافق مع معتقدات المسلمين الآخرين، أو أن يقوموا بنشر معتقداتهم بعنف في بقية العالم الإسلامي. والخيار الأول كان سيتطلب من

النظام السعودي إعادة تكوين نفسه، ولكن في كل الحالات كان من الأسهل عليهم أن يحاولوا إعادة تكوين العالم الإسلامي، وهذا ما اختاروه. وبالتالي فقد أطلقت الحكومة السعودية حملة عنيفة تهدف إلى إعاده تكوين العالم الإسلامي عن طريق نشر الفكر الوهابي في جميع أنحاء العالم على أنه الصورة الوحيدة الشرعية للإسلام. وفي البداية كانت عملية نشر هذا المذهب تتضمن تقديم المساعدات المادية للمنظمات الأصولية، ولكن بحلول الثمانينيات أصبحت أكثر تطورًا وشمولاً. فعلى سبيل المثال، قامت السعودية بتكوين عدد من المنظمات الرسمية مثل رابطة العالم الإسلامي التي نشرت الفكر الوهابي على مدى واسع وبجميع اللغات الرئيسية في العالم. وقامت بتقديم الجوائز والمنح وتقديم التمويل المالي لشبكة كبيرة من الناشرين والمدارس والجوامع والمنظمات والأفراد. وكانت نتيجة هذه الحملة أن الكثير من الحركات الإسلامية في العالم الإسلامي أصبحت مؤيدة للفكر الوهابي. علاوة على ذلك، فقد تعلمت شريحة عريضة من المعاهد سواء كانت مدارس أو ناشري كتب أو مجلات أو صحف أو حتى حكومات بالإضافة إلى الافراد مثل الأئمة والمعلمين والكتّاب، أن يصوغوا تصرفاتهم وأحاديثهم وفكرهم بطريقة تمكنهم من استقطاب الهبات السعودية والاستفادة منها. ففي أنحاء عديدة من العالم الإسلامي، كان السلوك أو الحديث الخاطئ (مثل التقاعس عن ارتداء الحجاب أو عن الدفاع عنه) يعني رفض المنح السعودية، بل وحتى رفض محاولة الوصول إليها، وبمعنى آخر، كان هذا يعني إما العيش في مستوى معيشة ملائم أو العيش في الفقر المذل.

ومع ذلك، فلابد أن نذكر شيئًا مهمًا، وهو أن الوهابية لم تنتشر في العالم الإسلامي المعاصر تحت لوائها الخاص، لأننا إذا ما نظرنا إلى أصول المذهب الوهابي الهامشية، فسيتضح لنا ما يتوقع من محدودية المساحة التي سينتشر فيها المذهب. فقد انتشرت الوهابية في العالم الإسلامي تحت راية

السلفية. وفي الواقع إن لقب الوهابية يعتبره أتباع ابن عبد الوهاب لقبًا ينتقص من قدرهم، فهم يفضلون النظر إلى أنفسهم على أنهم ممثلو الطريق الإسلامي القويم. وطبقًا لأولئك الذين يعتنقونها، فالوهابية ليست مدرسة فكر في الإسلام، بل هي الإسلام نفسه والإسلام الوحيد المتاح. والحقيقة أن رفض الوهابية استخدام لقب "مدرسة" أعطتها ميزة الانتشار وجعلت الكثير من عقائدها ومذاهبها تنتقل بشكل سريع. إن السلفية نموذج في الإسلام يحظى بثقة أكبر على عكس الوهابية وبطريقة ما أصبحت مطية الوهابية المثالية، ولذا كان يقوم رجال الدين الوهابيون بوصف أنفسهم بأنهم سلفيون وليسوا وهابيين.

أصول السلفية

تم تأسيس مذهب السلفية في أواخر القرن التاسع عشر على يد اصلاحيين مسلمين مثل الشيخ محمد عبده (١٣٢٣هـ - ١٩٠٥م) وجمال الدين الأفغاني (١٣١٤ هـ- ١٨٩٧م) ومحمد رشيد رضا (١٣٥٤هـ - ١٩٣٥م) ومحمد الشوكاني (١٢٥٠ هـ - ١٨٣٤م) وجلال الصنعاني (١٢٢٥هـ - ١٨١٠م). وقد أرجع البعض أصل المذهب إلى ابن تيمية (٧٢٨هـ-١٣٢٨م) وتلميذه ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ - ١٣٥٠ م). وكلمة "سلف" تعني السابقين، أما في السياق الإسلامي فتشير إلى فترة الرسول (ص) وصحابته والتابعين، فمصطلح سلفي (الشخص الذي يتبع السلف) يحمل معنى مرنًا وقابلاً للتكيف وجاذبًا بطبيعته، فهو يعني الأصالة والشرعية. وهو كمصطلح مستغل من قبل كل جماعة تريد أن تدعي أنها تقوم على مصداقية إسلامية، وبالرغم من أن هذا المصطلح تبناه في الأصل المصلحون التحرريون أوائل القرن العشرين، إلا أن الوهابيين يشيرون إلى أنفسهم كسلفيين. غير أن المصطلح لم يقرن بالوهابيين، إلا في السبعينيات.

إن السلفية تدعو إلى مفهوم أساسي ورئيسي في الإسلام، وهو أن يلتزم المسلمون باتباع الرسول "صلى الله عليه وسلم" وصحابته المهديين والسلف الصالح، وكذلك كل الأتقياء من الأجيال السابقة. وتعتبر السلفية - منهجيًا وجوهريًا- متماثلة تقريبًا مع الوهابية. غير أن الوهابية أقل من السلفية بكثير من حيث السماحة فيما يتعلق باختلاف وتنوع الآراء، ومن طرق عديدة، فإن السلفية - بداهة- لا يمكن رفضها، وذلك - إلى حد ما - بسبب تعهداتها التي قطعتها على نفسها، فقد قدمت وجهة نظر عالمية لا يمكن إنكارها أو تحديها. ومؤسسو السلفية أكدوا على أن المسلمين يجب أن يعودوا في جميع القضايا إلى المصادر النصية الأصلية وهي القرآن والسنّة، وفي سعيهم لتحقيق ذلك

يتحتم على المسلمين أن يعيدوا تفسير المصادر الأصلية في ضوء المتطلبات والاحتياجات العصرية، دون التقيد بالتفاسير السابقة للمسلمين الأوائل، فالسلفية ليست بالضرورة معادية للفكر كما يتم تخيلها، ولكن كما هو الحال بالنسبة للوهابية فالسلفية لم تهتم بالتاريخ.

علاوة على ذلك، فإن السلفية برفضها للميراث الفقهي والتقليل من شأن التقاليد كمصدر يُعتد به، قد تبنت شكلاً من أشكال المساواة والذي فكك النظريات التقليدية حول السلطة التي تم تأسيسها في الإسلام، وطبقًا للسلفية فإن أي شخص يعتبر مؤهلاً للعودة إلى المصادر الرئيسية، ومن ثم يتكلم باسم الله، حيث إن أهم المبادئ والركائز التي تقوم عليها السلفية، أن أي شخص عادي يمكنه أن يقرأ القرآن والكتب التي تحتوي على سُنّة الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) وصحابته، وأن يصدر أحكامًا شرعية، وهذا يعني أن كل فرد يمكنه أن يصوغ فكرته الخاصة عن الشريعة الإسلامية.

لقد ساهمت السلفية بصورة مؤثرة في إحداث فجوة في السلطة في الإسلام المعاصر بتحرير المسلمين من أعباء التقاليد الفنية للفقهاء، لكن بخلاف الوهابية، لم تكن السلفية تعادي التراث الفقهي ولا ممارسات مدارس الفكر الأخرى المنافسة ، إن الأمر ليبدو كما لو كانت السلفية قد اعتبرت التراث الفقهي أمرًا اختياريًا وغير أساسي بالضرورة. وكذلك بخلاف الوهابية، لم تكن السلفية تحمل مشاعر عدائية ضد التصوف والروحانيات. والكثير من مؤيدي السلفية كانوا يتطلعون وبشغف للتخلص من قيود التقاليد، وأن يبدأوا في إعادة التفكير في حلول إسلامية على ضوء المتطلبات العصرية، وطالما أن التراث الفقهي كان هو موضع الاهتمام، فإن السلفيين كانوا يميلون إلى ممارسة " التلفيق" وهو عبارة عن مزج آراء مختلفة من الماضي والوصل بينها من أجل الخروج بمنهج جديد للمشاكل.

ومن أهم أبعاد السلفية أنه قد أسسها قوميون مسلمون يتطلعون إلى قراءة القيم المعاصرة في ضوء المصادر الأصلية للإسلام، ومن ثمّ، فإن السلفية لم تكن بالضرورة معادية للغرب، وفي الحقيقة فإن مؤسسيها كافحوا لإدخال المؤسسات المعاصرة مثل الديمقراطية والدستورية والاشتراكية في النصوص المؤسسة في الدين، لكي يبرروا نموذج الدولة القومية الحديثة داخل الإسلام، وبهذا المعنى فقد يُظَن في الأصل أن السلفية قد أظهرت شيئًا من الانتهازية، فقد كان مؤيدوها يهتمون بالنتائج النهائية أكثر من اهتمامهم بالحفاظ على تكامل الطريقة الفقهية وتماسكها. وقد تميزت السلفية بحرصها الشديد على الوصول إلى نتائج تجعل الإسلام يتوافق مع الحداثة أكثر من رغبتها في فهم الحداثة أو التراث الإسلامي نفسه. وعلى سبيل المثال، فقد أكد السلفيون وبشدة في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين على أهمية مفهوم المصلحة العامة في صياغة الشريعة الإسلامية، ووفقًا لذلك كان يتم التأكيد على أن أي شيء يخدم المصلحة العامة يجب أن يعتبر جزءًا من الشريعة الإسلامية.

على أية حال فقد جاءت مشكلة فرضتها السياسية لتسمم أفكار السلفية خلال القرن العشرين. إن السلفية التي وعدت في بادئ الأمر بنهضة ذات طابع تحرري في العالم الإسلامي، قامت بتكييف المبادئ الدينية والأخلاقية لتزود ذرائعها السياسية والديناميكية بالقوة، وكان السلفيون يقومون بتحويل الإسلام إلى قوة رد فعل سياسية، وذلك في مواجهة تحدي القومية وكانوا دائمًا يتكلمون عن المصلحة والضرورة العامة ويقومون بإقحام الإسلام في صراعات دنيوية لأجل الهوية وتقرير المصير. وكنتيجة لذلك، أصبحت السلفية قوة مضللة وبلا مبادئ أخلاقية وباتت تعيد تشكيل وتعريف نفسها بصفة مستمرة، تجاوبًا مع التغير المستمر الذي لا يتوقف للقوى الفعالة المستمرة.

وفي النهاية، فإنه لا يوجد أحد يستطيع أن يجزم بشأن المبادئ والفضائل الأخلاقية التي تمثلها السلفية، غير أنها نموذج صارخ للعمل والوظيفية التي تتغير باستمرار وفقًا للمتطلبات السياسية في أيامها، وبحلول منتصف القـــرن العشرين أصبح من الواضح أن السلفية قد اتجهت إلى التبريرات الخانقة. هذه التبريرات تمثلت في جهد يُبذل للزود عن الإسلام وتقاليده ضد هجوم الغرب والحداثة من خلال التأكيد – في الوقت ذاته – على مدى توافق الإسلام مـــع المتطلبات المعاصرة وتفوقه، وقد تجاوب المدافعون مع التحـــديات الفكريـــة للعصر الحديث عن طريق تبني قصص خيالية تحكي أعمالاً نابعة من التقوى تؤكد كمال الإسلام وتحاشي أي تقييم نقـــدي للعقائـــد الإســـلامية. إن الأداة المشتركة بين المدافعين هي السعي لإثبات أن أية أفكار حديثة تستحق الإشادة أو التقدير، وأن أول من ابتدعها وتوصل إليهـــا هـــم المـــسلمون، وطبقـــاً للمدافعين، فإن الإسلام قد حرر المرأة وابتدع الديمقراطية وشـــجع التعدديـــة وقام بحماية حقوق الإنسان، قبل وجود هذه المؤسسات في الغـــرب بكثيـــر، ومع ذلك فإن هذا لم يكن يتم التأكيد عليه بناءً على تعامل نقدي مع العـــادات الإسلامية أومن خلال التزام فكري أو فهم دقيق لمعنى الأفكار المؤكد عليها، بل كان يتم التأكيد على هذه القضايا لأجل تحقيق سلطة عاطفية والتأكيد على جدارة الذات. وببساطة فلقد أثار هؤلاء المدافعون قـــضية مـــدى مـــصداقية الإسلام فيما يتعلق بقضايا مثل الديمقراطية وحقوق الإنسان وحقوق المـــرأة، ولكنهم لم يتناولوها بجدية. ووفقًا لهؤلاء المدافعين، فإن المجتمع بأكمله فـــي حاجة إلى أن يعمل لتحقيق الاستفادة الكاملة من الديمقراطية وحقوق الإنسان والتطور الاقتصادي، وأن يتم تعريف حقوق المرأة كما هـــي موجـــودة فـــي الإسلام الحقيقي، ولكن في الحقيقة لم ينتج عن هذا سوى إحساس زائف بالثقة والخمود الثقافي الذي لم يحمل التقاليد الإسلامية أو التحديات العصرية على محمل الجد. ولقد انحدرت تلك الخطط الانتهازية الأولية والتي كانت ممثلـــة

بقوة في أدب السلفية، إلى إهمال فكري ونزوات أدت إلى تدمير أي جهود للتحليل الدقيق والمنظم. وبحلول الستينيات تبددت أول بادرة تحررية تدعو للتفاؤل، وما تبقى من هذه النزعة التحررية تحول وبشكل كبير إلى محاولات للتبرير والدفاع.

وفي هذه الأثناء وخلال عملية اجتماعية سياسية مركبة استطاعت الوهابية أن تتخلص من بعض أشكال التعصب، وظلت تختار لغة ورموز السلفية في السبعينيات، إلا أنه من الصعب التمييز بينهما عمليًا، فكل من الوهابيين والسلفيين تخيلوا عصرًا ذهبيًا للإسلام، وأن ذلك يستلزم أن نؤمن بالمدينة الفاضلة التاريخية، والتي اعتقدوا أنه من الممكن استرجاعها وتكوينها في الإسلام المعاصر. وظل كلاهما لا يهتم بالبحث التاريخي النقدي، وكانت استجابتهما للتحديات الحديثة بالهرب إلى ملجأ النصوص الآمن .. وكلاهما أيضًا دافع عن مذهب المساواة لدرجة أنهم اعتبروا أن أي مظهر فكري أو عقلاني أخلاقي مرفوض تمامًا، وبالتالي فهو مفسدٌ لنقاء رسالة الإسلام، بل وبلغ الأمر أن أصبح هناك موقف يتعاملون على أساسه مع كل ما هو معقد فكريًا ومثير للتحدي على أنه مضاد للإسلام.

هذا التشابه بين الاثنين قد سهّل عملية انتقاد الوهابيين للسلفية، فالوهابية منذ بدايتها وكذا السلفية – خاصة عقب دخولها مرحلة التبرير والدفاع عن الدين– أُبتليتا بنوع من التفكير السيادي السائد إلى يومنا هذا، فالمستوى الثقافي الفكري الموجود في كتابات السلفيين الأوائل مثل "محمد عبده" و"رشيد رضا" أصبح نادرًا جدًا، ولم يعد من الممكن التفرقة بين كتابات السلفيين وكتابات الوهابيين. ويعد هذا الخلط بين الوهابية والسلفية الذي حدث في السبعينيات، هو ما شكل فكر الحركات المتشددة الموجودة الآن. وخير ما يمثل النهج المتشدد هو كتابات أشخاص مثل "أبو الأعلى المودودي" (١٩٧٩) و"سيد قطب" الذي أُعدم عام ١٩٦٦م، وكان الاثنان مختلفين.

فأحدهما كان سلفيًا والآخر وهابيًا. وقد كان "المودودي" مفكرًا إسلاميًا مؤثرًا وكتب أكثر من عشرين كتابًا، وكان له تأثير كبير على الأفراد الذين كانوا من أصل هندي أو باكستاني وعلى المسلمين العرب، وقد سار "المودودي" على نهج "عبد الوهاب" وآمن أن كل المجتمعات الإسلامية قد عادت إلى ما قبل الإسلام حيث يسود الظلام والجهل، وهو ما يعرف بالجاهلية، ومثل "عبد الوهاب" فقد اعتقد "المودودي" أن المسلمين قد أضاعوا دينهم الحقيقي، وأن الكثير من معتقداتهم وأفعالهم تنم عن قلة الوعي بمفهوم التوحيد، وقد اعتقد أيضًا - مثل عبد الوهاب - في وجوب عزل المرأة، وأكد أيضًا على أهمية الشعائرالصحيحة كبرهان على صحة الدين، ولم يكن يريد أن يتمادى إلى حد القول بأن معظم المسلمين مرتدين ومن ثمّ تهدر دماؤهم، فلم يلجأ إلى العنف في حياته ولكنه قاد حركة ذات جذور في باكستان، تهدف إلى استقطاب التأييد العام. وقامت في النهاية بإسقاط الحكومة والاستحواذ على السلطة. لم يُقدِم "المودودي" على استخدام العنف على أنه مسألة مبدأ، ولكنه اعتقد أن الاستخدام غير الحكيم للعنف سيؤدي إلى قمع الدولة والهزيمة التامة للقوات الإسلامية. ومن العدل أن نقول إن الفرق بين "عبد الوهاب" و"المودودي" هو اختلاف الظروف. إذ إن العوامل التي ساعدت "عبد الوهاب" على استخدام العنف كخيار أول في نشر رسالته، هي العداء بين القبائل ووجود دولة ضعيفة في الجزيرة العربية والدعم البريطاني الهادف إلى إضعاف الإمبراطورية العثمانية. أما "المودودي" فقد كان يؤيد فكرة تأجيل الجهاد، وهي فكرة أن المسلمين الحقيقيين يجب عليهم ألا يستخدموا العنف طالما أن موازين القوى لا تصب في مصلحتهم ولا ترجح انتصارهم، لكن إذا ما تغيرت موازين القوى، فحينئذ يكون هناك ما يبرر اللجوء إلى العنف. إن "المودودي" يتشابه مع "عبد الوهاب" إلى حد كبير، فكلاهما يشترك في نفس الحلم، وهو إقامة مجتمع جديد بديل أفضل ويكون إسلاميًا

تمامًا وبحق، غير أنه لا يوجد ما يشبه المجتمعات التي كانت موجودة بالفعل وعاش فيها هذان الناشطان، ووفقــًا لهذين الناشطين، فكانا يتخيلان المجتمع البديل الذي يشتهيانه على أنه المدينة الفاضلة التي يجب أن تتبع نموذج مدينة الرسول الكريم (صلى الله عليه و سلم) وهي المدينة المنورة. وجوهريًا، فإن "المودودي" وأتباعه الكثيرين يشتركون مع الوهابيين فـــي الإيمـــان بدولـــة ديكتاتورية ذات حكم ديني ترغم الناس على الالتـــزام بـــرؤيتهم المتـــشددة للشريعة الإسلامية.

ولقد عكس "المودودي" نفوذًا غربيًا واضحًا يُـــصرّ علـــى أن الدولـــة الإسلامية دولة دينية ديمقراطية؛ أي مزيج من الحكم الديني والـــديمقراطي، ولكن هذا لم يكن أكثر من دفاع بلاغي بهدف تبرئة ساحة أتباعه من التهمة المنسوبة إليهم وهي أنهم نشطاء يعملون على تحويل باكـــستان إلـــى دولـــة ديكتاتورية دينية.

لقد لُقب "سيد قطب" بأبي المقاتلين، ولكن هذا الاتهام لم يكن دقيقًا كليـــةً، فلقد أصدر النظام الناصري في مصر حُكمًا على "قطب" بالإعـــدام؛ بـــسبب أفكاره لا بسبب أية أعمال عنف ارتكبها، ولكن لأنه قد تم إعدامـــه بـــسبب أفكاره، فإن هؤلاء الذين كانوا يختلفون مع فكره يتذكرونه الآن علـــى أنـــه شهيد، ولقد كفلت له الشهادة بقاءه في ذاكرة المسلمين لأجيال قادمة.

علاوة على ذلك، فإن "قطب" صورة معقدة حيث عاش معظـــم حياتـــه كمسلم معتدل، ونتيجة لذلك فإنه ترك ميراثًا من الدراسات القيّمـــة المـــؤثرة تتناول القرآن والنقد الأدبي، وقد حصل "قطب" على تعليم عالٍ وقرأ كثيـــرًا وكان على معرفة بكتابات "المودودي" و"عبد الوهاب"، كما كان على اطلاع بكتابات فلاسفة غربيين عديدين، ولم ينغمس "قطب" في فكـــر "المـــودودي" و"عبد الوهاب" إلا بعد اعتقال النظام الناصري له عدة مرات وتعذيبه، فتلـــك هي التجربة التي تعد نقطة تحول بالنسبة لـــ"قطـــب"، إذ إنـــه تحـــول إلـــى

متطرف وكتب كتابه: "معالم على الطريق" الذي أصبح من أكثر كتاباته تأثيراً وشهرة. وكمتطرف، فقد كان "قطب" مثالاً حقيقيًا للتأثيرات والتناقضات الموجودة التي تمثلت في ذاك الوقت في الإسلام المتشدد وهي السلفية والوهابية والفكر الغربي، ففي كتابه "معالم على الطريق" حاول "قطب" تقديم وصف للمجتمع الإسلامي الأصيل ولدين الإسلام الحقيقي، لكن في الواقع، إن كتاب "قطب" لم يفعل أكثر من مجرد محاولة لإضافة إطار إسلامي لفكر عنصري بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

لقد كان "قطب" عضوًا في جماعة الإخوان في مصر ولقد أصّر على أن حسن البنا (تم اغتياله في ١٩٤٩م) مؤسس تلك الحركة كان سلفيًا. وعلى أية حال، فقد قام "قطب" بتقسيم المجتمع إلى مؤمنين حقيقيين في مقابل أولئك الذين يعيشون في عصر الجاهلية (عصر الظلام والجهل قبل الإسلام). ومن وجهة نظره، فإنه يجب على جميع المسلمين أن يهاجروا إلى أرض الإسلام الحقيقي، وأولئك الذين يتقاعسون عن الهجرة يعتبرون منشقين وكفارًا، وقد أصر "قطب" على أن القرآن هو دستور جميع المسلمين الحق، وقال أيضًا: "إن الملك لله وحده"، وهذا يعني أن الله هو المشرع الحقيقي الوحيد في المجتمع الإسلامي الحقيقي، والعدالة التامة يمكن أن تتحقق إذا ما قام الحاكم بتطبيق أوامر الله بإخلاص، وبالطبع فلن يثير دهشتنا أنه لا "المودودي" ولا "قطب" كانا فقيهين مدربين، وأن معرفتهما بالتراث الفقهي قليلة للغاية، ومع ذلك فإن كلاً من "المودودي" و"قطب" اشتركا مع "عبد الوهاب" في تخيل الشريعة الإسلامية على أنها أوامر إيجابية قطعية وغير مرنة وصارمة تغطي وتنظم كل ناحية من نواحي الحياة، ولقد تخيل "قطب" أن الشريعة الإسلامية هي العلاج الشافي لكل شيء وتنفيذها يعني تنفيذ عدالة الله، وعدالة الله هي العدالة الكاملة.

لقد قال "قطب": إنه بعد أن يتم تأسيس أرض الإسلام الحقيقي، يجب على كل المسلمين الهجرة إليها والاستقرار فيها، وقد زعم "قطب" أنه حتى وإن لم تكن تلك الأرض موجودة، إلا أنه يجب على المؤمنين الحقيقيين أن يعزلوا أنفسهم عن بقية المجتمع (الاعتزال)، الذي يعد مجتمعًا مسلمًا بالاسم فقط بينما هو في الواقع مجتمع ملحد وملوث، ويجب على المؤمنين الحقيقيين أن ينسحبوا وينعزلوا حتى لا تفسدهم حياة جاهلية ما قبل الإسلام السائدة في المجتمع. وبعد أن ينسحبوا ويكونوا مجتمعهم الخاص، يصبح لزامًا عليهم أن يقوموا ببذل الجهد لتأسيس دولة إسلامية حقيقية. ومن الواضح أن رغبة "قطب" في إعلان أن جميع المسلمين ملحدين، تذكرنا بمفهوم "عبد الوهاب" السابق حول الإيمان الحقيقي والإلحاد، وكما فعل "عبد الوهاب" من قبل، فقد اتهم "قطب" الغالبية العظمى من المسلمين بأنهم منافقون ومنشقون، ولقد آمن كل من "عبد الوهاب" و"قطب" بفكرة "الفرقة الناجية" والتي تقاتل باقي المسلمين لتأسيس دولة إسلامية حقيقية ولتطبيق شريعة الله بالقوة. ولقد قدم "قطب" رؤية أكثر تفصيلاً للدولة الإسلامية الفاضلة، وفي هذا الخصوص، فإن "قطب" على العكس من "محمد عبد الوهاب" قد تأثر بالمفكرين الغربيين، خاصة الفيلسوف الألماني العنصري "كارل شميث". وعلى الرغم من أن "قطب" لم يذكر "شميث" ولو مرة واحدة في كتاباته، إلا أن قراءة متأنية لكتابه "معالم على الطريق" ستكشف أن العديد من أفكار "قطب" وتراكيبه وجمله مستمدة من أعمال "شميث".

وكدلالة واقعية على تحول مسار الإسلام السلفي، فقد قام مرشد الإخوان الملسمين "حسن الهضيبي" الذي يعد نفسه سلفيًا بدحض ادعاءات "قطب" التي وردت في كتابه "معالم على الطريق". وقد انتقد "الهضيبي" تفكير "عبد الوهاب" و"المودودي"، واعترض بشدة على ممارسة التكفير وقال: "إن هذا العمل لا يتفق مع تسامح الإسلام" واستنكر "الهضيبي" أيضًا فكرة أن

المجتمعات الإسلامية بأكملها قد انجرفت لعصر الجهل والظلام عصر الجاهلية، وطبقًا لـ "الهضيبي"، فإن المجتمعات الإسلامية قد أصبحت غريبة أكثر مما ينبغي أو ابتعدت عن بعض القيم الإسلامية، لكن هذا لا يعني أن تلك المجتمعات لم تعد مسلمة. وإن الحل لجميع المشاكل التي تواجه المسلمين إنما تكون عن طريق الدفاع والسعي للإصلاح، لا اللجوء للعنف أو محاولة فرض التغيير بالقوة، وإنه لخطأ جسيم أن نفترض أن المسلمين جميعًا يستحقون القتل أو أن نعتبر أنفسنا في حالة حرب مع المجتمع بأسره مثلما فعل الوهابيون. ولقد ذكر "الهضيبي" أن الحكم السياسي يرجع أمره إلى الشعب، لذا فنظام الحكم الديني لا يتفق مع فكر الإسلام وتاريخه وأخلاقياته. فقد انتقد "حسن الهضيبي" وبشدة فكرة حكم الله، ودفع بأن تلك الفكرة غريبة على الإسلام وأنه يتم استغلالها بشكل خاطئ وأكد أن مفهوم الدولة الفاضلة والتي يكون الحكم فيها لله وحده هي من الناحية الفعلية مستحيلة وساذجة سياسيًا. و"الهضيبي" كان قاضيًا وفقيهًا، ولقد أظهر -حقًا- في كتابه وعيًا ودراية أكبر بالشريعة الإسلامية وبالتالي فهو لم يعتبر تطبيق الشريعة الإسلامية الحل الشافي للمشاكل التي تواجه المسلمين مهما كانت، وإن الشريعة الإسلامية لايمكن تطبيقها دون أن يطور في البداية السياق الاجتماعي.

إن الانتشار الواسع الذي حققه كتاب "قطب"، له دلالته الواضحة. فعلى الأقل، فإن معظم المسلمين قد سمعوا به وهو ما لم يحدث مع كتاب "الهضيبي" الذي سمع به القليلون ولم يطبع منذ زمن طويل ومن الصعب العثور عليه .ومن المؤسف إن كتاب "الهضيبي" التحرري قد كتب بعد انقضاء المرحلة التحررية للسلفية بفترة طويلة، حيث إنه لم يعد يمثل الفكر السلفي، ولكنه مثل فكر "الهضيبي" فحسب. والآن يرفض السلفيون تمامًا فكر "الهضيبي"، كما أنهم يرفضون فكر سلفيي أوائل القرن العشرين التحرريين.

وفي السبعينيات من القرن العشرين تجلى توغل الفكر الوهابي السلفي في فكر المتشددين الجدد من أمثال "صالح سرايا" الذي تم إعدامه في ١٩٧٥ و"شكري مصطفي" (تُوفي ١٩٧٨) و"محمد عبد السلام فرج" الذي تم إعدامه في ١٩٨٢، وقد شكل هؤلاء الثلاثة منظمات قتالية، وقد تم إعدامهم بسبب ارتكابهم أعمالاً إرهابية في مصر، ومن بين الثلاثة فإن "فرج" تحديدًا يعد الأكثر تأثيرًا بسبب كتابه المشهور " الجهاد..الواجب المهمل"، وبالإضافة إلى أن "فرج" هو المدبر الرئيسي لعملية اغتيال الرئيس المصري "محمد أنور السادات" ١٩٨١. فقد نادى في كتابه بشن حملة عسكرية ضارية لاهوادة فيها ضد الحكام الملحدين في جميع بلاد المسلمين، ولقد تمادى "فرج" إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير، إذ من وجهة نظره هو أن ليس الحكام وحدهم الذين يستحقون أن يُعزلوا و يُحاربوا، على أساس أنهم كفار، بل المسلمون جميعًا يجب أن يعاملوا كما لو أنهم قد عادوا إلى حالة تقارب الردة.

إن "فرج" وسابقين له مثل "سرايا" و"شكري" سلموا برؤية "عبد الوهاب" و"قطب" عن مجتمع المسلمين الذي أصبح مضلَلاً وفاسدًا. ولقد أخذوا يحلمون بمجتمع بديل يتحقق فيه الإسلام الحقيقي. وقد كان النشطاء الثلاثة غرباء تمامًا عن المجتمع الإسلامي الذي كانوا يعيشون فيه ورفضوا أدنى ارتباط أخلاقي بالمسلمين الآخرين، لذا، من وجهة نظرهم فإن دولة مثل مصر تعد دولة غير إسلامية تماماً مثل إسرائيل، فمصر وإسرائيل دولتان غير إسلاميتين على السواء ، وبالرغم من أن هؤلاء النشطاء الثلاثة قد اعتنقوا وجهة نظر "قطب" بل وقبلوا فكرته بالانسحاب من مجتمع الكفار، إلا أنهم رفضوا فكرة إرجاء الأعمال القتالية، وعلى العكس، فقد وجدوا نموذج "عبد الوهاب" الذي يعتبر تلك المجتمعات مطرودة وكافرة، وكان يهاجمها ويعاقبها، وجدوا أن نموذج "عبد الوهاب" أكثر إرغامًا، ولذلك وبصفة عامة فإن كثيرًا من المقاتلين مثل "فرج" أقرب فيما يتعلق بمذهبهم بصفة عامة إلى

"عبد الوهاب" منهم إلى "قطب". وهذا تحديدًا هو السبب وراء أن هذا الشكل الجديد للتشدد كان يتناقض مع "قطب"، ففي الوقت الذي انجذبوا فيه لرؤية "قطب" التي تقسم المجتمعات الإسلامية والعالم إلى قسمين، وجدوا أن تفضيل "قطب" اللجوء إلى القوة العسكرية أمرًا مزعجًا للغاية، لذا فقد هاجموا "قطب" وأدانوه، بينما امتدحوا "عبد الوهاب" وجعلوه رجلاً مثاليًا.

وكما استخدم الفقهاء التقليديون لقب "خوارج العصر الحديث" لوصف الوهابيين، فقد أطلقوه أيضًا على هؤلاء المتشددين الجدد وهؤلاء المتشددون مثلهم مثل الوهابيين لا يفعلون شيئًا سوى ازدراء فقهاء الإسلام، لذا فعلى سبيل المثال، قامت جماعة "شكري مصطفي" في عام ١٩٧٧ باختطاف وإعدام "محمد الذهبي" وهو شيخ أزهر ذو مكانة رفيعة، وكان وزير أوقاف سابق. وفكر "شكري مصطفي" يتطابق إلى حد كبير مع فكر "عبد الوهاب" في الكثير من النواحي.

وفي نهاية السبعينيات، مع اختيار الوهابية العقيدة السلفية نهجًا لها حتى أصبحت السلفية عنوانًا للقيم غير التحررية، فإن التيار المتشدد الناتج عن ذلك الاختيار، هو تيار متعصب معارض للعقلانية وعنصري، يضطهد المرأة ويحمل عداءً شديدًا تجاه أي شكل من أشكال الإبداع الفني ويتمسك بالمعنى الحرفي للنصوص. إن جميع الجماعات العسكرية هي بالضرورة متشددة أو سلفية أو وهابية، ولكن ليس بالضرورة أن تكون كل الجماعات المتشددة عسكرية. فلقد اختارت بعض الجماعات المتشددة أسلوب "المودودي" أو "قطب" حيث إنهم اتبعوا الوهابية في نواحٍ عديدة، فيما عدا أنهم كانوا يأملون أن يأسسوا مجتمعًا إسلاميًا حقيقيًا من خلال إجراءات فعالة، ومن خلال الهداية وليس من خلال العنف.

إن غالبية الحكومات المسلمة اتسع صدرها لتقبل وجود حركات متشددة طالما أنها لم تتحول إلى العنف، والاستجابة الفكرية الواضحة لتلك الحركات

المتشددة، فقد وجدت في دول قليلة جدًا، وكان السبب الرئيسي لهـذا الفـشل المتفشي هو امتناع علماء المسلمين ومفكريهم عن مواجهة المصدر الوهابي للحركات المتشددة، خاصة في الثمانينيات والتسعينيات، إذ لم يجـرؤ سـوى عدد قليل من العلماء بخلاف الصوفيين والشيعة على انتقاد سطوة الوهـابيين وتهجمهم على السلفية، ذلك أن انتقاد المملكة العربيـة الـسعودية أو انتقـاد الوهابية يعد أمرًا محفوفًا بالمخاطر ولا تؤمن عواقبه؛ لأن السعوديين بطبيعة الحال، يتحكمون في الأراضي المقدسة ويملكون القدرة على عـدم مـنح أي مسلم في العالم تأشيرة الدخول، ولديهم الصلاحية وأحقية التحكم في الدخول إلى كل من مكة والمدينة، وهذا بالتأكيد يعني أن الحكومة الـسعودية لـديها السلطة في أن تقرر ما إذا كان يجوز للفرد أن يؤدي فريـضة الحـج فـي الأراضي المقدسة أم لا، وتلك الحقيقة هي وحدها التي أدت إلـى أن تكـون للحكومة السعودية تلك المقدرة على التأثير في حياة أي مسلم في العالم. فأي عالم مسلم يجرؤ على انتقاد الوهابية مثلاً، لا يمنح تأشيرة زيارة للأراضـي المقدسة. وبالنسبة للمسلمين الأتقياء فإن هذا الأمر يشكل صدمة عنيفة لهـم. علاوة على ذلك، فإنه بدءًا من أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيـات بـدأت المملكة العربية السعودية في مباشرة حملة منظمة لنشر الفكر الوهابي بـين المسلمين الذين يعيشون في العالم الإسلامي أوفي العـالم غيـر الإسـلامي، والأهم من ذلك كله، أن المملكة العربية السعودية ابتدعت نظامًا عالميًا معقدًا يكافئ ماليًا وبسخاء أولئك الذين يدافعون عن "الفكر الـصحيح"، أو أولئـك الذين يمتنعون ببساطة عن انتقاد الوهابية، ولقد تم توظيف نظـام الحـوافز المالية تلك، للتحكم فيما تقرر دور النشر طباعته أو الـذين تـتم دعـوتهم للانضمام إلى جمعيات مرموقة أو مؤتمرات هامة. ولقد أدى ذلك التفاوت في الثروة بين الدول الإسلامية من ناحية وبين المملكة العربية الـسعودية مـن ناحية أخرى وهيمنة أموال النفط على العالم الإسلامي، إلى أن أصبح مـن

الصعب عمليًا أن يتفوه أي عالم مسلم بكلمة تحمل نقدًا للوهابية. إن العالم المسلم الذي يعار للعمل في جامعة المملكة العربية السعودية يتمكن من جني أموال خلال ستة أشهر أكثر من تلك الأموال التي يمكن أن يحققها من التدريس في الأزهر لعشر سنوات في مصر، وبالمثل فقد كان يحصل الكتاب والأئمة الذين يؤيدون المواقف الداعمة للفكر الوهابي على عقود عمل مربحة ويحصلون أيضًا على جوائز ومنح سخية. وفي أغلب الأحيان تقوم حكومة المملكة السعودية بشراء عدد كبير من نسخ الكتب التي يقوم بكتابتها كتاب موالون للفكر الوهابي، كي تضمن أن يحقق هؤلاء الكتاب هامش ربح كبير وتوزيعًا عاليًا. وفي الوقت ذاته تقوم بابتداع نظام محفز للناشرين كي يقوموا بطباعة أنواع معينة من الكتب. وكان أن قام بعض العلماء المسلمين في فترة الثمانينيات والتسعينيات والمعروفين بميولهم التحررية والعقلانية بكتابة كتب يدافعون فيها عن "محمد بن عبد الوهاب" ويدافعون فيها عن الوهابية، وهذا من أكثر التطورات المنذرة بالخطر، حيث كانوا يصورون الوهابية على أنها أكثر الحركات قدرة على مواجهة تحديات العصر والحداثة. وبصرف النظر عما قد نقوله حول دوافع هؤلاء الكتاب، إلا أنه تمت مكافأتهم وبسخاء لقاء مشاركتهم هذه، على الرغم من أن كتبهم كانت مليئة بالحقائق التاريخية غير الدقيقة تمامًا وأنهم كانوا ينتقون ما يكتبونه.

وفي عام ١٩٨٩ قام فقيه سلفي له تأثيره ويُدعى "محمد الغزالي" (تُوفي عام ١٩٩٦) بكتابة نقد حاد عن تأثير الوهابية على السلفية، فلقد عانى "الغزالي" الأمرين جراء عدم عقلانية وأخلاقية هؤلاء الذين يصفون أنفسهم بالسلفيين وعانى الكثير أيضًا من جميع الحركات المتشددة بصفة عامة. وعلى الرغم من معرفة الغزالي لمدى تأثير الوهابية على الإسلام في الوقت الحاضر، إلا أنه لم ينتقدها بشكل مباشر وصريح بل نعتهم بدلاً من ذلك بأهل

الحديث في العصر الحديث، وانتقد بشدة ما أسماه بالتقيد التام بالحرفية واللاعقلانية وعدم القدرة على تفسير النصوص الإسلامية.

إن مصطلح "أهل الحديث" هو تعبير استخدم عبر التاريخ الإسلامي للإشارة إلى الحركات التي تتقيد بحرفية المعنى والتي تدعي أنها تتمسك بسنّة الرسول (صلى الله عليه وسلم) التي لم تتأثر بتفاسير الإنسان المفسدة ولا العقل، ولقد اهتم أهل الحديث بجمع سنّة الرسول الكريم (صلى الله عليه و سلم) وصحابته وتدوينها ونقلها، وادعوا أنهم ارتكزوا في أحكامهم الشرعية على هذه السنن دون تدخل الإنسان غير الموضوعي.

ففي القرن الرابع/العاشر، كان هناك صلة وثيقة بين أتباع "أحمد بن حنبل (تُوفي عام ٨٥٥ م – ٢٤١ هـ) مؤسس مدرسة الفكر الحنبلي وبين أهل الحديث، وذلك على الرغم من أن أهل الحديث زعموا أنهم لا يتبعون أي مدرسة فكر وأنهم ببساطة يلتزمون فقط بالحقيقة. ولقد كانت تلك الصلة وثيقة حتى مصطلح أهل الحديث كان يستخدم للإشارة إلى علماء المذهب الحنبلي الذين يتقيدون بالمعنى الحرفي للنصوص، ومن الأمور الهامة إنه في التراث الفقهي، فإن أهل الحديث مرادف للجهل والتحجر العقلي ومقاومة التغيير. ولقد كانت تلك الصلة قوية حتى أن لقب أهل الحديث كان يستخدم للإشارة إلى العلماء المفسرين الحنبليين والذين كانوا يتصفون بأنهم متشددون ومتمسكون بالمعنى الحرفي للنصوص، والأهم من ذلك أن لفظة أهل الحديث في التراث الفقهي تمثل الجهل.

لقد أصبحت الطريقة التي يتعامل بها المسلمون السلفيون مع النصوص الإسلامية، طبقًا للإمام "الغزالي" وفي الوقت الذي عاش فيه، شديدة الشبه بالتشبث الشديد لأهل الحديث بالمعنى الحرفي للنصوص في فترة ما قبل العصر الحديث، والتي تناقض كل تيار عقلاني في الإسلام، والإمام "الغزالي" باستخدامه لقب "أهل الحديث" لنعت الوهابيين يلمح إلى جدل تاريخي قديم نشأ

بين ما كان يسمى بـ"صيادلة الإسلام" وبين ما كان يسمى بـ" أطباء الإسلام" وفقًا لقدامى العلماء. إن أولئك الذين يقومون بجمع ونقل التراث أي "أهل الحديث" هم مثل الصيادلة الذين يقومون بتصنيع المواد الكيميائية وحفظها، لكنهم لا يستطيعون تشخيص المرض أو وصف الدواء المناسب، بينما الفقهاء يشبهون الأطباء الذين يستخدمون المواد التي يمدهم بها الصيادلة ولديهم معرفة وقدرة تفوق الصيادلة في علاج الأمراض.

لقد اعتقد "الغزالي" أيضًا في أن أهل الحديث المعاصرين والذين أسماهم أيضًا بالتقليديين يعرفون كيف يقومون بجمع وحفظ الأحاديث، لكنهم لا يعرفون كيفية تداخل تلك المواد مع الأساليب الشرعية للوصول في النهاية إلى الفقه. فالتقليديون (الصيادلة) لا يعرفون كيفية تطبيق طرق الشريعة على المواد بصورتها الأولية للموازنة بين الأدلة المتناقضة والمتنافسة، ولا أن يضعوا أهداف الشريعة في كفة ووسائل تحقيقها في الكفة الأخرى لتقييم المصلحة العامة في مقابل المصلحة الخاصة، ولتحليل التوتر القائم بين القانون والمبادئ، وللموازنة بين مراعاة السابقين وبين متطلبات التغيير، ولفهم أسباب اختلاف الرأي ولدراسة العديد من الحالات التي تؤخذ في الاعتبار عند إصدار الأحكام الفقهية. ويحاول "الغزالي" أن يثبت أن التقليديين لم يتمرسوا على النظرية الشرعية أو الصفات الفنية لأساليب الشريعة، لذا فهم غير مؤهلين لإصدار أحكام شرعية. وفي الواقع وطبقًا للغزالي، فإن التقليديين حين يتعدوا على الفقه ينتهي بهم الحال بالتصرف كرماة للحديث، أي أنهم يرشقون أعداءهم بالأحاديث لأجل إحراز أهداف رخيصة. ولقد اتهم "الغزالي" الوهابيين بأنهم رماة لأحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) ليس إلا. ووصفهم بذلك؛ لأنهم بسبب جهلهم برأي الفقه وأساليبه تعاملوا مع الشريعة بطريقة هوائية وانتهازية، فهم يقومون بالبحث بين الآلاف من أحاديث وأقوال الرسول (صلى الله عليه وسلم) ليجدوا فيها ما يدعم موقفهم

الذي كونوا فكرتهم عنه بالفعل وحددوه مسبقًا. وفي الواقع، لقد قاموا باستخدام التراث الموروث عن سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) بأسلوب تحكمي واستبدادي وبطريقة ترضي أهواءهم الفردية، وذلك كي يقوموا بتعزيز أي موقف يريدون تدعيمه. وكنتيجة لذلك ينتهي الحال بالتقليديين (رماة الحديث) في الخلط ما بين عادات ثقافتهم وما يحبذونه وبين الشريعة الإسلامية، فهم ينتقون الأدلة التي تدعم ميول ثقافتهم ويدعون أن تلك الممارسات الثقافية هي شريعة الإسلام. ولقد أكد "الغزالي" أنه بسبب أن هؤلاء الناس لا يلتزمون بأي أسلوب منضبط ولا بأية مبادئ في تفكيرهم حول الإرادة الإلهية، ينتهي بهم الحال إلى إفساد الشريعة الإسلامية.

ومع ذلك، فإن الغزالي ذهب لما هو أبعد من اتهام أهل الحديث بأنهم تقليديون – وهابيون– بل بأنهم أفسدوا الشريعة، فلقد ألقى باللوم على أهل الحديث في العصر الحديث أو الوهابيين؛ لأنهم بسبب أعمالهم المتعصبة البارزة دنسوا صورة الإسلام وسط العالم أجمع، ويقول "الغزالي" إن أهل الحديث المعاصرين عانوا من العزلة وبسبب سلوكهم المتعجرف صاروا لا يهتمون بنظرة الإنسانية للمسلمين أوالإسلام. فمن وجهة نظر "الغزالي"، أن هذا الموقف المتكبر والمتعصب يقلل من أهمية الفكر الإسلامي ويسلبه قوته وينكر عليه عالميته وإنسانيته. وأضاف "الغزالي" أن أهل الحديث المعاصرين حصروا الإسلام في بيئة مجدبة وقاسية تختفي فيها المعالم الإنسانية الحضارية. ويقول "الغزالي" إن السلفية المعاصرة الواقعة تحت نفوذ الوهابية هي التي كونت الإسلام البدويّ، وهذا يعد إشارة إلى غياب الحضارة الإنسانية، ولقد جادل "الغزالي" في أن السلفيين المعاصرين تحت تأثير الوهابيين قد أقاموا الإسلام البدويّ وقد انتشر هذا الإسلام البدويّ وأصبح له تأثيرًا.

ولقد دافع الغزالي بشدة عن التراث الفقهي في الإسلام، وانتقد بشدة النديه والتجاهل الذي عامل بهما الإسلام البدوي هذا التراث، وتجنب "الغزالي" الدخول في أية مناقشة حول من هم السلفيون الحقيقيون مدركًا تمامًا اللبس الذي أحاط بمعنى كلمة "السلفية"، ولكنه أيّد العودة إلى أساليب العلماء مثل "محمد عبده" و"رشيد رضا"، اللذين كانا من أوائل السلفيين. وبعبارة أخرى، فلقد حاول "الغزالي" إعادة الفكر السلفي إلى أصوله التحررية والمتنورة كحركة إصلاحية ولقد حاول ضمنيًا أن يفرق ويفصل تمامًا بين السلفية والوهابية دافعًا بأن الأخيرة قد أفسدت الأولى.

منذ الثلاثينيات لم يحاول أي عالم مسلم أن يقوم بمثل تلك المهمة، فلقد قام الغزالي بعمل تقييم نقدي متعمق عن حالة تفكير المسلمين مؤكدًا أن فشل المسلمين كان بسببهم أنفسهم وأن فشلهم في الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان والتمدن والدفاع عن سمعة الإسلام في باقي دول العالم لم يكن نتيجة لنظرية عالمية غير إسلامية مضادة لأخلاق الإسلام، وقال إن المسلمين لايجوز أن يتهموا أحدًا لهذا الفشل سوى أنفسهم.

والحقيقة المؤسفة أن المشاكل التي كان "الغزالي" يعرضها كانت أكثر تعقيدًا مما تخيل، فعلى المدى الطويل كان كثير من العلماء المؤثرين صامتين تجاه إبادة الوهابية الجماعية، ومن ناحية أخرى فإن مجال تأثير السعودية كان أكثر اتساعًا مما توقع "الغزالي". فعلى سبيل المثال، كان "رشيد رضا" الذي مدحه "الغزالي" من أكثر الفقهاء تحررًا وإبداعًا في القرن العشرين، ولكنه كان مدافعًا عن الوهابية، فلقد كتب "رشيد رضا" عددًا كبيرًا من المقالات يصور فيها "عبد الوهاب" المؤسس والرائد الأساسي للحركة السلفية، ولكن أفكار رضا التحررية كانت متناقضة تمامًا مع الوهابية، وبعد وفاته كان الوهابيون دائمي الانتقاد لرضا.

وكبرهان مؤكد على تأثير الوهابية على العالم الإسلامي، فلقد منعت السعودية كل كتابات رضا ونجحت في منع نشر أعماله حتى في مصر.

ويعد "محمد الأمير الحسينى الصنعاني" (١٧٦٨م – ١١٨٢ هـ) الفقيه اليمني واحدًا من الكتاب التحرريين الذين نجحت السعودية في جعله يختفي، فقد تُوفي "الصنعاني" مثل "رشيد رضا" بقرن ونصف، ويعتبر مثل رضا رائد المذهب السلفي التحرري، وبالمثل مثل رضا فقد مجّد "الصنعاني" "عبد الوهاب" على أنه مؤسس السلفية وكتب قصيدة احتفالية على شرف "عبد الوهاب". وعلى العكس، فعندما علم "الصنعاني" بالجرائم المرتكبة من القوات الوهابية، رفض أن يكون مدافعاً عن الأفعال غير الإنسانية لعبد الوهاب في قصيدة جديدة، ولو كان الكتّاب السلفيون ساروا على نهج الصنعاني بدلاً من رضا، لاختلف الحال واحتفظت الوهابية بتوجهاتها التحررية، وكان من الممكن أن يتشارك المذهب الوهابي معها، ولو أن السلفية استمرت تحررية لكانت استخدمت للوقوف ضد الوهابية، ولكن ساعد التمويل السعودي في انتشار المذهب الوهابي، وبلاشك، فلم يكن يوجد أي شيء يستطيع القضاء على انتشار التأثير الوهابي.

وبسبب تأثير السعودية الشامل لم يكن من المدهش الانفجار الذي أحدثه كتاب "الغزالي"، وقد أدان الكثير من المتشددين "الغزالي"، وعُقدت الكثير من المؤتمرات في مصر والسعودية لنقد كتابه ونشرت صحيفة "الشرق الأوسط" السعودية عدد من المقالات ترد على "الغزالي" في عام ١٩٨٩. وكإشارة لتأثير السعودية وتناقضها فلقد نشرت معظم الكتب التي تهاجم "الغزالي" في مصر ولم تنشر في السعودية. وكثير من الكتب ادعت أن "الغزالي" لم يكمل تعليمه في "قوانين الإسلام". وإنه من الصعب تقييم إذا كانت الردود القاسية على الكتاب هي دلالة على قلق المتشددين من فقدان قبضتهم على المسلمين بسبب قوة مجادلات "الغزالي". ويعد هذا الهجوم على كتاب "الغزالي" إنذار

واضح لكل عالم مسلم يحاول سلوك نهج الغزالي، إذ من الآمن له أن يلتزم بالمواضيع السياسية العامة ويترك الأمور الوهابية دون النقاش فيها.

تُوفي" محمد الغزالي" عقب الخلافات التي كانت محيطة بكتابه، فأنا عرفت الغزالي وعرفت أنه ناضل كثيرًا من أجل مستقبل الإسلام ومصير السلفية، ولكن جاء كتاب الغزالي ليكون نموذجًا للاحتجاج على تحول السلفية. ففي النهاية كان تحولاً سهّل الكثير من محاولات الكتابات التحررية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وفي الخمس سنوات السابقة ارتدت السلفية عن القوات المعاصرة لأحاديث معاصرة، ولكن تمسكوا بالوهابية، وهذا أدى إلى ميلاد حركة جديدة قاتلة وفعالة ونشيطة وهي الحركة التشددية.

الفصل الرابع

قصة المتشددين المعاصرين

تسير الحركات التشددية مع الأمور حتى نهاياتها المنطقية. فدمج علوم الدين عند الوهابيين مع نظيرتها عند السلفيين ترتب عليه اتجاه معاصر أساسه الإحساس بالعزلة والهزيمة والإحباط، ولم يتم توحيد علوم الدين عند الفريقين على الانعزال عن مؤسسات القوة في العالم الحديث فقط، بل وأيضًا عن التراث والتقليد الإسلامي. إن التشدد في الدين ليس هيئة أو شكلاً نتقمصه، بل هو اتجاه فكري، وليس مدرسة فكر تسير وفق منهج، ولذا فإننا سوف نجد تشكيلة واسعة من الإيديولوجيات المتعددة داخل نطاق هذه الحركة التشددية، ولكن الخصائص الثابتة للمتطرفين هي عقيدتهم العنصرية التي تعوض عن إحساسهم بالهزيمة والضعف والانعزال، بشعور غريزي من التكبر المبّرر ضد الآخر العام سواء أكان هذا الآخر هو الغرب أو غير المسلمين بصفة عامة، أو أولئك المسلمين بالوراثة أو حتى المسلمات من النساء. وفي إطار هذا المعنى، يكون من الدقة أن نصف التوجّه التشددي بـــ "التعصب"؛ لأنهم يرون العالم من منظور موقع الاستحقاق والتميز. وبدلاً من الاعتذارات الخفيفة والتبريرات قام المتطرفون بالرد على انهزامهم وإحساسهم بالضعف باستخدام القوة والعنف، ليس فقط ضد غير المسلمين ولكن ضد إخوانهم المسلمين وبخاصة المرأة المسلمة.

ومن أهم الأشياء التي تميّز المتطرفين عن المسلمين هي:-

١. ما إذا كان النص الديني قد قصد به أن ينظم معظم حركة الحياة.
٢. ما إذا كان علم الجمال وقدرة الإنسان الفطرية يمكن أن تعكس الجمال وتحقق الخير.

ولم يكن من المدهش أن المتشددين قد بالغوا في دور النصوص الدينية وأهملوا دور العامل البشري في تفسير هذه النصوص. إن أصول التشدد وصفت نفسها بأنها الحارس الأمين الوحيد لأسرار الدين. فقد استخدمت نصوصًا دينية مثل القرآن الكريم وأحاديث النبي (صلى الله عليه وسلم) كدرع حماية حتى لا ينتقدهم أو يهاجمهم أحد من الذين يفرضون استخدام المنطق والعقل. فبالنسبة للمتشددين، ليست النصوص الدينية فقط هي التي تنظم جوانب الحياة الإنسانية، ولكن أيضًا تقع مسئولية تحديد المعنى على من كتب النصوص وتبقى مسئولية القارىء دائمًا مقصورة على فهم وتطبيق هذه النصوص على أساس أن المعنى دائمًا واضح. ومن نماذج المتطرفين، إن أسس عوامل التفسير غير المتعلقة بمعرفة وتطبيق الأوامر الإلهية، هي تامة وشاملة ومدرجة في النص. ولذلك فإن علوم الجمال والرؤى الأخلاقية أو خبرات أدوات التفسير تعتبر زائدة وغير ذات صلة.

أمّا من وجهة نظري وبعيدًا عن سلامة هذه النصوص. فإن توجهات التشدديين تعد مهينة تجاه النصوص الدينية. إذ إن تفسيراتهم للنصوص الدينية تعد متناقضة ومنافقة؛ لأنها أعطت السلطة لأتباعها لكي يطبقوا أساليبهم السياسية الاجتماعية، التي تعد محبطة وغير آمنة ومفسدة للنصوص. وفي الواقع، فإنه على الرغم من ادعائهم بالموضوعية، فإن

توجهات التشددين قد ضغطت على النصوص الدينية لتثبت الإحباط السياسي والاجتماعي لمتبعيها. فعلى سبيل المثال، إذا كان أحد مؤسسي الحركة التشددية غاضبًا على الغرب، فإنهم يقرأون النصوص الدينية من جانب يؤيد وجهة نظر عدوانية. وبالمثل إذا أحس هذا الشخص باحتياجه لممارسة العنف والإذلال والإهانة للمرأة، فهم أيضاً يقرأون النصوص من ناحية تسمح لهم بإذلال وإهانة المرأة. وفي كل موقف سنجد أن تفسير النصوص دائمًا يخضع لمصلحة المتشددين ومبادئهم الشخصية. وكان المتشددون يؤكدون دائمًا أنهم تحرريون وعادلون، وإن محاولتهم لفهم النصوص بعيدة تمامًا عن مصلحتهم الشخصية. ولكن هذا الادعاء غير صحيح؛ لأننا دائمًا سنجد تفسيرات المتشددين خاضعة لمصالحهم الشخصية.

وقد وصفت في مكان آخر، ديناميكية الحركة التشددية في مواجهة النصوص، بأنها استبدادية تمامًا وفاشستية، وبصورة ثابتة ودائمة، أصبحت النصوص الدينية سياطًا، مستغلة من قبل فئة معينة لفرض أفكارهم على المجتمع. ولهذا فقد وصف الشيخ "الغزالي" الحركة التشددية بأنها توارثت النصوص الدينية من أجل فرض وجهة نظرها وإسكات معارضيها ووقف أي محاولات للتفكير. وظهر هذا واضحًا من اعتراض المتشددين على مبادئ حقوق الإنسان، ووصفها بأنها اختراعات غربية .إن أتباع المتشددين – خلافــًا للمسلمين المدافعين – لم يعودوا يعتبرون أنفسهم مهتمين بكسب أو ادعاء أن المؤسسات الغربية مملوكة لهم، وتحت غطاء استرداد الإسلام الحقيقي، فإنهم يقيمون الدعوى على أن الإسلام مناقض تمامًا للغرب . ولقد أكد المتشددون للمسلمين أن الغرب سبب للمسلمين فقدان الكرامة، وأكدوا لهم أن ديانتهم قد أصبحت في مرتبة أدنى كما زعموا، ولذلك فقد وُضع المسلمون في صراع مع الغرب ليس له نهاية من أجل إثبات أحقية وقوة

الإسلام، فبالنسبة للمتشددين، فإنه في الحقيقة لا يوجد إلا طريقان في الحياة، الأول: وهو طريق الله أو "الطريق الصحيح"، والثاني: وهو طريق الشيطان أو الطريق الملتوي. ولذلك فإنهم إذا تعاونوا مع الغرب واشتركوا معهم في تطبيق حقوق الإنسان والدفاع عن المرأة والديمقراطية فإنهم بذلك يقعون فريسة لإغراءات الشيطان كما أن المخترعات التي لم يباركها الله تعتبر من البدع.

ولقد آمن المتشددون أن الإسلام هو الطريق الصحيح في الحياة. ولذلك فإنه يجب اتباع هذا الطريق دون النظر إلى آراء الآخرين. وبغض النظر عن مدى تأثيره في الحقوق ومصالح الآخرين. المهم أنه بالنسبة للمتشددين أن الطريق الصحيح والمعروف باسم "الصراط المستقيم" يعني الالتزام الصارم بالقوانين الإلهية أو بالوصايا المعينة التي تفوق أي اعتبارات لمبادئ أخلاقية أو قيم معيارية للأخلاق. وهناك مجموعة أخرى مختلفة حددت ورسمت الطريق المستقيم لله، ولا يوجد مكان في هذه المجموعة من أجل المبادئ الفكرية والأخلاقية. ولذلك فمن وجهة نظر المتشددين فإن الله يتجلى ويُعرف من خلال مجموعة من الأوامر القانونية الواضحة والمحددة التي تغطي كل جوانب الحياة وإن الهدف الوحيد من الحياة البشرية هو معرفة وإدراك القوانين الإلهية التي تغطي كل جوانب الحياة. وعند المتشددين، فإن الله ظاهر ومتجل على خلقه في هذه الحياة من خلال مجموعة من القوانين، وليس أمام البشر خيار إلا الطاعة. ويُصرّ المتشددون على أنه عن طريق الحرفية والتقنية الخاصة بالقانون الإسلامي وحدها، يمكن تحديد وتعريف الأخلاق، وأنه لا اعتبارات أخلاقية يمكن أن توجد خارج القانون الفني. وهذه الفنية القانونية الشرعية للحياة، تعتبر – من حيث الفطرة الأسمى – فوق الطرق الأخرى. ومن يتبع أي طريق آخر يعد كافرًا ومنافقـًا وفاسقـًا.

واستنادًا إلى القوانين الصريحة في القرآن والسنّة، فقد اعتقد المتشددون أنه من السهل التفرقة بين المهتدين والضالين. فالمهتدون هم من يلتزمون بالقانون، والضالون هم من ينكرونه أو يجادلون فيه. وأن أي طريقة للفكر أو عملية يمكن أن تؤدي إلى نتائج غير محددة مثل النظريات الاجتماعية أو الفلسفية، أو أي فكر تأملي، فكل هذا يعد جزءًا من الطريق الأعوج للشيطان. وبالنسبة للمتشددين، فإن من يخرج على قوانين الله في حياته، فإنه يعد – من حيث الفطرة – مخالفـًا لشرع الله ويكون مرتكبًا لجريمة ضد الله ولذا فإنه تجب محاربته أو معاقبته.

والمثير للسخرية هو أن المواضيع السياسية والاجتماعية التي يقترب منها المتشددون ويتعاملون معها هي تلك التي يعتقدون أن مصدرها هو الغرب. وفي الواقع فإن التناقضات التي تتواجد في مظاهر متعددة للحركة التشددية حول هذا الموضوع تتركز في الانفصال. وكما ذكرت من قبل، فلقد رفض المتشددون الدخول في النظريات الفكرية والفلسفية والعلوم الجمالية والفضيلة؛ لأنهم اعتبروها مسائل شخصية جدًا، بل – وأسوأ من ذلك – اعتبروها اختراعات غريبة تعود إلى الضلال. ومع الغالبية من قادة المتشددين، يأتي البعض الذين يدرسون العلوم الطبيعية مثل الطب والهندسة والكمبيوتر، فيضع هؤلاء أنفسهم علانية في الموضوعية واليقين الذي يجيئ من التجربة. ووفقًا للمتشددين، فإن المصلحة العامة مثل حماية المجتمع من السحر الجنسي للنساء، يمكن أن يحقق بشكل تجريبي، ولكن – على العكس – فقد قالوا إن المبادئ الأخلاقية، تكوّن الإنسانية وكرامة البشرية، والحب والرحمة ليست من الأشياء التي يمكن تحديدها، ولذلك فيجب أن تكون جزءًا من القانون الإسلامي الشرعي .ولأن القوانين الأخلاقية بالنسبة للمتشددين تعد بدعة غريبة، فإن المتشددين أهملوا إنجازات المسلمين الأوائل في النواحي

الفلسفية والفنية والموسيقى والنظريات الفكرية والأخلاقية والحب. وأهمل المتشددون حقيقة أنه قبل وجود الغرب قام المسلمون الأوائل بكتابة القصائد الشعرية عن الحب والجمال والفروسية. ولقد زادت تصرفات المتشددين من إحساس المسلمين المعاصرين بالانعزال. وتجاهل المتشددون الادعاء بأن المذهب القائل بأن المعرفة المستمدة من التجربة، تعد اختراعًا غربيًا. وأنا لا أدعي أن تلك المعرفة المبنية على التجربة تعد اختراعًا غربيًا، ولكني أشير إلى أن المتشددين أهملوا الحقيقة في أن المذهب التجريبي وحقوق الإنسان ليست اختراعات غربية ولكنها شيء مشترك بين البشرية.

هناك سؤال لن أتطرق إليه، وهو: هل المتشددون وحركتهم ومفاهيمهم تمجد وتحترم حقوق الله في الأرض؟؟ من وجهة نظري، إن من الواضح أن المتشددين كان لهم تأثير سلبي وسيئ على البشرية وعلى المبادئ الأصيلة في الإسلام.

ويجب أن نلقي الضوء على الإرهاب في العصر الحديث، ومن المهم أن نذكر "ابن لادن" و"أيمن الظواهري" وحركة "طالبان" والكثير من المسلمين المتعصبين الذين ينتمون إلى الحركة التشددية. وعلى الرغم من تعظيم الوهابيين لـــ"ابن لادن"، إلا أنه لم يكن جزءًا من المذهب الوهابي. وقد كانت الوهابية حركة انطوائية، وبالرغم من تركيزها على القوة، إلا أنها استخدمت قوتها ضد المسلمين الآخرين، بينما الحركة التشددية كانت انطوائية وانبساطية في نفس الوقت. فقد حاولت فرض سيطرتها على المسلمين وغير المسلمين. إن الحركة التشددية تعد رد فعل لمعاناة الكثير من المسلمين في العصر الحديث على يد الحكومات المستبدة والمستعمرين. وفي الواقع فقد ردت هذه الحركة التشددية على الإحساس بالضعف عن طريق العدوان

والتعصب من أجل اكتساب القوة. واستنادًا إلى مذهب المتشددين أصبحت محاولاتهم لامتلاك القوة ما هي إلا عدوانًا وعنفًا وتعصبًا.

ومن الخطأ أن نؤكد أن هذه المجموعات التعصبية استطاعت حل مشاكل الإسلام المعاصر. فبعض الحركات مثل "طالبان" و"القاعدة" على الرغم من قدرتهم على ارتكاب أعمال العنف الواضحة، إلا أنهم ظلوا هوامش اجتماعية وفكرية في الإسلام. وبالرغم من ذلك فإن هذه المجموعات تعتبر في الإسلام المعاصر متعصبة فكرياً. ومن وجهة نظري، فإن للوهابية تأثيرًا واضحًا على الحركة التشددية. ومن الواضح أن"ابن لادن" هو نموذج لمسلم خاض تجربة الاحتلال وتأثر بها تأثرًا شديدًا، فهو يعد مثالاً للأحداث الحالية في الإسلام المعاصر. ومعظم الذي يشكل الإسلام اليوم هو مشكّل كرد فعل دفاعي، إمّا أن يكون نتيجة لقيادة تدافع عما يُعتقد أنه الإسلام، وإما أن يكون نتيجة رفض لما يُعتقد أنه غربي. وهؤلاء الذين هم أمثال "ابن لادن" هم ثمرة عدم انسجام عميق واختلال وظيفي. وفي نظري، فإن "ابن لادن" مثل سائر مجموعة المتشددين، إنما هو يقيم حداثة، وهم يدّعون بأنهم ينتسبون للحضارة وهو ادعاء ضعيف على أحسن الأحوال. فهم ثمرة لغزو الحداثة، وهم لا يمتون للإسلام بأدنى صلة، بل ويعتبرون شائبة في العصر الحديث.

إن كل الأنظمة عانت من التعصب الديني ولن تستطيع أن تستثني الإسلام. ولكن الاتجاه الإسلامي السائد استطاع دائمًا الوقوف ضد القوة التعصبية. وقد كان الخوارج جزءًا من هذه الجماعات التعصبية مثل القتلة السفاحين والقرامطة. وبعد قرون من سفك الدماء، تعلمت هاتان المجموعتان الحداثة وواصلتا تواجدهما بأعداد قليلة في شمال إفريقيا والعراق. إن الدرس المستفاد من التاريخ الإسلامي هو أن الجماعات التعصبية قد خرجت على

الاتجاه العام للإسلام، ولقد عاملهم الإسلام على أنهم لا يمتون إلى الإسلام بصلة.

والمشكلة اليوم هي أنّ المؤسسات الإسلامية التي كانت تقف ضد الجماعات التعصبية وتحاربهم لم يعد لها وجود الآن. وهذا ما جعل هذه الفترة الإسلامية من أسوأ الفترات التي مر بها العالم الإسلامي، وهذا أيضًا ما جعل الحركات المتشددة أكثر تهديدًا وخطرًا على الأخلاق والكرامة البشرية والمبادئ الإسلامية، خاصة حين حكم فيها المتشددون مكة والمدينة والعالم الإسلامي.

ومن خلال تدريس الإسلام في مختلف البلاد، سألني الكثير عمّا إذا كان الإسلام قد أمر بالتعصب؛ لأنه يشجع الحركات التعصبية مثل التشددية، حتى أصبح لها هذا العدد الكبير من التابعين وهذا التأثير الواضح في العالم الحديث؟ وإذا كان المتشددون هم جماعة صغيرة منشقة عن الإسلام، فكيف لها أن تتمتع بكل هذه القوة والتهديد في العصر الحديث؟ ويقول السائل: أنا أعتقد أنه من الصعب فهم وجود هذا التعصب والتهديد في العصر الحديث.

ولكن كرد على هذه الأسئلة يمكن أن نقول: إنه توجد طائفة يهودية معروفة بـــ "القرّائية" والتي ظهرت في القرن الثامن. وقد واصلت هذه الطائفة وجودها إلى اليوم ولكن بعدد قليل. وكان المبدأ الرئيسي لهذه الحركة هو رفض عقائد وتقاليد الأحبار والتلمود، وادعت هذه الحركة بأنها تستند إلى التوراة وأنهم يطبقون قوانين الله دون الاهتمام بشئون الإنسان. ولم يكن من المدهش أن قوانين هذا المذهب كانت قاسية وعدوانية. فهذا المذهب يمثل جزءًا صغيرًا من الديانة اليهودية. ولكن ماذا لو تمثل هذا المذهب في مجموعة يهودية قوية واستطاعوا التحكم بأهم المدن اليهودية، فإن هذا

المذهب سوف ينتشر في العالم بأكمله بأعداد كبيرة، وسوف يمضي هذا المذهب في الدفاع عن اليهودية الأصلية.

ولم يكن من المدهش أنه بفضل الحكومة السعودية أصبح للمتشددين القوة والسيادة الواضحة في العالم الإسلامي الحديث. وهناك حقيقة لا يمكن إنكارها، وهي أنه كلما ازدادت مجموعة تعصبية قوة، فإن تعصبها يزداد شراسة، وبالتالي تزداد أعمالها التعصبية. وهذا ما يحدث عندما تتم مساعدة هذه الجماعة من ناحية ثم يتم اضطهادها من ناحية أخرى. وليس غريبًا أن الحركات المتشددة الموجودة في السعودية والتي كان يتم مساعدتها منذ وقت طويل، أصبحت الآن ضد السعودية، إن تنظيم القاعدة والكثير من الاتجاهات الوهابية كانت تريد أن تقهر وتكسر الحكومة السعودية؛ لأنها لم تكن موالية للمذهب الوهابي. وقد كان هناك مؤخرًا هجمات إرهابية على المملكة العربية السعودية والكثير من المصادمات بين الجيش والمجموعات المتشددة. مثل "إخوان"، ففي أوائل القرن العشرين تظاهروا ضد الحكومة السعودية؛ لأن الحكومة فشلت في تحقيق توقعاتهم ومبادئهم التشددية. واليوم تبتز المجموعات التشددية الحكومة السعودية. وفي أوائل القرن العشرين وجدت الحكومة السعودية نفسها تلجأ إلى المساعدات الأجنبية، ولكن هذه المرة كانت المساعدات آتية من الأجانب وليس من البريطانيين، وكانت هذه المساعدات هي محاولات لصد مظاهرات المتشددين.

وبالرغم من أن التاريخ أثبت المحاولات العديدة من أجل صد الغزو التشددي ونار المتشددين التي كانت تحرق كل شيء، متضمنة من كانوا يساعدونها في بادئ الأمر، وكان ذلك من سوء حظ السعودية. إنه ليس من المستحيل أن تعيد المملكة العربية السعودية بناء نفسها. إذ توجد دول إسلامية كثيرة مثل: إندونسيا ومصر وماليزيا، لهم عقائد وتقاليد إسلامية بنيت على

أساس صحيح، ولقد رعت السعودية الحركة التشددية ونشرت مذهبها التشددي لمدة طويلة، حتى أنه أصبح عمل إعادة هيكلة سياسية أمر صعب التحقيق للغاية.

فمن وجهة نظري أن الحقيقة الواضحة في جميع الروايات هي مقاومة الديانة الإسلامية. وبالرغم من مساعدات وإمدادات الحكومة السعودية، وبالرغم من جرائم المتشددين، إلا أن الاتجاه الصحيح للإسلام هو الذي يبقى دائمًا. إن أغلب المسلمين ليسوا متشددين، ولكنهم يمارسون عقائد وتقاليد مختلفة تمامًا عن عقائد ومذهب المتشددين. وعلى سبيل المثال، فلقد حرّم المتشددون جميع أنواع الموسيقى ومنعوا المرأة من البحث عن فرص عمل خارج المنزل. فقصة المتشددين التي يحكيها هذا الكتاب هي قصة ابتعاد تام *عن الاتجاه الصحيح للإسلام*.

والأكثر من ذلك، فلقد كان الاتجاه الصحيح للإسلام مستهدفـاً من قبل المتشددين، فلقد حاول هؤلاء المتشددون السيطرة على الاتجاه السائد للإسلام. ومن وجهة نظري هنا، فإنه يجب على المسلمين المعاصرين أن يتخذوا موقف تحدٍ ومواجهة. وللأسباب التي ذكرناها، لا تستطيع الطبقة الفقهية أن تلعب دورها التاريخي في الإصلاح أو الوقوف ضد المتشددين. إذن فالمسئولية الأولى تقع على المسلمين المعتدلين في الوقوف ضد المتشددين وصدهم، ويجب على المسلمين المعتدلين الخوض في التراث الإسلامي والدخول إلى عقول المسلمين وتذكيرهم بأصول وقلب الدين الإسلامي، كما يجب عليهم إعادة بناء المفاهيم والعادات الإسلامية كما كانت في أول عصور الإسلام، وكذلك يجب عليهم القضاء على المتشددين في الإسلام. وإقناع العالم الإسلامي بأنهم هم الذين يمثلون العقيدة الإسلامية الصحيحة. والتي كانت

موجودة منذ زمن طويل قبل ظهور المتشددين وقبل ظهور ادعاءاتهم بأنهم مصلحو الإسلام.

ولإنجاز أي من هذه الأهداف يجب أولاً على المعتدلين نشر مذاهبهم ومعتقداتهم. وإن هذا الكتاب ليعد المحاولة الأولى في هذا الاتجاه، فبانطلاق مذهب المعتدلين، سيتكاتف جميع المفكرين والعلماء المسلمون في العالم الإسلامي. إن الصدق واحترام الإنسانية هما العاملان الرئيسيان لهذا الإنجاز، ومن وجهة نظري، فإن المسلمين المعتدلين هم الذين يؤمنون *بالديانة* الإسلامية الحقيقية والذين يؤدون أركان الإسلام الخمسة، والذين يقبلون التراث الإسلامي.

إن من يقبل التراث الإسلامي ولا يحاول تعديل أي مبدأ فيه، يعد من المحافظين. ولقد تناولت في هذا الكتاب آراءهم ووجهات نظرهم فقد تقبل المحافظون التراث الإسلامي دون أي تعديل؛ لأنهم يرفضون النظرية التي ترى أن العصر الحديث يتطلب تعديلاً في التراث الإسلامي. إن ما يفصل المحافظين عن المتشددين فارق صغير جداً. فالمحافظون يؤمنون بأنه يجب الالتزام بالعقائد الإسلامية كما هي ولا يؤمنون بأنه يجب تكييف وتعديل هذه القوانين لكي تتناسب مع العصر الحديث. وإني لأعتقد أنه لا يوجد عدد كبير من المسلمين يتبعون المذهب المحافظ. فلم أتناول في هذا الكتاب معتقدات المحافظين، ولكني ذكرت المحافظين فقط من أجل المقارنة وإظهار التناقضات.

لقد كان هناك ميول واتجاهات في الغرب لبعض الكتاب الذين كانوا يكتبون كتبًا عن سبب عدم كونهم مسلمين أو يشيرون بأصابع الاتهام إلى الإسلام؛ لأنهم ولدوا مسلمين، ولكنهم لم يجدوا شيئًا مقنعًا في الإسلام. إن هذه

الفئة لم تمارس أركان الإسلام الخمسة الصحيحة. فما يعرضونه من إعادة بناء الديانة الإسلامية، لا يُؤبه به وليس مهمًا مدى صحة آرائهم؛ لأنهم اختاروا أن يفصلوا أنفسهم عن العالم الإسلامي. فمن الممكن أن يكونوا مسلمين فقط لو كان "بيرتراند راسل" مسيحي، وهو صاحب كتاب "لماذا هو ليس مسيحيًا". ولقد سمى بعض علماء الغرب غير المسلمين هذه الفئة بأنهم المسلمون المعتدلون الحقيقيون. لكن الحقيقة هي أن المسلمين المعتدلين يكرهون المسلمين الذين يعتقدون أن ديانتهم غير معقولة أو هجومية. وبالطبع كانت هذه وجهة نظرهم، فمن السخف أن نطلق على هذه المجموعة اسم المسلمين المعتدلين.. وعلى أية حال، فإن هذا الكتاب ليس عن هذه المجموعة، وبالتالي فلم أذكر وجهات نظرهم ومعتقداتهم.

وهناك مجموعة أخرى لم أتطرق إليها وهي ما كانت تعرف بـــ "المصلحون بالعصا السحرية" ففي العصر الحديث ظهرت جماعات في العالم الإسلامي تضع القوانين تبعًا لمصلحتها الخاصة، وهذه المجموعة لا تهتم في أحكامها بالأدلة والبراهين والتحقيقات. ثم إن هناك ظاهرة في العالم الإسلامي في العصر الحديث، وهي ادعاء بعض الأشخاص بأن لهم الحق في القيادة وتطبيق حقوق الله دون أن يكون لهم أدنى معرفة بمبادئ الإسلام الصحيح. إن هؤلاء "المصلحين بالعصا السحرية" ما هم إلا مهندسين وأطباء وعلماء سياسيين، ولكن ليس لديهم أي معرفة بعلوم وتقاليد الديانة الإسلامية، وبالرغم من معرفتهم الضئيلة بالإسلام، إلا أنهم كتبوا كتبًا عديدة عن الإسلام وعن ماذا يجب أن يكون عليه الإسلام. وقد أطلقوا على أنفسهم "المفتون" (جمع مفتي) الذين لهم الحق في إصدار الفتاوي ودعوا إلى "الاجتهاد". ولم أعط الأهمية في هذا الكتاب لوجهات نظر هذه الفئة التي لم تفهم أن الإسلام لا يمكن أن يُبنى على المصلحة الشخصية. وقد سألني بعض الناس من أين أتت

علومهم هذه، إذ في الحقيقة، إنه من أجل معرفة تامة بعلوم الإسلام يجب على أي شخص أن يمضي على الأقل عشرين عامًا من البحث والدراسة في القانون الإسلامي. فمثلاً لو أن واحدًا من هؤلاء كان يكره النساء، فإن هذا الشخص لا يجوز له أن يصدر قوانين تخص المرأة.

إن المسلمين المعتدلين الذين أتكلم عنهم في هذا الكتاب هم الذين يؤمنون بالله ويحترمون العقائد الإسلامية، ويؤمنون بأن الإسلام يناسب كل العصور وكل الأجيال، والذين لا يعاملون الديانة الإسلامية على أنها معالم أثرية. لقد مجد المسلمون المعتدلون الإنجازات السابقة للمسلمين القدامى، رغم أنهم يعيشون في العصر الحاضر. إن الإصلاحات التي أرادوا تطبيقها ليست ضد إرادة الله ولكنها من أجل التعرف على الإرادة والمشيئة الإلهية مع احترام التقاليد والعقائد القديمة. ولقد آمنوا بالأوامر القرآنية والسنّة، التي تنص على أنه يجب أن يوجد توازن واعتدال من أجل تحقيق الخير في الأرض. وفهموا - أو على الأقل - حاولوا فهم النظرية الإسلامية التي تؤكد على ضرورة وجود توازن واعتدال. ولقد أظهروا اهتمامهم بتطبيق العدالة السياسية والاجتماعية والشخصية، ولقد ذكر أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أكّد أن أهم شيء في الديانة الإسلامية هو الاعتدال. وقام كثير من المسلمين في جميع أنحاء العالم بالتفاعل مع هذه الوصية وتطبيقها، وحاولوا أن يجعلوا أنفسهم مثل النموذج الذي أوصى به الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وهؤلاء هم المعتدلون اللذين سأصفهم أدناه.

وقبل أن أبدأ في وصف المعتدلين وتوضيح الفروق بين المعتدلين والمتشددين، يجب أولاً أن أوضح ما يقبله أغلب المسلمين. فهناك أشياء ومفاهيم توضح معنى الديانة الإسلامية الحقيقية. وقد وصفت النصوص

الإسلامية هذه المفاهيم. وكذلك يجب أن أوضح ما يتفق عليه جميع المسلمين وما يؤمنون به.

الفصل الخامس

"ما اتفق عليه المسلمون"

كما هو الحال بالنسبة لجميع الأديان، فإن للإسلام مجموعة من العقائد والعبادات، تعتبر لبه وجوهره؛ وبها يتميز كدين. ومجموعة العقائد هذه، هي القاسم المشترك الأدنى بين المسلمين، وهي التي تميز وتحدد عقيدة الإسلام. وكأساس لجوهر الدين، فقد تضمن الإسلام مجموعة من الأركان تعرف بالأركان الخمسة. هذه الأركان تعتبر القلب النابض للإسلام، وكثيرا ما أُكّد على أن اعتقادها والتسليم بها – كأركان أساسية للعقيدة – هو الذي يفرق بين المسلم وغيره. وها هي ذي الأركان الخمسة:

١. **الشهادة:** وهي أن تؤمن وتشهد بأن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله. إن الشهادة بالإيمان تعتبر الركن الركين الحاسم والأساسي للإسلام وهو أكثر الأركان أهمية. وقد اتفق العلماء المسلمون، على أن الاعتقاد والنطق بالشهادة يعتبران إيمانا يقينيًا، وعملاً يصير به المرء مسلمًا. والعكس صحيح؛ إذ إن إنكار الشهادة يعني عدم الإسلام. وفي المقام الأول، فإن شهادة الإيمان تعني اقتناعًا قويًا لا يعرف التردد، بإله أحد لا ند له ولا شريك، لم يلد ولم يولد، كما تعني أيضًا، الإيمان بأن محمدًا "ص" هو نبي الله ورسوله، الذي بلّغ – بأمانة – ما أوحي إليه من ربه، وأنه – أي محمدًا- إنما هو بشر لايملك من القوى والصفات ما هو فوق مستوى البشر. هذا الإيمان يعد جزءًا هامًا من العقيدة الإسلامية. لقد كان دور محمد "ص" مقصورًا على التبليغ الحرفي لما جاء به الوحي، وعلى الامتثال الكامل لأوامر الله. إن المسلمين لا يعبدون

محمدًا "ص"، لكنهم يحترمونه ويعاملونه على أنه رسول الله، ويعاملونه كنموذج أخلاقي عالٍ، يُقتدى به في كل الأمور.

ويعتبر هذا، هو المعنى الأساسي لعهد الشهادة، وثمة تفاصيل ومضامين تندرج في هذا العهد، وهي ذات أهمية قصوى للعقيدة. إن بعضًا من هذه العقائد الإسلامية – على الرغم من أهميتها المحورية بالنسبة للدين– إلا أن معرفة الغرب بها، ما تزال – في الواقع – ضحلة جدًا. إن الناس في الغرب كثيرًا ما يندهشون عندما يتعرفون – على سبيل المثال – على علاقة الإسلام بالمسيحية واليهودية. من أجل ذلك فلعله من الأفضل أن ندع القرآن يتحدث عن نفسه، فيما يتصل ببعض من هذه المعتقدات الإسلامية ومن ثمّ، فإنني – فيما يتعلق بهذا الجزء على وجه الخصوص – سأستشهد بكثير من آي القرآن مثلما قررنا من قبل.

فإن القرآن والسنة (أحاديث الرسول الصحيحة) هما من المصادر الأساسية للإسلام، حيث يحتويان على العقائد والتعاليم الخاصة بهذه العقيدة الإسلامية. إن المسلمين جميعًا يؤمنون بالقرآن كلامًا مقدسًا من الله، موحى به للنبي محمد "ص". ومن أجل هذا فالقرآن– بحروفه وكلماته– يعتبر كلام الله الحق الذي لم يعتره أي تصحيف أو تهذيب. وإنه لمن معتقدات الدين الإسلامي أن القرآن كله صحيح غير محرف، لم يهذّب أو يُغيّر أو يُراجع أو يدخل عليه الفساد من أي جهة .. بجانب هذا القرآن المنزّل من الله، توجد طائفة من الأحاديث الشفهية منسوبة للنبي محمد "ص" تعرف بالسنّة. هذه السنّة تحوي وصفًا لسلوك النبي في شتى المواقف والمناسبات كما تحوي – أيضًا – تعاليم وفصلاً في القضايا، كما تحوي توجيهات وأخبارًا كلها منسوب للنبي "ص". وعلى خلاف الأمر بالنسبة للقرآن، فإن مصداقية السنّة مثار جدل يتعلق بمدى الصحة والدقة في نسبة تلك التقارير والأحاديث للنبي "ص" وجمهور المسلمين يعلمون أن شقًا من التقارير والأحاديث قد صُنعت

وبطريقة غير ملائمة نُسبت للنبي "ص"، لكنّ المسلمين يؤمنون بأن الأحاديث النبوية التي مُحّص توثيقها، يجب أن تعامل على أنها صحيحة وملزمة، لا يجوز التنصل منها.

اللغة العربية تشير إلى الإله الذي يؤمن به المسلمون بلفظة "الله" والمسيحيون العرب يشيرون إلى عيسى على أنه "الله" كذلك. هذه النقطة تحتاج إلى تأكيد، فهناك في الغرب مفهوم خاطيء مؤداه أن المسلمين يعبدون إلهًا آخر غير الإله الذي عبده إبراهيم. أو أن لفظة "الله" يقتصر استعمالها على المسلمين. لكنّ المسلمين يؤمنون بأنهم يعبدون إلهًا واحدًا هو ذات الإله الذي تعبده النصارى واليهود. وإنا لنرى في الاستعمال القرآني لعبارة "أهل الكتاب" إشارة إلى أتباع ملة إبراهيم ومعظمهم من اليهود والنصارى؛ (وسبب قولي "معظمهم من اليهود والنصارى" أن القرآن قد ذكر - كذلك - الصابئة على أنهم أهل كتاب، غير أن فقهاء المسلمين توسعوا في استعمال العبارة بحيث يدخل الزرادشتيون والهندوس والسيخ، ضمن أهل الكتاب، بل وقد ضم بعض الفقهاء طائفة "الكونفوشيوس" إلى أهل الكتاب)[2]. وها هو القرآن وهو يوجه خطابه إلى أهل الكتاب ينص على: "قل لهم أي لليهود والنصارى، أننا نؤمن بما أنزل إلينا وما أنزل إليكم، إلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون".

---

[2] لقد قرر وأكد الثقات من فقهاء الإسلام، على أن أهل الكتاب محصورون في اليهود والنصارى، ومن ثمّ، فإن هذه الطوائف التي أشار إليها المؤلف لا تندرج تحت أهل الكتاب، إذ كل هذه الطوائف كافرة أو مشركة أو عبدة أوثان، ولم ينزّل عليهم كتاب يُعترف به كالإنجيل والتوراة، فإن كان لهم كتاب منزّل عليهم من الله فليظهروه لنا. وإذا كان المسلمون يؤمنون بالكتب والرسل السابقين، فلِمَ لا يؤمن أولئك - بالمثل- بالكتاب الخاتم والنبي الخاتم محمد "ص" ويدخلون في الإسلام؟! "المترجم"

وإن من عقيدة الإسلام، أن نعترف بأن محمدًا هو النبـــي الخـــاتم فـــي سلسلة طويلة من الأنبياء من ذرية إبراهيم، كلهم بلّغ البشرية ذات الرســالة ولهذا فإنه يصبح لزامًا على المسلم أن يؤمن بـــإبراهيم وموســـى وعيـــسى وغيرهم كأنبياء مرسلين من قبل ذات الإله الواحد، وكلهم يبلغون نفس جوهر الرسالة،ألا وهي الإسلام. وعلى سبيل المثال، فـــإن القـــرآن يعلـــن الـــنص الإيماني الآتي: " آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَـــالُواْ سَـــمِعْنَا وَأَطَعْنَـــا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ " (سورة البقرة/ آية ٢٨٥).

وكما تؤكده هذه الآية، فإن الله يعتبر كل الأنبياء مـــن ذريـــة إبـــراهيم سواسية وأنهم جميعًا حملوا نفس جوهر جملة العقائد. والفكرة نفسها تُعرض بجلاء أكثر في التنزيل القرآني الآتي، الموجّه للمسلمين: " قُولُواْ آمَنَّا بِاللّـــهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْـــبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّـــنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ." (سورة البقرة/ آية ١٣٦)

إنهم المسلمون الذين أمروا في هذه الآية بأن يؤمنوا بكل الرسل من ذرية إبراهيم على قدم المساواة ودون تمييز. ومهما يكن من أمر، فإنه وفق التعاليم الدينية لدى المسلمين، فإن بعض الأنبياء من ذرية إبراهيم قد بُعثوا لأقوام أو لأمم بعينها، إلا أن محمدًا "ص" قد بُعث بالرسالة التامة المقدسة والدين الخاتم إلى الناس كافة. ويعتقد المسلمون أن مظاهر وأجزاء من الرسالات السماوية السابقة قد غُيِّرت أو حُرِّفت أو عُبث بمحتوياتها، أو أنها قد أُخرجت عن مضمونها وغرضها الأصلي، وقد جاء الإسلام ليصلح ويعيد للرسالات الأصلية هيئتها النقية المعبرة.

والمثال المهم على هذا يتمثل في مفهوم التثليث في المسيحية، فالمسلمون لا يؤمنون بأن عيسى يدّعي بأنه ذو طبيعة أسمى من طبيعة البشر

أو أنه نادى بعقيدة التثليث. إن القرآن ليؤكد ويشدد على طهر عيسى مما يلصق به وعذرية مريم ومعجزات عيسى، ويجزم بأن عيسى قد أُيِّد وأُعين بروح القدس. ويؤكد القرآن على أن أتباع عيسى أخطأوا في فهم تعاليم عيسى أو عرضوها بصورة خاطئة، بادعائهم بأن له طبيعة فوق طبيعة البشر أو أنه ابن الله. من أجل ذلك نجد أن المسلمين يعتقدون بأن عيسى هو نبي آخر من ذرية نبي الله إبراهيم، وأنه مثل موسى تمامًا، وأنه كان يدعو إلى نفس رسالة الإسلام. وفي الآيات القرانية التي تعرضت لذكر عيسى، نجد أنها تعرضه على أنه رسول مسلم بما يعني أن رسالته إلى الناس، هي في لبّها ذات الرسالة التي جاء بها محمد "ص". ووفقًا للقرآن، فإن التوراة والإنجيل (العهد الجديد)[3] كتابان مقدسان نزلا من عند ذات الإله الذي أنزل القرآن. ومن ناحية أخرى، فإن المسلمين يعتقدون أن قوى تاريخية متعددة قد تدخلت، مما أدى إلى أن بعضًا من تلك النصوص المقدسة المنزّلة في هذين الكتابين، قد أصابها التلف من جراء الحذف والتغيير والتبديل.

وبرغم هذا فإن القرآن يؤكد ويجزم بتوفر الوحدة اللازمة لكل الرسالات الإبراهيمية، إذ إن الطريق الأخلاقي الروحي الذي رسمته، يعتبر في أسلوبه الأساسي ذا طبيعة متشابهة، ولذا- وعلى سبيل المثال- نجد القرآن يؤكد على ذلك قائلاً: "شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ". (سورة الشورى/ آية ١٣)

---

3 نحن لا ندري إذا كان العهد الجديد هو ذات الإنجيل أم غيره، وعليه فإيماننا بالعهد الجديد على أنه الإنجيل يتوقف على توثيقه، فإن كان هو ذات الإنجيل الذي نزل على عيسى آمنا به لأنه من عند ربنا، وإلا فلا. "المترجم"

ويقرر القرآن أن ثمة وحدة أساسية – ليس فقط – في التوجيهات النبوية الموحى بها ولكن في الخلق أيضًا، ولذا فإننا نجد القرآن كثيرًا ما يصف الأنبياء – على تعددهم – بأنهم مسلمون، كما يصف الكون والمخلوقات بأنهم أيضًا مسلمون. ووفقًا للقرآن، فإن الموجودات وما نزل من الوحي تشهد على وحدانية الله وعلى وجوب الاعتراف بأن الله أهل لأن نتضرع إليه ونثني عليه ونخضع له ونؤمن به.

٢. <u>الصلاة:</u> يطالب المسلمون بإقامة شعائر الصلاة؛ خمس صلوات أساسية في اليوم والليلة أما بالنسبة للمسلمين الشيعة فهم يؤدون نفس الصلوات الخمس، لكنهم بدلاً من أن يؤدوها في خمس أوقات منفصلة في اليوم، يؤدونها في ثلاثة. والمسلمون مطالبون – أيضًا– بأن يؤدوا صلاة جماعية في المسجد مرة في الأسبوع أيام الجمع، هذه الصلاة تسمى صلاة الجمعة. ويحث الإسلام المسلمين على تأدية الصلاة في المسجد ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

وفي الواقع، فإنه في كل مسجد تقام الصلاة جماعة وفي كل صلاة من الصلوات الخمس اليومية، يحضر الجماعة عدد قليل من المصلين مقارنة بعدد من يحـــضرون لصلاة الجمعة، والرجل الذي يؤمّ المسلمين في الصلاة يطلق عليه لفظ إمام أو شيخ أو عالم.

ولقد شُرعت صلاة الجمعة كي تجمع جمهور المسلمين معًا كي يستمعوا إلى خطبة الجمعة التي تسبق الصلاة. والمفروض في خطب الجمعة أن تتناول الموضوعات ذات الاهتمام المشترك عند عامة الناس غير أن الممارسة الحالية غالبًا ما تركز في الخطب على دروس عامة في الأخلاق دون أن تناقش أي مشكلة معينة قد تكون مصدر إزعاج للمجتمع. وحيث لا رقابة، فإن خطب الجمعة تتحول إلى مناسبات لتعبئة الجماهير وإغرائهم بالعمل على التغيير السياسي. وينبئنا التاريخ بأن خطب صلاة الجمعة، قد اندلع بسببها

الكثير من شرارات التمرد والاحتجاج والإضرابات. بل والعصيان المدني الشامل ضد هذه الحكومة أو تلك.

واليوم تحاول الحكومات في بعض الدول أن تحدد وتملي الموضوعات التي تريد أن تتناولها خطب الجمعة بالمناقشة وفي ختام صلاة الجمعة، يشجع المصلون على أن يشد بعضهم على يد البعض الآخر، وأن يتقابلوا ويتناقشوا في أمور حياتهم، وذلك من أجل توثيق عرى الروابط الاجتماعية بين المسلمين وتقوية الإحساس بوحدتهم.

وفيما عدا الصلوات الخمس المكتوبة فإن المسلمين يُشجعون على تأدية صلوات أخرى غير مفروضة يقومون بها في أي وقت شاءوا من اليوم. وقد يتطوع المسلمون بتأدية شعائر صلوات تؤدي استجابة لمذهب معين يكون قد أوصى بها على وجه الخصوص. أو قد يصلون ويبتهلون إلى الله في أي موقف وفي أي مكان. وقد يكون بعض غير المسلمين واقعًا تحت تأثير انطباع سيئ مؤداه أن المسلمين يعبدون الله - فقط - من خلال مذاهب وطقوس مفروضة، وهذا غير صحيح إذ إن من مبادئ الإسلام أن علاقة العبد مع ربه شخصية ومباشرة. من أجل ذلك، فإنه خلا هذه الصلوات الخمس المكتوبة فإن للمسلم أن يتصل بربه بأية طريقة تتوافق مع متطلبات الطهر والنظافة وكذلك العزة والاحترام.

٣. <u>صوم رمضان</u>: يصوم من كان قادرًا على الصوم من المسلمين شهر رمضان من وقت شروق الشمس[4] إلى غروبها كل يوم وعلى مدى ثلاثين يومًا، وفي الصوم يمسك الصائم عن الطعام والشراب ومباشرة النساء (الجنس)، كما يمسك عن اللغو وعن السباب. إنه شهر يركز

---

[4] الصوم يبدأ وقته من أول طلوع الفجر الصادق، وعلامته ظهور أول شعاع من النور يشق ظلام الليل، إلى غروب الشمس. "المترجم"

المسلمون فيه ممارسة كل أشكال ضبط النفس وترويضها، بما في ذلك الامتناع عن الغضب والغيبة وكل أشكال العادات القبيحة.

ومن المتوقع أن يكثّف المسلمون جهودهم في هذا الشهر، من أجل مجاهدة النفس وقهر شهواتها الشريرة وكل مظاهر ضعفها، وهذا يطلق عليه في المراجع الإسلامية مجاهدة أو محاربة النفس. فإن تناولنا الأمر من زاوية مختلفة، فإننا نتوقع أن يباشر المسلم الجهاد الديني وفقًا لتعاليم الرسول "ص"، وفي هذا الجهاد تطهير للنفس، وتطهير النفس يعتبر أعلى صورة ممكنة من صور الجهاد، وبالإضافة إلى تطهير النفس فإن المسلمين يتوقع منهم أن ينظموا جهودهم من أجل بناء علاقتهم بربهم. إنه يتوقع منهم أن يراجعوا طبيعة علاقتهم الماضية بالله وأن يتولوا ويُصلحوا ما قد يكون قد بدر منهم من أخطاء في هذه العلاقة بالله. زد على ذلك، فإنه يتوقع أن يُذكر الصوم المسلمين بمعاناة الفقراء، وكنتيجة لذلك، فإن المأمول أن يجود المسلمون على الفقراء بسخاء. وفي الحقيقة فإن جانبًا من التزامات المسلمين تجاه أفراد المجتمع، يتمثل في إعداد ولائم عامة، يدعى إليها الفقراء كي يأكلوا، وخاصة في شهر رمضان. إن شهر رمضان يعتبر شهرًا يتضاعف فيه التدريب والتوجيه على مستوى الأفراد والجماعة. ويُشجع المسلمون على الصوم يومين كل أسبوع – ما سَمَحَتْ لهم بذلك صحتهم – على طول العام، وأن يواصلوا تدريباتهم ومجاهداتهم في كل أشهر العام، كي يرتقوا بقدرتهم على التحكم في النفس وضبطها.

٤. **<u>الزكاة</u>:** هذه مجموعة من النسب المئوية (تتراوح ما بين ٢،٥% إلى ٢٠% حسب المزكي ومذهبه[5] يدفعها المسلم من ماله

[5] نصاب زكاة المال من ذهب وفضة وأوراق مالية هو ربع العشر أي ٢،٥% وهناك أنواع أخرى من الزكاة مثل زكاة الزروع والماشية وغيرهما.

للفقير كل عام[٦] وبالإضافة إلى هذا، فالمسلمون مطالبون بأن يعطوا الصدقات كل على حسب ثروته ومقدرته.

إن فرض الزكاة هو واحد من أهم الفروض وأكثرها تكرارًا في القرآن الكريم، وقد حدد القرآن الفئات التي تستحق الزكاة، وهم الفقراء واليتامى والأقرباء المحتاجون وأبناء السبيل والأغراب أوالأحلاف المقيمين مع المسلمين، وأسرى الحرب والأرقاء، والزكاة في هذه الحالة توجّه من أجل تحريرهم من الرق. كذلك فقد استُحسِن كثيرًا تقديم المال لطلاب العلم والعلماء والطلاب من ذوي الحاجة. ولعله من المهم أن نذكر بأن معظم العلماء المسلمين، لم يفرقوا بين المسلمين وغيرهم في العطاء ويدخل في هذا دفع المال لأسرى الحرب غير المسلمين أو لغيرهم ممن يعانون من القهر والرق. لكن المتشددين يصممون على أن تدفع الزكاة للمسلمين دون غيرهم.

٥. **الحج**: فريضة تُؤدى مرة في العمر، يتوجه فيها المسلمون إلى مكة متى كانت لديهم القدرة الصحية والمالية.

ولقد كُتب الكثير حول تبرير الحج وأكثره أهمية هو ما قيل من أن الحج رمز لوحدة المسلمين وتساويهم. كل المسلمين يذهبون إلى الحج في ملابس بيضاء من نوع واحد، ومن ثم فلا تمييز بين الأغنياء والفقراء، الكل يقف أمام الله، جنبًا إلى جنب، فترى الرجال في ملابس إحرام بيضاء متشابهة، والنساء في ثياب بيضاء. إن المناسك التي تؤدى في الحج، لم يُقصد منها التأكيد على وحدة جميع المسلمين فقط، بل - أيضا - على الوحدة الأساسية لكل الديانات الإبراهيمية. إن الطواف الذي يقوم به الحجيج حول الكعبة (ذلك

---

[6] زكاة المال لا تخرج كل عام وإنما تخرج إذا: ١- بلغ النصاب، وهو قد محدد من المال نص عليه الشرع ٢- حال عليه الحول (الحول هو العام). "المترجم"

البناء المكعب المقام في قلب مكة) يجسم طواف الكون وكل الموجودات حول الذات العلية؛ الله.

إن الأركان الخمسة للإسلام تشكل الأساس للعقيدة الإسلامية ووفقًا للفقه الإسلامي، فإنه يجب على المسلمين جميعًا – وكحد أدنى – أن يقوموا بتأدية الأركان الخمسة الواجبة بأمانة وإخلاص، فإنكار ركن من تلك الأركان الخمسة، يخرج المرء من دين الإسلام، وهذا يعني أن المسلم – من حيث المبدأ – يجب أن يقبل الأركان الخمسة كأمور واجبة. وفي الحقيقة فإن القيام بالأركان الخمسة يعد أمرًا آخر، ذلك أنه متى اعترف شخص بالأركان الخمسة كجوهر للإسلام، ونطق بالشهادة، فقد دخل ذلك الشخص في عباءة الإسلام واندرج فيه. إنه لا يوجد خلاف ضخم بين المعتدلين والمحافظين والمتشددين حول تلك النقطة، وإن كانوا – مع ذلك – يختلفون حول ما الذي يحيل المسلم مرتدًا عن الإسلام.

إن الأهداف الرئيسية للأركان الخمسة هي توجيه الناس كي يعملوا بدأب من أجل تنمية العلاقة مع الله، وأن يتربوا على التقوى، وكبح جماح النفس والتواضع، والتأكيد على تقاسم الإخوة بين كل المسلمين. ولإبراز أهمية تقديم العون للآخرين كطريق من طرق عبادة الله. فقد وُصفت الأركان الخمسة بأنها الأساس الذي يقوم عليه الدين، فهي له كالركائز، لأنها تمهد السبيل للطاقة الكامنة في الفرد لبلوغ الغاية في تحقيق ورع النفس الذي هو ثمرة للخضوع لله.

في مناقشة المبادئ الأساسية التي توحّد المسلمين وتمثل العمود الفقري للإسلام، أرى لزامًا عليّ أن أشير إلى أنه من قرون مضت، أَلِفَ عدد لا بأس به من المسلمين أن يعتقدوا أن الإسلام قد بُني على ستة أعمدة لا خمسة. أما العمود السادس فقد لُخص وجُمع في التصريح بأن كل مسلم عليه واجب في أن يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر. ويتفق كل المسلمين اليوم

على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هو واجب ديني مقدس يقع عبئه على كل المسلمين، ولكن هناك نفر قليلون لا يزالون مصرين على اعتباره الركن السادس من أركان الإسلام. هذا الواجب الديني هو في جوهره يُشبه إلى حد بعيد ما كان يؤكد عليه "توماس أكونيوس" من أنه أول مبدأ للقانون الطبيعي يعني أن كل الناس يجب أن يعملوا الخير ويمسكوا عن عمل الشر.

ومع ذلك فالفطرة الإسلامية تتجه إلى ما هو أبعد من النصح بفعل شيء معين أو عدم فعله. إنها - أيضًا - تتضمن التزامات إضافية سياسيًا واجتماعيًا، والمسلم بجانب فعل الخير والإمساك عن فعل الشر أينما وفي أي وقت كان، يتوقع فيه أن يشجع الآخرين على أن يسعوا نحو الخير، وأن يحاول منع الآخرين من فعل الشر. هذا الواجب يمارس على كل المستويات، على مستوى الأسرة، والمجتمع والدولة، فالآباء يجب أن يؤدوا هذا الواجب الديني حينما يتعاملون مع أبنائهم. والأفراد يدينون للمجتمع وللدولة بذات الالتزام، والدولة تدين للمجتمع بذات الواجب المتبادل. وكأمثلة: فعلى مستوى الأسرة، يقوم الوالدان بتأدية ما عليهما من واجب بتقديم التوجيه الأخلاقي الصحيح لأطفالهما وتنشئتهم تنشئة حسنة، وعلى الصعيد الاجتماعي، فإن على المسلم أن ينصح صديقه بالامتناع عن شرب الخمر أو يأمره بالصلاة، أما على مستوى الدولة، فيجب على المسلم أن ينهض بواجبه من خلال قول الحق أمام الحاكم وأن ينصحه بإخلاص فيما يتعلق بسياسات الدولة التي تسبب الجور والمعاناة التي لا داعي لها. هذا ومن المؤكد أنه عند القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجال السياسي، فإن ذلك غالبًا ما يؤدي إلى تضحيات خطيرة، لقد علمنا الرسول "ص" أن كلمة حق تقال أمام حاكم جائر تكون ذات قيمة أخلاقية عالية، فلو أن صاحبها فقد حياته بسبب قولها فإنه يموت شهيدًا.

وعلى الرغم من أن المسلمين متفقون على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هو واجب إسلامي، إلا أن هذا المبدأ الأساسي قد ولد مجموعة ضخمة من المجادلات، وأثار بعضًا من أشد الخلافات حدة بين العديد من علماء الدين وطوائف القانونيين في التاريخ الإسلامي. وليس هذا بالأمر العجيب؛ لأن هذا المبدأ الأساسي قد أصبح ضليعًا في الخلافات حول الشرعية السياسية، دور القانون، طرق التنفيذ القانونية، وشرعية التمرد والعصيان. أكثر من هذا، فإن هذا المبدأ قد أثار عديدًا من التساؤلات فيما يتعلق بحدود التحرك الاجتماعي والسياسي من حيث استخدام القوة في تنفيذ المطلوب، وجوازيّة نصرة الذات، عندما يصادف المرء سلوكًا يثور حوله جدل من حيث خرقه للقانون الإسلامي. والسؤال الذي ارتفع وتواصل الجدل حوله هو: فلنفترض أن الدولة ضعيفة، ليس لها حضور، أو غير راغبة في أن تضع أوامر القانون الإسلامي موضع التنفيذ، فهل شرعية القانون الإسلامي يتم وضعها للتنفيذ عن طريق- على سبيل المثال- الأفراد أو عن طريق رئيس مجموعة صغيرة من قرية أو قبيلة ؟

إنه لمهم أن نؤكد على أن الأركان الخمسة أو الستة للإسلام، لا تمثل كل ما يتفق المسلمون عليه، وأنا- بالتأكيد- لا أزعم أن المسلمين فيما وراء أركان الإسلام- لا يختلفون حول أي شيء آخر. إن سلسلة الأوامر العالية والمباديء، التي يلتف حولها المسلمون عريضة جدًا. فعلى سبيل المثال، إن المسلمين الصالحين يجب أن يوقروا والديهم، يحترمون الكبير، ويحترمون ويعنون بجيرانهم، يشعرون بالفقراء ويعينونهم، يصدقون في حديثهم، يفون بوعودهم، ويمتنعون عن شرب الخمر، أو ممارسة الزنا والفواحش، والغش والسرقة. كل هذه، ووصايا أخلاقية أخرى، تعتبر أمورًا هامة جدًا في نظر الإسلام، وينتظر أن يراعي المسلمون جميعًا هذه الأوامر أو الوصايا، وأن يُشرِبوا أنفسهم حب هذه الفضائل، وإنهم في سيرهم على هذا النحو، يضعون

أمام الآخرين نموذجًا أخلاقيًا طيبًا. لقد ركزت حديثي على الأركان الخمسة؛ لأنها غالبًا ما تُعرف على أنها أساس الإسلام، ولأنه بسبب قبولها مجتمعة، فإنها- أيضًا- تُعدّ العناصر المميزة التي تحدد مفهوم الإسلام.

إن ما يوحد المسلمين هو أمر جوهري حقًا ولكن الطرق التي يُعرض بها أيٌ دين تظهر من خلال الممارسة، وتكون دائمًا متنوعة تنوع علوم النفس والخبرات الشخصية، التي تحاول فهم الدين واستيعاب تعاليمه. والناس الذين يخرجون من بيئات مختلفة سياسيًا واجتماعيًا، سوف يخرجون على تعاليم نفس الدين بأشكال مختلفة ومتعددة كثيرة. وعلى سبيل المثال، فإن أولئك الذين نشأوا في ظل ثقافة استبدادية، سوف يميلون إلى فهم عقيدتهم الدينية من خلال طرق تؤكد على خبرتهم التي تؤيد الاستبداد. ونفس الشيء - من حيث الصحة - بالنسبة لأناس آخرين نشأوا في ظل خبرة ثقافية تقوم على الديمقراطية والتعددية، فإنهم سيميلون لفهم دينهم من خلال طرق تؤكد على التسامح، وحرية الفرد في الاختيار، وعلى حظ أكبر من الحرية للفرد.

أما وقد ناقشنا، ما يعتنقه جميع المسلمين - بصورة عامة - فإنا سنعرّج الآن إلى أماكن حيث يوجد قدر كبير هام من التنوع الإيديولوجي داخل العقيدة، وسوف نركز - بصورة خاصة- على وجهات النظر الإيديولوجية والأسئلة الرئيسية التي تميّز المسلمين المعتدلين من المتشددين. إنه لأمر ضروري أن نلاحظ أنه في معظم القضايا الدينية، حتى تلك ذات الاختلاف الأشد، فإنه يوجد قدر معين من المساحة يلتقي فيه المعتدلون والمتشددون. ويكاد يبرز سؤال ديني، على أساسه يتباعد الفريقان تمامًا دون التقيد بطائفة من الادعاءات العامة والعقائد. وفوق هذا، فإنه ما يزال المعتدلون والمتشددون يؤمنون بنفس الدين، وبنفس الكتاب المقدس، وهم يعلمون ذات المفاهيم الدينية الأساسية. ومع ذلك فإنه على الرغم من تلك الدرجة من اشتراكهما في الإيمان، فإن عقائد المعتدلين والمتشددين غالبًا ما تتباعد بشكل

واسع لأن كلا الفريقين يتقيد بنظرات عالَم هو في الأساس على عدم وفاق معهم، وغالبًا مايرجع الخلاف بين المعتدلين والمتشددين إلى مقدار التركيز الذي تقضي به الأولويات الأخلاقية المبدأية في مواجهة الاعتبارات السياسية الواقعية، أما الخلافات الأخرى فكثيرًا ما تعود إلى مقدار التوكيد الذي يضعه كل فريق على الأهداف الإجمالية للإسلام في مواجهة التفصيلات الفنية الخاصة بالقانون.

في الفصول القادمة، سوف أقابل وأقارن بين نظرة المعتدلين والمتشددين حول موضوعات رئيسية، ليس فقط لأنها تمثل توترات حادة داخل الإسلام، بل لأنها أيضا- مثلما نشاهد في وسائل الإعلام كل يوم- غالبًا ما تكون أساس كل المشاكل التي يتجادل حولها المسلمون والعالم بصورة يومية. وعندما نمضي مع هذا النقاش، فإن المسألة التي يجب أن نضعها نصب أعيننا، هي أنه مع أن المعتدلين والمتشددين عندما يتناولون موضوعًا ما، فإنهما في الغالب ينطلقون من مقدمات منطقية ومفاهيم واحدة أو متشابهة، بيد أنه لأسباب عديدة، نجد أن اتجاهاتهم سرعان ما تفترق ونجد الهوة بين طرق تفكيرهم تأخذ في الاتساع تدريجيًا.

سأبدأ بأكثر الموضوعات أهمية في الدين الإسلامي، وهو – أيضًا – في صميم وقلب معظم الخلافات بين المعتدلين والمتشددين. إنه موضوع الذات العلية – الله – ، والغرض من الخلق والإيجاد. إن فجوة الخلاف بين المعتدلين والمتشددين، تعود إلى خطأ التصورات حول الموجود المقدس- الذات العلية - . وعلى الرغم من أن الفريقين، قد قرأوا ذات الإشارات التي احتواها القرآن حول الإله وحول صفاته، فإن فهمهم الخاص لهذه الموضوعات الهامة، ذات العلاقة بطبيعة الإله، وماذا يريد من خلقه من البشر، وما الغرض من الإيجاد والخلق، وما هي طبيعة العلاقة بين الإله وبين البشر، هذا الفهم لتلك الموضوعات يتباين ويفترق بصورة حادة. وكما

سنرى، فإن هذه ليست خلافات نظرية مجردة، بل تصحبها نتائج واقعية تؤثر في حياة الناس. وإذا ما ابتعدنا عن ذلك، فإن هذه الأسئلة الأولية الأساسية تبقى في قلب المشاكل التي تؤرق حياة المسلمين وغير المسلمين اليوم.

الفصل السادس

"الله والغاية من الخلق"

إن علاقة الفرد بربه هي من أكثر العلاقات فاعلية وأهمية في الإسلام فليس هناك اختلاف على أن الله هو القدوس والمهيمن والأحد والباقي، حيث إن الإيمان بوحدانية الله وكماله وقدسيته شيء أساسي في الإسلام. إن الله تعالى ليس له صاحبة ولاشريك ولاشبيه فهو لم يلد ولم يولد. صفات الله عديدة غير أنه من العدل والإنصاف أن نذكر أن من أكثر الصفات التي ذكرت في القرآن هي رحمة الله تعالى ورأفته.

إن الله هو الرحمن الرحيم اللطيف وهو العفو والمنتقم وهو العدل والشديد العقاب وهو السلام المؤمن وهو الودود المجيد، وهو الجليل الظاهر وأن الله جميل "يحب الجمال" وأن الله هو المغني البديع وهو الخالق وهو مصدر كل شيءٍ حسن وهو المهيمن المانع وهو القدير والعليم.

ويؤكد القرآن على أن البشر لابد وأن يذعنوا لله وينصاعوا لأوامره ويحذرهم الله من الانسياق لنزواتهم، وبمعنى آخر، يجب على المسلمين أن يتفهموا ذات الله على ما هي عليه، لا أن يبتدعوا إلهاً وفق أهوائهم ممَّن ينساقوا وراء رغباتهم الدنيئة. ومن البديهي أن الله تعالى يكون في هذه العلاقة هو العلي والمتعالِ، ولابد للبشر من التقرب إلى الله تعالى بالذلة والطاعة والامتنان.

وهذه مسألة ليست في حاجة إلى إيضاح وأعتقد بأن المتحفظين والمتشددين والمعتدلين يتفقون على هذا، ولكن ماهو الطائل من وراء ذلك؟ وما هي العلاقة بين البشر وخالقهم؟ وما الذي تتضمنه هذه العلاقة؟ وماذا يريد الله من البشر؟ وما هي الغاية الأساسية من طاعة الله؟

إن المتشددين ينظرون إلى العلاقة ما بين الله والبشر على أنها مستقيمة بالقدر الكافي، فهم يقولون بأن البشر ماخلقوا إلا لأجل طاعة الله من خلال العبادة وأن ممارسة الشعائر الدينية هي البرهان الساطع الدال على كمال طاعة الله تعالى، وبهذا يكون الهدف المطلوب هو أداء الشعائر الدينية على أتم وجه. وطالما أن طاعة الله موقوفة على الآداء الصحيح للشعائر الدينية؛ فإن هذه الطاعة لاتكون إلا من خلال الإسلام. وقد يمكن للفرد أن يكتسب فرصة طاعة الله، وتقبل تلك الطاعة من الفرد متى كان مسلمًا.

وفي تصور المتشددين، فإن قواعد هذه الطاعة توجد في الشريعة المقدسة، ولهذا فمن الحتمي أن تكون الشريعة محكمة ومنضبطة في أغلب ماتضمنه من نصوص، ولابد للشريعة من وضع قوانين الطاعة في شكل عبارات دقيقة ومحكمة حتى يتبعها المسلم وينال الإخلاص. ومن خلال الطاعة الشديدة ينجو المسلمون من العقاب في الآخرة ويدخلون الجنة، وبالنسبة لتصور المتشددين تجاه هذه النقطة، فهو قائم تقريبًا على النظريات الرياضية، فالمسلمون ينالون الثواب بأدائهم للطاعة ويقترفون الذنوب بمعصيتهم لله، وفي الآخرة يقوم الله بإحصاء كل الحسنات والسيئات وتحدد الجنة أو النار وفق ميزان النقاط. ولذلك فمن الممكن أن يكون الفارق بين الجنة والنار نقطة واحدة ولقد وقف المتشددون أيضًا على الأحاديث النبوية القائلة بأن الناس في اليوم الآخر سيجبرون على السير على حبل دقيق هو الصراط وبعدها يختل توازنهم ويهوون إمّا في النار وإمّا في الجنة، بينما ينكر المعتدلون مصداقية هذه الأحاديث والتي تجعل مصائر البشر في الآخرة نتاجًا لمعادلات رياضية أو نتيجة نهائية لألعاب بهلوانية تم أداؤها على حبل

دقيق. إن المعتدلين يعتبرون هذه الأحاديث ليست إلا افتراءات[7] تاريخية لاتتفق مع ما جاء

---

(١)

به القرآن. في حين يؤمن المتشددون بصحة هذه الأحاديث من الناحية التاريخية ويفهمونها بطريقة حرفية وصارمة.

ففي عقيدة المتشددين تكون العلاقة مع الله ذات شكل رسمي، فتكون علاقة مابين ما هو أعلى و ما هو أدنى، وفيها يلزم العبد طاعة الله وخشيته حيث أن الخوف من الله هو الذي يحدد التقوى الحقيقية، وبالنسبة لرأفة الله ورحمته فهما موجودان بالفعل فيما أنزله الله تعالى من شريعة حسبما يعتقد المتشددون. وبناءً على أن الشريعة التي أنزلها الله تشتمل على رحمة الله وسماحته فلابد أن تكون هذه الشريعة رحيمة وسمحة حسبما يقضتيه التعريف، ومن وجهة نظر المتشددين فليس للبشر حق في أن يتأملوا أو أن يتفكروا في طبيعة رحمة الله وسماحته أو ما تقتضيه هذه الرحمة والسماحة الإلهية. وإن دراسة الشريعة هي كل ما يحتاج إليه البشر؛ لأن الشريعة هي التي تجسد الرحمة والسماحة على أكمل وجه، فقد وضع الله كل ما تحتاجه البشرية من رحمة أو رأفة في حياتها الدنيوية وقام بوضعه في الشريعة

---

[7] حقيقة الصراط أنه حبل دقيق يضرب على متن جهنم (فقط) ثم يطلب من الخلائق أن يعبروه، فمن آمن وعمل صالحًا اجتازه بسلام، ومن كفر ولم يعمل صالحًا في دنياه، هوى في جهنم. فالسلامة من السقوط رهن بالإيمان، والعمل الصالح الذي قدمه العبد في الدنيا. فاللاعب في السيرك – مثلاً – يمشي على حبل دقيق وهو يمسك بأشياء ولا يسقط؛ وذلك لأنه أعد للأمر عدته وتدرب فنجا، وكذلك المؤمن يمشي على الصراط ولا يسقط؛ لأنه أعد للأمر عدته فآمن وعمل صالحًا. وإذن فالمسألة ليس فيها بهلوانية بل هي عمل وثمرة. ويقول الحق: "وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى (١٢٦) (سورة طه/ ١٢٤:١٢٦)". "المترجم"

الإلهية. لذلك، فإذا ما احتاج شخص ما لخير الله أو للشعور بهذه الرحمة الإلهية، فما عليه إلا أن يلتزم بالشريعة ويتبعها، وبتطبيق الشريعة ينال البشر قدرًا حسنًا من رحمة الله وسماحته إذ من المؤكد أن البشر سيتمتعون برحمة الله وسماحته من خلال اتباعهم للشريعة.

إن التأثير الاجتماعي الفعلي الذي قد يكون للشريعة على الناس يعتبر غير متصل بالموضوع، وعلى الرغم من أن الناس قد يشعرون بأن الشريعة قاسية أو أن تطبيقها يؤدي إلى معاناة اجتماعية، إلا أن هذا الإدراك يعتبر وهمًا. وهذا على سبيل المثال هو السبب في أن "طالبان" كانت وهي في أفغانستان غافلة عن المعاناة الاجتماعية التي سببتها القوانين التي سنتها، وحيث إنهم اعتقدوا بأنه طالما أن القانون إلهي، إذن فلا يهم أن يقيّموا تأثيره الفعلي على الأشخاص الذين طبق عليهم.

وتختلف – من الناحية المادية – نظرة المسلمين المعتدلين للعلاقة مع الله اختلافـًا ملحوظًا من نواح عديدة عن نظرة المتشددين، فهم يوضحون أن الفهم المعتدل لابد وأن يبدأ بالثقة بين الله والبشر، وإن القرآن يصف لحظة خلق البشرية بأنها هي اللحظة التي كان الإنسان فيها منوطًا بمسؤولية بالغة الأهمية، وإن الله قد منح البشر نعمة التعقل والقدرة على التمييز بين الصواب والخطأ وجعلهم مستخلفين أو خلفاء على الأرض.

والله في تصور المعتدلين – أصلاً وأساسًا – معنوي، لكن المتشددين وصفوا الله بأنه غريب الأطوار. فإن الله عدل، ولكن العدالة هي ما يريده الله، وبالمثل فإن الله رحيم لكن الرحمة تكون كيفما أرادها الله، ولذلك وعلى سبيل المثال، فلو حكم الله في اليوم الآخر بطرد كل النساء أو كل القوقازيين من رحمته بغض النظر عن أفعالهم فسيكون هذا – ببساطة – عدلاً وخيرًا؛ لأن الله قد أراد هذا.

لكن المعتدلين يرون ذلك مستحيلاً في حق الله، إذ إن الله أخلاقي معنوي بمعنى أن الله يشترك مع البشر في المعيار الموضوعي للصلاح والأخلاق والجمال. وتحقيق الحضارة والمدنية ليس في بناء منشآت أو رصف طرق، بل يعني نشر العدل والرحمة والرأفة والحسن والجمال على الأرض. وبالفعل فإن هذا ينشر الهداية الإلهية على الأرض، وعلى العكس فإن نشر الفساد في الأرض والعنف والتعصب والانتقام والقبح يعني الفشل في الوفاء بما على الفرد من التزامات تجاه الله. والقرآن الكريم يعلمنا أن التخريب ونشر الفساد في الأرض، هو واحد من أخطر الذنوب وأشدها خطورة. وفساد الأرض يتمثل في السعي لتشويه ما للمخلوقات جمال، وهذا يعد إساءة بالغة الخطورة تجاه الله. ولقد وصف الله هؤلاء الذين يفسدون في الأرض بتدمير الحياة والممتلكات والطبيعة، بالمفسدين ومرتكبي السوء، ألا إنهم بهذا يعلنون حربًا ضد الله بتفكيكهم للبنية الأساسية للوجود.

ففي الوقت الذي استخلف الله فيه البشر على الأرض، أوكل إليهم عبء إقامة الهداية، بنشر الصفات التي تؤسس الجوهر والتي تعد المكون الرئيسي للهداية. وكلما كانت الأرض مليئة بالعدل والرحمة والسماحة والجمال، فستكون أقرب لما ينشده الله من الكمال، وكلما تخلل الفساد الأرض، فستكون أبعد ما تكون عما يريده الله من الهداية.

إن الهدف من نعمة العقل التي أعطيت للإنسان هي تحرّي معنى التقوى وتحري طبيعة ما هو ضد لها. ولقد كلف الله المسلم بالتزامات أساسية ومقدسة وهي: وجوب أن يفرض الخير وأن يحظر الشر وأن يقوم بالشهادة لله عند طلبها، ولا يختلف المحافظون والمتشددون والمعتدلون حول التزام كل مسلم بهذا. إن فرض الخير وحظر الشر يعني عند المتشددين تطبيق الشرع، ثم أداء الشهادة يوم القيامة بأن معظم الخلق رفضوا الخضوع، أمّا المعتدلون فقد اعتقدوا أن فرض الخير ومنع الشر يفرض على المؤمن التزامًا

بالتحّري عن طبيعة الخير وطبيعة الشر، كما يفرض أهمية وجوب التحري عن طبيعة التقوى وعن غيابها؛ لأن التزام الخير وفرضه يعد جزءًا وقسمًا أساسيًا من واجب تعمير الأرض ومقاومة انتشار الفساد، لكن فرض الخير وحظر الشر- بقدر المستطاع - يعد إلزامًا مستمرًا ودائمًا لتحري طبيعة التقوى ومحاولة جعلها جزءًا من الواقع المعاش على هذه الأرض، فالبشر لن يستطيعوا أبدًا الوصول إلى الكمال الذي فرضه الإله، لكنهم يجب عليهم السعي بلا هوادة لتحقيق خواص التقوى. وما يعنيه حمل الشهادة وتأديتها بالنسبة للبشر، هو أن المسلمين عليهم واجب وعبء إضافي أعظم، ويجب على المسلمين أن يكونوا قدوة لسائر البشر في دأبهم وإصرارهم على الوصول إلى ماينشده الله من الكمال الإلهي. فلو فشل المسلمون في أن يكونوا قدوة في تحريهم العدالة والرحمة والسماحة والجمال، فإنهم بهذا يكونون قد فشلوا في الوصول إلى الله.

وفي الفكر المعتدل فالله عظيم جدًا وأكبر من أن يكون مجسدًا في دستور الشريعة، صحيح أن الشريعة تساعد المسلمين في البحث عن التقوى، لكن التقوى لا يمكن مساواتها بالشريعة. إن الهدف الأسمى من الشريعة هو تحقيق التقوى الذي يشمل العدل والرحمة والرأفة، ولن يسمح للصفات التقنية بتدمير أهداف الشريعة. ولذا، فإن كان تطبيق الشريعة سيترتب عليه جور ومعاناة وبؤس، فهذا يعني أن الشريعة قصرت عن تحقيق أهدافها، وفي مثل هذا الموقف فإن هذه الشريعة تكون قد أفسدت الأرض بدلاً من أن تصلحها. وباختصار، فإنه ما نتج عن تطبيق الشريعة ظلم أو معاناة أو شقاء، فلابد من إعادة تفسيرها وإيقاف تنفيذها مؤقتًا ثم إعادة صياغتها اعتمادًا على ما تعنيه الشريعة محل السؤال.

ويتفق المعتدلون مع المتشددين في أن طاعة الله تعد واجبًا محوريًا لسائر البشر فرادى وجماعات؛ لأنه - فقط - من خلال طاعة النفس لخالقها

يستطيع الفرد أن يحرر نفسه أو نفسها من شهواته أو شهواتها الدنيوية والزائفة حيث أن الخضوع لله يعني رفض الخضوع لأي شخص أو أي شيء. إذ بالنسبة إلى المسلم، فإن خضوعه والسيطرة عليه عن طريق قهر أحد له يعد – أساسًا – أمرًا شاذًا في جانب واجب الخضوع لله وحده. والإرادة الإنسانية الحرة لا يمكن أن تسلم أو تذعن لأي شخص إلا لله. والمسلم مأمور ألا يجعل أحدًا سيدًا عليه إلا الله.

وعلى الرغم من ذلك فإن الخضوع عند المعتدلين يختلف عنه عند المتشددين من حيث فكرتهم عنه من عدة وجوه هامة، فالمعتدلون يميزون بين درجات الخضوع، إذ من الممكن أن نطيع الله دون أن نخضع له، وأن تنفذ أوامر الله على حين أن تبقى أنانيًا نرجسيًا. وبمعنى آخر، فإنه من الممكن أن تطيع الله لأي سبب كان، بينما اهتمامك بالله قليل. وبينما أنت مدفوع بتحقيق مصالحك الذاتية ودون أن تنمي أي ارتباطات وجدانية بالله، ودون أن تعبأ باستثمار الوقت والجهد في محاولة التعرف على الله عن طريق التفكير الدائم فيه. وإن طاعة الله خوفـًا من عقابه أو رغبة في جزائه، يبقى الفرد ثابتًا دائرًا في فلك المنفعة الذاتية وزيف العالم الطبيعي الدنيوي. فلو كان هذا هو الذي يظهر طاعة الله فهو إذن أمر شكلي وسطحي؛ لأنه لم يحاول أو حتى يسعى لدمج الطبيعة السامية لله في نفسه كي يكون هاديًا له في حياته. وأن تخضع لله بطريقة أصيلة ذات معنى، يلزم أن تسمو بنفسك إلى كل ما هو راقٍ وسامٍ وأن تقهر العالم المادي الزائف وأن تسعى إلى الاتحاد مع الجمال المطلق، وما دام الفرد يجاهد من أجل أن يطهر وينقي نفسه، فهو عندئذ يكون مشغولاً بما يعرف بالجهاد الباطني (جهاد النفس) ويجاهد من أجل أن يعرف نفسه ويعرف ربه، وبهذا يكون قادرًا على بلوغ أعلى درجات الخضوع.

وبالنسبة لمذهب المعتدلين، فإن الخضوع لله من خلال الخوف والطاعة يعد شيئًا بدائيًا ويمكن القول بأنه مرحلة عادية للطاعة، فالخضوع لله من خلال الخوف منه يعني أن علاقة هذا العابد بربه علاقة ضعيفة، فمثل هذه العلاقة تحكمها المنفعة الذاتية والرغبة الفطرية لاجتناب المضرة وجلب المسرة. وفي اعتقاد المعتدلين فإن الإسلام لله يعني أن يكون لديك مع الله علاقة تتسم بالصدق والثقة المطلقة في الله. إن الإسلام يعني تسليم النفس، ولكن الإسلام في اللغة يعني نوعًا خاصًا من الاستسلام، إنه استسلام يكون فيه الفرد في طمأنينة وسلام تام مع الغاية من التسليم، فإن فاعلية هذا التسليم هي أن تعرف الله وتبحث عن تقوى النفس. والإسلام لله يكون – فقط – ذا معنى إذا ما جاهد الفرد لقبول وإعادة إنتاج أنواع الأعمال التي تجعل الله هو الجدير بشكرنا. وهذه الأنواع من الأعمال هي نفسها التي كلف الله البشر بنشرها على الأرض وهي العدل والرحمة والعفو والجمال.

إن المرحلة الأساسية في هذه العملية هي أن تحب الله لما هو عليه من صفات الجلال والجمال:

<u>أولاً:</u> لقد بيّن الله تعالى في القرآن بصفة دائمة ومؤكدة أصناف الناس الذين يحبهم، إن الله تعالى يحب العادلين والمقسطين والمنصفين والرحماء والعطوفين والعافين عن الناس المتطهرين وهكذا. وفي ذات الوقت نجد أن القرآن قد كرر أن الله لا يحب المعتدين والظالمين والقاسية قلوبهم والذين لا يصفحون عن الناس والخائنين والكاذبين والجاحدين للمعروف والمتكبرين إلخ... وفي هذا خطاب لأصناف الناس، من يحبهم الله ومن لا يحبهم بسبب أفعالهم بغض النظر عن كيفية شعورهم تجاه الله. ونجد في هذا المثال الأول أن ما يجلب حب الله هو أفعال وصفات معينة تعجب الله، فالله يحب هؤلاء الذين يتصرفون وفق نهج معين أو يمتلكون صفات معينة وحتى لو كان بعض من هؤلاء الناس يبغضون الرجوع إلى الله.

ثانياً: هؤلاء الذين لديهم علاقة حب متبادلة مع الله وطوال العرفان بالجميل، فإن المرء سيحب ربه للطفه وسماحته ورحمته ورأفته وجماله. وفي الامتنان الحق يكون الحب هو الإحساس الوحيد الملائم، ويصف الله نفسه بأنه أهل لهذا الحب وجدير به، ويعطي عهدًا لهؤلاء الذين يحبونه بأنهم في المقابل سيلقون منه حبًا، ومعنى أن تحب الله هو أن تحب كل مايحبه الله وتكره كل ما يكرهه الله. وفي اصطلاح الأحاديث الإسلامية تصبح رغبات الفرد وأهواؤه وفق الرغبة والمشيئة الإلهية، وعلى هذا، فإنه لكي نحب الله بإخلاص وبحق، لابد من أن نتوجه إلى صفات معينة وأن تكون لدينا الرغبة في التحلي بها مثل العدل والرحمة والرأفة والمساواة والصفح والطهر، وكذلك الأمر بالنسبة لأضداد تلك الصفات، فيجب ألا يحب المرء ما يراه الله مكروهًا مثل العدوان والظلم والقسوة والغدر والخيانة والغرور وغيرها.

وأعلى مرتبة من إسلام الوجه لله هي أن تحب الله أكثر من أي شيء آخر، بل أكثر من نفسك. وبالنسبة لمن ينالون تلك المكانة السامية من حب الله بصورة مطلقة وعلى أكمل وجه، فإنهم يصبحون أحباء الله ويمنحهم الله حسن الإدراك والحكمة والرأفة. إن محبة البشر لربهم تعني بالضرورة حبهم لكل خلق الله، إذ لا طائل من أن تحب الله بينما أنت تكره خلقه. وحتى يكون حبك لله صادقًا فلابد من أن تحب كل البشر سواءً أكانوا مسلمين أم غير مسلمين، كما يجب أن تحب كل الكائنات الحية وكذلك كل ما لله من صفات، وحب الله بصدق يستوجب أيضًا أن يمقت الفرد تخريب ما خلقه الله. أما هؤلاء الذين ظفروا بتلك المكانة السامية، أعني كونهم قد صاروا أحباب الله، فستكون قلوبهم مليئة بحب العدل مليئة بالرأفة مليئة بحب الجميع. وبهذا أقر كل العلماء القدامى إنك إذا رأيت إنسانـًا يتملكه الغضب والاستياء والكره والقسوة تجاه البشر أو الحيوانات أو الطبيعة، فاعلم أن حب الله لم يدخل قلب

ذلك الإنسان، وباختصار إنه لمن المستحيل أن تحب الله أو أن يحبك الله دون أن تتجلى خصائص الهداية الإلهية فيك.

وهناك وجه آخر مهم بالنسبة لهذة العلاقة الإلهية وهو فكرة المشاركة، فالمتشددون لا يضعون الله أمام أي عاطفة مثل الحب، ولأن الله هو الآمر الناهي، فإنه يكافئ الطائع ويعاقب المسيئ. ويؤكد المعتدلون على النص القرآني الذي يُذكر الناس بقرب الله منهم، فالله هو الحى المتصل بخلقه دائمًا، وفي الواقع، فإن القرآن يوضح أن عناية الله تتدخل كثيرًا لإنقاذ البشر من عاقبة خطاياهم، حيث إن القرآن يؤكد على أنه، لولا فضل الله ورحمته لهدّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله (الصوامع هي أماكن العبادة للنصارى، والبيع هي أماكن العبادة لليهود) بسبب جهل الناس وتطبيقاتهم. والقرآن – أيضًا– يقرر أن الله يتدخل برحمته لإخماد نيران الحرب وإنقاذ الإنسانية من حماقاتها. إن الاعتقاد بأن الله يتدخل بين البشر ويحول بينهم وبين ما يريدون من تدمير بعضهم البعض بالحروب وأشكال العنف الأخرى، يعد ذا أهمية رئيسية لفهم الصفات الإلهية السمحة في الإسلام، حيث إن الله هو المغيث والمعين لكل البشر.

ثم إن هناك حديثـــاً مشهورًا يعلمنا أنه إذا ما تقرب الإنسان من الله خطوة واحدة، يقابلها الله بعشر خطوات، ومن هذا المنطلق يعتقد المعتدلون بأن علاقة الله مع البشر ليست – ببساطة – مقصورة على الحساب، بل هي بالأحرى قائمة على الحب، ذلك أنه إذا سعى البشر إلى الله وطلبوه، فإن الله يسعى إليهم ويطلبهم. والأكثر أهمية من ذلك هو أن هؤلاء الذين يجاهدون وصولاً إلى التقوى ثم يصلون إلى حب الله من خلال شكرهم له، فإن الله يبادلهم حبًا بحب، بل من خلال الحب يصبح الوصال مع الله ممكنًا، وتكون المشاركة مابين الخالق والمخلوق.

وفي حديث مشهور، يُروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) بأنه قال فيما معناه "من يعرف نفسه /نفسها يعرف ربه /ربها". وبالنسبة للمعتدلين، فإن هذا الحديث يعد ذا أهمية قصوى في تحقيق الوصال مع الله، وإنه – فقط – بمعرفة النفس التي تتحقق بالتأمل الناقد للنفس وبمجاهدة شهوات النفس ونزواتها الدنيوية، يستطيع الفرد بمصداقيته وأمانته التعرف على من يعبده. من الممكن أن يظن الإنسان بأنه /أنها قد عبد وأسلم وجهه لله، ولكن عندما ينقد الإنسان نفسه ويجاهدها باستمرار، فسوف يتبين له أنه في الواقع لم يكن يعبد ولم يخضع إلا لنفسه/ لنفسها. وإنه لمن الضروري أن ينتقد الإنسان ذاته وأن يعرفها لينجو من أنانية النفس المخادعة التي تؤدي إلى الحب الأعمى للذات. أما بالنسبة للمعتدلين، فإن من أسوء صور خداع النفس أن ينزلق المرء إلى شرك عبادة الذات، بينما يظن أنه يطيع الله. إن النفس إن لم تهذب بالفحص الناقد، فمن الممكن أن تخدع الإنسان بأنه يعبد الله ويتخذه ربًا، بينما هو في الحقيقة يعبد هواه، ويجعل ربه الحقيقي الذي يعبده ويستلهم نصحه هو الهوى والنزوات التي غالبًا ما تتركز حول الذات مثل الإحساس بالرقي وحب الكسب المادي والانغماس في السلطة والهيمنة على الآخرين وفي حالات شاذة يكون من الممكن أن يصبح المرء مستعبدًا وأسيرًا لهواه وأن يخضع لرمز الشر الخالص والمصدر الحقيقي للفساد والقبح الكامل على الأرض وهو الشيطان نفسه. لهذا يؤكد القرآن على أنه في حال الغفلة ونسيان النفس يكون نسيان المرء لربه. وغالبًا ما يكون العكس صحيحًا، فحين ينسى الناس ربهم الحق، ينسون أنفسهم بأن يتظاهروا بما ليس فيهم، ويطلبون أخذ ماليس من حقهم أو ما ليس مقررًا لهم.

إن عملية الفحص الناقد والتعرف على النفس تُمكن الشخص من أن يتأكد من الهدف الحقيقي للإذعان لله ومعرفة وحدانية الله. إن تلك العملية الناقدة، تعد ضرورة في بناء الصلة بالله، لكنها أيضًا عند القيام بها تعد مسالة خاصة

وشخصية. وعلى خلاف المتشددين، فإن المعتدلين يُصرّون على أن هذه العملية من التطهير والتهذيب للنفس فعالة جدًا وهي تقع بأكملها في نطاق علاقة الفرد الخاصة مع خالقه، ولا يستطيع أن يقدرها أو يحكم فيها إلا الله وللفرد أيضًا حكم فيها وتقدير. وفي المفهوم المعتدل، فإنه ليس من حق أي فرد أن يحكم على أحد بأنه يعبد الله الواحد الأحد بصدق وإخلاص، أو أن ذلك الشخص لا يعبد، بل يتخذ مع الله شريكًا. وهذه النقطة تعد بالغة الأهمية؛ لأن – كما سنذكر– المتشددين مثل "محمد بن عبد الوهاب" اعتادوا على اتهام المسلمين باتخاذ شركاء مع الله، بما يعني القول بطريقة غير مباشرة بأن المسلمين لا يعبدون الله الإله الواحد، بل يعبدون أشخاصًا أو أشياء أخرى. وكنتيجة لذلك، فإن الاشتغال بممارسة التكفير تقع بأن يقال للمسلم أنت وثني أو مشرك أو مرتد أو ملحد، ولقد استطاع "عبد الوهاب" والمتشددون معه أن يبرروا بهذا العمل قتل العديد من المسلمين. أمّا بالنسبة للمسلمين المعتدلين فليس لأي فرد أو مؤسسة الحق في الحكم على تقوى شخص ما أو تقييم مدى قرب شخص بعينه إلى الله أو عدم قربه، وفي هذا الشأن يعتمد المسلمون المعتدلون على التعاليم النبوية التي تؤكد أن الناس يجب ألا يكونوا متكبرين لدرجة ادعائهم بأنهم على علم بما يخفيه قلب المرء أو ما تكون عليه سريرته. ولقد أكّد النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) على وجوب أن يلتزم أولئك الذين على حق بالسير وفق الشكل الذي يتسق مع معتقداتهم الراسخة. وإنه لمن النفاق أن يدعي الناس أنهم يؤمنون بالإسلام ثم يسلكون طرقًا لا تتماشى أساسًا مع تعاليم الدين. وأيضًا فلقد حذر النبي (صلى الله عليه وسلم) المسلمين في أحاديث عديدة من لا أخلاقية سوء الظن بالآخرين والادعاء كبرًا بمعرفة كيف وماذا يضمره الله لشخص معين. أكثر من هذا، فإن الله في خطابه للنبي (ص) في القرآن كرر عليه أنه مابعث إلا لتبليغ الرسالة ولم يبعثه للسيطرة أو الهيمنة على الناس، وعلى نحو ذلك من التأكيد، نجد القرآن

يقرر أنّ رسول الله – ذاته – ليس لديه الحق في ادعاء معرفة ما تخفيه قلوب الناس. ولقد أرشد القرآن النبي (صلى الله عليه وسلم) مرارًا بأن كل هذا يرجع إلى الله وحده لا إلى النبي، وأنه ليس للنبي أن يعفو عمن يريد أو أن يعاقب من يريد، وأن الله أيضًا هو الذي يهدي من يشاء ويقرب أو يخالل من يشاء (أي يتخذ عبده خليلاً مثلما فعل مع سيدنا إبراهيم "عليه السلام")، وحين يبلغ النبي (ص) رسالة ربه على الوجه الأكمل، فإنه بذلك يكون قد أنهي مهمته وبلغ رسالته.

إن معرفة النفس مهمة في إقامة الوصال مع الله، وفي مجال آخر مهم، نجد المسلمين المتصوفين ذوي التوجهات الروحانية في الإسلام يؤكدون على أنه إذا ماعرف الشخص نفسه/نفسها، فعندئذ ستتكشف له الحقيقة في أن ما بداخله ليس إلا الذات الإلهية. وأنه من خلال التذكر والذكر الدائم لله ومن خلال الأعمال الروحانية المضنية سيكتشف الناس أن مابداخلهم هو مادة مستنيرة ذكية متأصلة فيهم تجعل لهم الاتصال بالله أمرًا ممكنًا للغاية. بيد أن المسلمين المعتدلين لديهم وجهة نظر مختلفة تدور حول التأكد. فبالنسبة لهم فإن المسألة ليست منصبة على أن الذات الإلهية بداخل النفس حقًا، إذ المسألة هي بالأحرى في نقطة تدعيم سلامة واستقامة ذات الفرد، وتفرد ووحدانية الذات العلية، وبفعل هذا فإنا نصون كمال الاتصال بين العبد وربه (من المعروف أن الله واحد لا شريك له).

وفي مسلك الفرد إقامة صلة مع الله، فهناك واحد من أسوء المخاطر وهو أن الفرد سيخترع ويشكل ماهية لله وفق تصوره/ تصورها الخاص، وبذلك يتــطاول على الذات العلية. وإن القرآن يحذرنا باستمرار من خطر تحــويل الله إلى شكــل مستحكم بدلاً من كونه مصدرًا قويًا للسموالأخلاقى[8].

---

[8] تنزه الله عن المثل والشبيه والجرمية، وفي ذلك يقول الحق:"ليس كمثله شيء وهو السميع البصير" "المترجم"

إنه بدون استبطان للذات أي فحصها، لايمكن معرفة النفس، والتعرف على النفس ضروري إذا أراد المرء تجنب مخاطرة تحويل الله – من خلال تقدير النفس وإسقاطاتها – إلى ما يتفق مع رغبات النفس وأهوائها بدلاً من أن يكون الله هو الذي يرتقي بالناس إلى السمو الأخلاقي؛ لأنه من خلال الإسقاط يتحول الله إلى قوة تبرر أية حماقات يريد الإنسان أن يرتكبها. وعند إعادة شرح لغة القرآن من خلال مظهر التقوى فيجب ألا يكون الله ختمًا يوضع على معاصي الناس وزلاتهم وكأنه يبررها.

وإليك مثال من العصر الحديث يبين هذه النظرية، فعلى سبيل المثال، حالة القتل دفاعًا عن العرض، ففي مثل هذه الحالة فإن الشخص الذي يعول أسرة و يرتكب جريمة القتل دفاعًا عن عرض أسرته، لايشعر بالندم أو الخجل؛ لأنه قد أقنع نفسه بأن قتله لأخته أو ابنته هي مشيئة الله، وعلى هذا فهو يعتقد أن الله يريده أن يقتل أخته او ابنته لارتكابها على سبيـل المثال جريمة الزنـا مع عشيقها، لهـذا فإن الشخص العائل لهـذه الأسرة ينغمس في تبرير واهٍ، حيث إنـه يبرر فعله المنكر بإقناع نفسه بأن هذه هي إرادة الله، بينما الواقع غير ذلك، إذ هو نتاج غضب الشخص وانتقامه وشعوره بالخجل، وهذا كله وليس الله هو الذي قاده إلى أفعاله. وكثير من الناس يعتقد الواحد منهم الذي يكون رب أسرة، أن موت المرأة يعتبر إرضاءً لله بل وإنه يكون مسرورًا بهذا. وبفرض أن الشخص المرتكب لهذا الجرم إنسان متدين وورع وكشيء أساسي أقدم على القتل، فهو في المقابل يكون قد تطاول بأحاسيسه البشرية الذاتية على الله (افترى)، ومن ثمّ يكون قادرًا على تخيل وافتراض أن ما انتابه من شعور وما أخجله ودفعه هو وعائلته إلى ذلك، إنّما هو وفق إرادة الله تمامًا. وبدلاً من أن يفكـر في أن الله رحيم وعفو

ورؤوف، تصور أن الله غاضب وساخط ويتوق إلى الانتقام[9] ، وهذه الصورة التي قد تخيلها عن الله؛ لم تنجم إلاّ لأن هذا الرجل الذي من المفترض أن يكون ورعًا تقيًا، انقاد في غفلةٍ من نفسه إلى أحاسيسه ونسبها إلى الله.

وإلى حدٍ أبعد، فلو افترى الناس على الله من خلال قلة الإدرك الذاتي، ورأوا الله من خلال زاوية متأثرة بالذات وشديدة الخصوصية، فهم بكل ما أوتوا من قوة لن يصلوا إلى حب الله؛ ذلك لأنهم قد ابتدعوا إلهًا في تصورهم الخاص وعشقوا هذا التصور، وفي مثل هذه الحالة يكون الله قد استغل في عملية حب الذات بشكل واسع، وتصبح الصلة أو الاتصال بالله المفهوم من ذلك، وسيلة للغطرسة. وتخويل الشخص السلطة التي يفعل بها ما يشاء. وعندما نأتي للحديث عن الله وعن الخلق، فلا عجب أن كلاً من المعتدلين والمتشددين لديهم الكثير من أوجه التشابه. ففي حالات عديدة ترتكز الخلافات بين الفريقين على فهمهم الشديد الاختلاف لمعنى الإسلام، أي خضوع العبد وإسلامه الوجه لله. حيث إن مفاهيمهم المختلفة لطاعة الله تلتقي حول المفاهيم

---

[9] الحق أن الكل يجمع على أن الله رحيم وستار، ودليل رحمته أنه أوجب في إثبات جريمة الزنا توفر أربعة شهود، وهذا – عمليًا – صعب. وفي الحديث المشهور عن"ماعز والغامدية" فإن الرسول (ص) لم يسارع بإقامة الحد عندما جاءه الرجل والمرأة واعترفا بجريمتهما، بل قال للرجل: "لعلك لامست .. لعلك قبلت" فلما أقر الرجل بلفظ صريح، أقام الرسول عليه الحد، فلا تعطيل –أبدًا– لحدود الله. ودليل وجوب الستر أن الرسول حين أبلغه رجل عن جريمة زنا، قال له الرسول (ص): "فهلاً سترته بثوبك..". وإذن فالإسلام يدعو إلى الستر والرحمة، غير أن الحدود لم يترك أمر تنفيذها بيد الناس، بل بيد الحاكم، فإن كان ليس ثمة حاكم مسلم يقضي بشرع الله، فالستر واجب ما دام لم يعلم أحد بما وقع، ويتوب الله على من تاب وكان الله توابًا رحيمًا. وثمة مسألة متعلقة بالموضوع. هب أن الابنة أو الأخت التي زنت غير محصنة أي غير متزوجة، فيكون الحد الواجب تطبيقه عليها هو الجلد مائة جلدة فقط، وبالتالي يكون قتلها إثمًا مبينًا؛ لأنه تجاوز ما أوجبه الله من عقاب لها وهو الجلد... "المترجم"

الجدلية والمتنوعة عن الإرادة الإلهية أو بشكل آخر ماذا يريد الله من البشرية. وخلافــاً للمتشددين، فإن المعتدلين لا يعتقدون بأن الشريعة كافية وتعبر بشكل تام ووافٍ عن المشيئة الإلهية، فالله أعظم وأكبر من أن يُعبر عنه أو أن يتجلى في دستور الشريعة.

وعنــدئذ يشــاركون الله صفاته، (فإذا كــان الله رحيمًا فليكونوا مثله رحماءً). ومن وجهة نظر المعتدلين، فإنه من المتناقض تمامًا بل ومن المستحيل أن يحب شخص الله بصدق ثم يعجز عن أن يعكس بعض صفات الله من رحمة ورأفة ومغفرة وحلم وجمال في أفعاله. وطبقًا للرؤية الدينية عند المعتدلين، فلو أن أشخاصًا فشلوا في اكتشاف الصفات الإلهية لله، فإنهم بذلك يكونون قد أخفقوا في إسلامهم لله وخضوعهم له، وبذلك فهم لم يتعلموا حب الله خالق كل شيء.

وهدف آخر لنظرية المعتدلين وهو قلقها بشأن السلطة حتى أنها تخاف منها، وبشكل أخص، إذ إن المعتــدلين على دراية كاملة بالعديد من الامــتهانات التي حدثت في التــاريخ والأفعال الوحشية التي ارتكبها الأفراد باسم الله. إن المعتدلين على علم بأن هيمنة الله والطلب الإلهي للطاعة يعني أن الله – لا أحد سواه – هو المستحق للسلطة والسيادة المطلقة، ولأن السلطة والقوة تكون في صميم أية علاقة دينية، فإن السؤال الذي يتردد كثيرًا – وهو صعب عقلانيًا وعمليًا – هو: ماهي المفاهيم والمعايير الملائمة التي يمكن رسمها بين السيادة الإلهية والاستقلالية الإنسانية الفردية ؟.

لا مفر من القول بأن هذه المعايير هي الأكثر انتقادًا والأكثر ملاءمة للموضوع، مما هو في مجال الشرع والأخلاق، ولأن هذين المصدرين للحكم رفيعا الشأن ولهما الريادة على السلوك البشري عبر التاريخ، فلهذا يصبح السؤال الرئيسي من خلال الشريعة والأخلاق هو: هل سيادة الله العليا تزيل استقلالية الفرد مع الاحترام للقانون والأخلاق؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك، فما

هو التوازن المناسب الذي يمكن إقامته بين مشيئة الله بما يماثله في الشرع والقانون الوضعي؟ وهل الشرع والفضيلة لا يوجدان إلا داخل السلطة الإلهية في الفصل والقضاء أم أن البشر يلعبون أيضًا دورًا في هذين المجالين؟.

لقد أثير العديد من الأسئلة في هذا السياق وما إذا كانوا مرتبطين بالمشيئة والسلطة والسيادة الإلهية وخطر هؤلاء الذين يستعبدون ويستغلون الآخرين باسم الله. كل هذه الأسئلة قد تم دمجها بشكل محكم مع قضية التحدي وما المدى الذي يصل إليه المسلمون الورعون القانتون الذين خُولوا العمل نيابة عن الله ووفق الصالح الإلهي، فلقد كان هذا هو الموضوع الأساسي الذي يراد توصيله في أكثر ما تناولناه في النقاش.

الفصل السابع

"طبيعة القانون والمبادئ الأخلاقية"

لا يوجد موضوع يفصل بين المعتدلين والمتشددين بقدر ما يفصلهما موضوع طبيعة الشريعة ووظيفتها. فالشريعة تلعب دورًا هامًا في الإسلام حتى إن بعض المسلمين يعتقدون أنه بغير الشريعة لا يتبقى من الدين الإسلامي شيء. ومع ذلك، فبالرغم من أهمية الشريعة، إلا أنها –أيضًا– أقل الجوانب فَهمًا في الإسلام بالنسبة للمسلمين وغير المسلمين على السواء. حتى إن البعض في الغرب يتمادى لدرجة الاعتقاد في أن المسلم الذي يؤمن بالشريعة هو بالضرورة متعصب أو أصولي. ولا يمكن إنكار أن المتشددين في العصر الحديث أعطوا الإسلام صورة مروعة عن الشريعة الإسلامية، حتى إنه إذا ما ذكر لفظ الشريعة الإسلامية، فإن أول ما يتبادر إلى ذهن الكثيرين هو الأعمال المروعة التي ترتكبها "طالبان" في أفغانستان والوهابيون في السعودية والمتشددون في السودان. ومع ذلك، فإن اتهام أي مسلم يؤمن بالشريعة الإسلامية بأنه متعصب يوازي اتهام كل يهودي يؤمن بشرائع وتعاليم الأحبار والتلمود بأنه متعصب أيضًا. والحقيقة أن الكثير من الأمر يتوقف على فهم المرء للشريعة الإسلامية والتفسير الذي يتبعه.

فالشريعة الإسلامية مستمدة من مصدرين معروفين وهما: القرآن وتقاليد النبي "صلى الله عليه وسلم" المعروفة بالحديث والسنّة. فالسنّة هي التسجيلات المنقولة شفاهًا لما قاله أوفعله الرسول (ص) طوال حياته. وكذلك أفعال وأقوال الصحابة. أمّا التقاليد المقتبسة حرفيًا عن الرسول (ص) فهي تعرف بـــ"الحديث". والسنة مصطلح عريض يشير إلى الحديث وكذلك الأقوال المقتبسة التي تصف سلوك الرسول وصحابته في مختلف الأحوال والمناسبات.

وفي الإسلام، يحتل القرآن مكانة فريدة؛ لأنه كلام الله. فسواء أكان المرء معتدلاً أو متشددًا أومحافظًا، فالمسلمون جميعًا يؤمنون بأن القرآن هو كلام الله الذي تنزل به جبريل على سيدنا محمد "صلى الله عليه وسلم". فبالنسبة للقرآن، فإن سيدنا محمد (ص) لم يفعل شيئًا سوى تبليغ رسالة الله كلمة كلمة. وقام المسلمون بحفظ كتاب الله ونقله بهيئته ولغته الأصلية إلى الأجيال التالية. ويؤمن المسلمون بأن الله وعد وتعهد بحفظ كتابه من أية محاولات تحريف أو حذف أو تعديل أو تبديل أو نسخ. وبالرغم من أن هناك اختلافًا حول معنى الوحي، إلا أن هناك إجماعًا على تكامل القرآن.

إن إيمان المسلمين بكمال القرآن مدعوم تاريخيًا، ولكن معنى وسياق النصوص القرآنية مسألة أكثر تعقيدًا. ففي بعض المواضع يكون كلام القرآن موجهًا لسيدنا محمد تحديدًا، لكن في مواضع أخرى يكون موجهًا للمسلمين أو البشرية بأكملها. ففي سياقات مختلفة يخاطب القرآن اليهود أو المسيحيين أو المشركين. وتوجد ديناميكية تاريخية تحدد سياقًا ما لكل تلك المناسبات، وبذلك تمنح هذا الاختلاف معنىً ومغزىً أوسع. وبينما يوجد إجماع كبير بين كل المسلمين على تكامل ومصداقية النص القرآني كتنزيل من السماء وكلام من الله، إلا أن السياق التاريخي للنص هو الذي يدور حوله جدل ونقاش كثير.

فمعظم المسلمين يعتبرون السنّة النبوية المصدر التشريعي الثاني بعد القرآن في الدين الإسلامي. والسنُة تتمثل في مجموعة أدبية غير متبلورة تتضمن الكثير من الأحاديث عن النبي (ص) وصحابته في مختلف المراحل في فجر الدين الإسلامي. وبالرغم من أن القرآن والسنّة هما المصدران الرئيسيان للشريعة والفكرالإسلامي، إلا أن هناك اختلافات جوهرية بينهما. فخلافًا للقرآن، فإن السنّة ليس لها نص واحد متفق عليه. فالسنّة منثورة في ستة مراجع نصيّة أساسية على الأقل وهي: (صحيح البخاري ومسلم

والنسائي والترمذي وابن ماجه وأبو داوود) والكثير من النصوص الفرعية مثل: (مسند أحمد وابن حيّان وابن خزيمة). وبالإضافة إلى ذلك، فهناك مجموعة من السنّة والأحاديث المعمول بها بين المسلمين الشيعة مثل "الكافي" و"الوسائل".

وعلى عكس القرآن، فالسنّة لم تكتب في حياة الرسول. فلم تجمع السنّة أو تدون إلا بعد ما لا يقل عن قرنين من وفاة الرسول (ص). وعلى الرغم من أن بعض الحركات التي تعمل على التدوين كانت قد شرعت في ذلك في القرن الأول للإسلام، إلا أن العمل الأساسي للجمع والتدوين المنهجي لم يبدأ إلا في القرن الثالث الهجري وهو القرن التاسع الميلادي. إن التدوين المتأخر للأحاديث المنسوبة للرسول (ص) قد يعني التشكك فيها صحتها وصحة نسبتها إلى الرسول (ص)، أوعلى الأقل في أن صحتها تاريخيًا مشكوك فيها. ففي الواقع إن أعقد فروع الدراسة في الفقه الإسلامي هي تلك التي تحاول التفريق بين الأحاديث الصحيحة والأحاديث المزيفة. علاوة على ذلك، فإن الأحاديث التي نُسبت إلى النبي (ص)، لا يمكن الحكم عليها ببساطة على أنها غير صحيحة أو مختلقة، إذ مثل تلك الأحاديث لها درجات متفاوتة من الصحة، وهذا يتوقف على مدى ثقة الباحث في أن الرسول (ص) قام بعمل ما بعينه أوأنه قال مقولة معينة. لذا، فبالنسبة لأقوال العلماء المسلمين، فإن صحة الأحاديث قد تتراوح من أعلى مستوى إلى أدنى مستوى. وبالرغم من أن العلماء المسلمين يميلون للاعتقاد بأنهم يستطيعون التثبت ممّا إذا كان الرسول قد قال حديثًا ما أو لا، إلا أن مسألة نسبة تلك الأحاديث إلى الرواة هي مسألة جد معقدة من الناحية التاريخية. فالكثير من هذه الأحاديث والسنن هو نتاج تطور تراكمي نشأ خلال عملية تاريخية طويلة الأمد. ولذلك فهذه الأحاديث والسنن هي في كثير من الأحيان تعبيرعن ديناميكات اجتماعية سياسية حدثت بعد سنوات عديدة من وفاة الرسول.

وبعيدًا عن قضية الموثوقية، فهناك العديد من الأشياء الأخرى التي تجعل السنة تختلف عن القرآن. فأسلوب ولغة السنّة يختلفان ويتميزان تمامًا عن لغة القرآن. والقرآن كلام منظوم، به تناغم وانسجام في الأصوات، أما السنة فهي ليست كذلك. علاوة على ذلك، فالنطاق الذي تتناول السنّة من خلاله المواضيع والقضايا أكثر تفصيلاً من القرآن. فالقرآن يهتم في المقام الأول بالأخلاق والآداب، بينما السنّة تشتمل على كل شيء بدءًا من تحديد المبادئ الأخلاقية، إلى الوصف التفصيلي لمختلف المسائل المتعلقة بالسلوك الشخصي والسلوك الاجتماعي للأحداث، إلى القصص القديمة والتاريخية. ولذا فلا يمكن ترجمة السنّة إلى مجموعة من الأوامر الصريحة بسهولة. فقد قال فقهاء المسلمين إن بعض أجزاء السنّة يعد إلزاميًا وتشريعيًا، في حين أن أجزاءً أخرى تعد – في أغلبها – شارحة وغير إلزامية. كما أن الهيكل الأدبي الذي يشتمل على السنّة معقد ولا يمكن للشخص العادي الخوض فيه. لذلك ومن أجل تحقيق تحليل منهجي شامل لما يجب أن تقوله السنّة ككل بشأن مسألة محددة، فإن الأمر يتطلب معرفة تقنية وخبرة وتدريبًا. ويرجع ذلك في جزءٍ منه إلى حقيقة أن الأدب السنّي يعكس عددًا كبيرًا من التوجهات الفكرية المتقابلة والمتنافسة ووجهات النظر التي هي في حالة توتر مع بعضها البعض. وطريقة التعامل الانتقائية وغير المنظمة مع السنّة ينتج عنها قرارت غير متوازنة نهائيًا، فقد تميل إلى جانب توجه فكري معين دون آخر. وتلك المعالجات الانتقائية غير المنظمة لسنّة النبي محمد "صلى الله عليه وسلم" تعد أمرًا مألوفًا في العالم الإسلامي المعاصر.

ومع ذلك، فجدير بالذكر أن نقول إن الكثير من الشعائر الأساسية للإسلام مستمدة من تقاليد السنة. بالإضافة إلى ذلك، فإن السنّة ساعدت في فهم السياق الذي نزل فيه القرآن، وكذلك فهم الإطار التاريخي ودور الرسالة الإسلامية. وبالتالي فإنه ليس من الممكن تجاهل هذا الكم الهائل من الأحاديث

الشفاهية ببساطة أو التركيز حصرًا على القرآن دون إلحاق ضرر جسيم بالدين الإسلامي ككل.

لا شك أن القرآن والسنّة يحتلان مكانة تشريعية رفيعة في الدين الإسلامي، وأنهما المصادر الرئيسية غير المحدودة للتفكير في الأخلاق والمبادئ والحكمة؛ ولكن لأنهما مصدرا توجيه، فلهما جوانب متعددة ومظاهر عديدة. وحين يُنظر إلى القرآن والسنّة معًا، فإنهما يمثلان قصة معقدة. فمن الممكن أن يكونا معًا مصدرًا عميقًا للتوجيه الفكري والأخلاقي. لكن العكس صحيح وخطير أيضًا، حيث إنه إذا ما تم التعامل معهما من منظور التزامات أخلاقية وفكرية خاطئة، أو حتى تم التعامل معهما في إطار دنيوي وغير ملتزم أخلاقيًا، فإنهما من الممكن أن يؤديا إلى عملية ركود فكري وأخلاقي إن لم يكن تدهورًا وفسادًا. فعلى سبيل المثال، تحتوي السنّة على عدد كبير من الأحاديث التي تدعم المرأة تدعيمًا تامًا، ولكنه ا-أيضًا - تحتوي على عدد كبير مماثل من الأحاديث التي يُحط من قدرها ويقلل من الاحترام المكفول لها. وإذا أردنا تجلية هذا الموضوع في السنّة، فعلينا أن نقوم بتحليلها وتفسيرها، مستنيرين في ذلك بالقرآن، وعلينا قراءتها بطريقة تعزز وتقوي الأهداف الأخلاقية للإسلام الذي يدعو إلى التفكير الحصيف والمتوازن وإلى وجهات نظر أخلاقية.

وبجانب القرآن وسنّة النبي محمد "صلى الله عليه و سلم"، فإنه يوجد العديد من الأساليب التي استخدمها الفقهاء في إصدار أحكامهم الشرعية. فقد استخدم الفقهاء حكم القياس وهو أن يستمد الفقهاء أحكامهم في قضية قديمة ويطبقونها على القضية الجديدة؛ لأن كلاً من القضيتين القديمة والجديدة متشابهتان جوهريًا. وقد استخدم الفقهاء مبادئ مثل المساواة والمصلحة العامة لإيجاد شريعة تُلبي تغير الظروف والأحوال.

إن الشريعة الإسلاميه لا توجد في كتاب واحد أو في عدد قليل من الكتب، ولكنها توجد في مجموعة ضخمة من المجلدات تتضمن أراء وأحكام الفقهاء على مر العصور. ففي السنّة توجد أربع مدارس فكرية أساسية هي: الشافعي والحنفي والمالكي والحنبلي. أما بالنسبه للشافعية، فتوجد مدرستان فكريتان فقط هما: "الجعفري" (وهو السائد بين الشيعة الذين يعيشون في العراق وإيران)، و"الزايدي" (وقد انتشر في اليمن). وبالرغم من الاختلاف الطائفي، فإن المدرسة الجعفرية تعد مماثلة للمدرسة الشافعية، أما مدرسة الزايدي فتعد مماثلة للمدرسة الحنفية في منهجها وقوانينها. أما المدرسة الإسماعيلية للقاضي النعمان على الرغم من كونها شيعية الآن، يتبعها عدد محدود من المسلمين وخاصة في الهند. ويوجد هناك أيضًا مدرسة "العبادي" لعلم التشريع وهي ليست سنّية أو شيعية، ولكنها تنتمي إلى قسم ثالث يعرف بـــ"العبادية" ويعيش أتباعها في عمان. ولقد كونت كل مدرسة علمها التشريعي وقوانينها وأراءها الخاصة بها.

وغالبًا مايكتب بعض الحكماء الذين ينتمون إلى مدرسة معينة بعض النصوص التي يكون لها تأثير أكبر من النصوص التي كتبها مؤسسو هذه المدرسة. فعلى سبيل المثال، الخراقي (تُوفي ٩٤٦ /٣٣٤) مؤلف المختصر، وابن قدامة (تُوفي١٢٢٣/٦٢٠) مؤلف المغني، فقد كان لكل منهما تأثير كبير في الدفاع عن المدرسة الحنبلية، أكثر من مؤسسها نفسه أحمد بن حنبل (تُوفي ٨٥٥ /٢٤١). ومن بين تلاميذ أبي حنيفة (تُوفي ٧٦٧/١٥٠) مؤسس المدرسة الحنفية، كان هناك ثلاثة حكماء مؤثرين هم: الحاكم أبو يوسف (٧٩٨ تُوفي /١٨٢) والشيباني (تُوفي ٨٠٤/١٨٩) والظفار (تُوفي ٧٧٤ /١٥٨)، ولقد طور كل منهم تفسيره عن تعاليم أستاذهم أبي حنيفة. وبالرغم من النزاع القائم حول هذه المسألة، إلا أن لكل من الفقيه الحنفي المرغني (تُوفي ١١٩٦/٥٩٣) وكتابه "الهداية"، والفقيه الحنفي السراخسي (تُوفي

١٠٩٠/٤٨٣) وكتابه "المبسوط" المتعدد الأجزاء، كان لهما تأثير أكبر ممّا كتب أبو حنيفة أو تلاميذه الحكماء الثلاثة. فلقد دوّن الشافعي (تُوفي ٨١٩/٢٠٤) – والذي أسس مدرسة خاصة به – عددًا من النصوص المؤثرة المختلفة. ولكن أتباعه مثل: الماوردي (تُوفي ١٠٥٨/٤٥٠) مؤلف المجموعة الضخمة "الهاوي" والشربيني (تُوفي ١٥٦٩/٩٧٢) مؤلف "تعليق المغني"، كان لهما تأثير لا يقل أهمية عن مؤسس المدرسة نفسه. فمؤسس مدرسة المالكي، أنس بن مالك (تُوفي ٧٩٥/١٧٩) كتب عملاً مؤثرًا بشدة وهو "الموتى"، ولكن تلميذه سحنون (تُوفي ٨٥٤/٢٤٠) كتب عملاً أوسع وهو "المداونة" والذي سرعان ما أصبح أهم مرجع للمدرسة المالكية. ثمّ جاء بعض الفقهاء المالكيين مثل ابن رشد (تُوفي ١١٢٢/٥٢٠) والقرافي (تُوفي ١٢٨٥ /٦٨٤) والشاطبي (تُوفي ١٣٨٨ /٧٩٠) وكتبوا أعمالاً طورت وعززت الشريعة المالكية. وبالمثل فإن المدارس الجعفرية والزايدية والعبادية أنتجت عددًا كبيرًا من الكتابات لمختلف الفقهاء في مختلف الأماكن ومختلف العصور، والتي جعلت كل مدرسة أكثر تطورًا وملاءمة للعصر الحديث.

إن هذه المجلدات العديدة التي تمثل الشريعة الإسلامية لا تظهر فقط أراء وأفكار هذه المدارس، ولكنها تمثل – أيضًا– آراء المدارس الشرعية التي لم يعد لها وجود . ففي وقت ما كان هناك حوالي ١٣٠ مدرسة فكرية في الحضارة الإسلامية، ولكن اختفي معظمها لأسباب عديدة. فالشريعة الإسلامية لا تتمثل في المدارس الباقية فقط، ولكنها تشمل جميع المدارس التي ظهرت في العالم الإسلامي. ومن ضمن الفقهاء أصحاب المدارس التي لم يعد لها وجود: ابن شبرمة (تُوفي ٧٦١ /١٤٤) وابن أبي ليلى (تُوفي ٧٦٥/١٤٨) وسفيان الثوري (تُوفي ٧٧٧/١٦١) والليث بن سعد(تُوفي ٧٩١/١٧٥) وشريك النخاعي (تُوفي ٧٩٣ /١٧٧) وأبو ثور(٨٥٤/٢٤٠تُوفي) والأوزاعي (تُوفي ٧٧٣/١٥٧)وابن جرير الطباري (تُوفي ٣١٠/٩٢٢) وإسحاق بن

راهوية (تُوفي ٨٥٢ /٢٣٨) وداود بن خلف (تُوفي ٨٨٣ /٢٧٠) مؤسس مدرسة الزاهيري، وابن حزم (٤٥٦/١٠٦٤تُوفي) والذي كان فقيهًا في مدرسة الزاهيري ومؤلف كتاب "المحلّي". وبالرغم من اختفاء مدرسة الزاهيري، إلا أن كتاب ابن حزم ما يزال مؤثرًا بين المتخصصين الشرعيين للإسلام.

إن "الشريعة الإسلامية" ماهي إلا مصطلح للدلالة على مجموعة القوانين والأحكام التي جُمعت على مر العصور. ففي أية مسألة في الشريعة سوف نجد الكثير من الآراء حول ما يتطلبه الشرع الإلهي. فقانون الشريعة الإسلامية يتمثل في أعمال تتضمن النظرية الفقهية والفتاوى والأحكام. وكما ذكرنا من قبل فإن الشريعة الإسلامية تشتمل على ما يتراوح بين الطقوس الدينية والشريعة الجنائية وقانون الأحوال الشخصية والعائلية وقانون المعاملات التجارية والشريعة الدولية والشريعة الدستورية.

والسؤال هنا هو: كيف تتصل هذه الأحكام القضائية بالشريعة الإلهية؟ وكيف تصبح هذه القوانين والأحكام والآراء جزءًا من الشريعة الإلهية؟

إن هذه الأسئلة تؤدي بنا إلى الفارق الرئيسي لمنطق التشريع الإسلامي. فالشرع الإسلامي ينقسم إلى قسمين: الشريعة والفقه. والشريعة هي قانون ثابت لا يتغير وهي تمثل الحق والعدل كما أمر بهما الله تعالى. فهي الشريعة المثلي التي يجب أن تطبق في كل الأوقات وعلى البشرية جمعاء. ولذا فيجب على البشر أن يطبقوا الشريعة في جميع شؤونهم. بينما الفقه هو الشريعة البشرية، الذي يتمثل في المحاولات البشرية للوصول إلى الحكم الشرعي الأبدي الذي فرضه الله تعالى. ولذلك لا يعد الفقه إلهيًا؛ لأنه نتيجة جهود بشرية. وبالتالي فالفقه ليس كالشريعة، فهو قابل للتغيير وليس أبديًا.

وبهذه الخلفية يمكننا الآن أن نبرز الفروق الجوهرية بين موقف المتشددين والمعتدلين من الشريعة. إن المعتدلين يستطيعون أن يميزوا بين

الحكم الشرعي الأبدي أو الإلهي والمحاولات البشرية لفهم وتطبيق الشرع الإلهي. وهذا يعني أن كثيرًا ممّا يطلق عليه الشريعة الإسلامية، هو نتاج بشري متغيّر ومتطور وباطل وخاطئ. فالشرع الإلهي يعد مثاليًا، ولكن يتعذر على البشر الوصول إليه. فالبشر يحاولون جاهدين التوصل إلى فهم الشريعة الإسلامية. ولكنه ليس من الصحيح أن نقول إن البشر متأكدون من أنهم أدركوا وفهموا الشرع الإلهي بنجاح. ولذلك آمن المعتدلون بأنه يجب على الفقهاء أن يعترفوا بكل التواضع أن ما يزعمونه من توصلهم لفهم الشرع الإلهي، إنما هو زعم خاطئ، إذ يجب على الفقيه أن يبذل كل طاقته لفهم الشرع الإلهي، ولكن يجب ألا يفترض أن آراءه هي بالتأكيد مطابقة للقانون الإلهي.

ومن حيث المبدأ، فقد قام المتشددون بالتفريق بين الشرع الإلهي والجهود البشرية لفهم هذا الشرع. ولكن في الحقيقة، انتهي بهم الأمر إلى الوصول إلى نقطة افتراق ليس لها معنى. فقد رأي المتشددون الفقه على أنه يمكن تطبيقه في الحالات التي تركها الله مفتوحة أو قائمة بغير نص، ولكن لا يمكن تطبيقه في الحالات التي أصدر الله فيها قوانينه للمسلمين. ويمكن للبشرية أن تحاول فهم وتقييم الموضوعات التي تركها الله قائمة من غير نص قطعيّ فيها، ولكن غير مسموح لهم بإبداء الآراء في الموضوعات التي أصدر الله فيها أحكامًا.

فنظرية المتشددين غير مثيرة للجدل، وكثير من المسلمين يؤمنون أنه إذا أصدر الله قانونًا صريحًا، فلا يجوز للمسلمين النقاش حوله، ولكن عليهم أن يسمعوا أوامر الله ويطيعونها. وعلى أية حال، فالمشكلة أنه بالنسبة للمتشددين، فإن نطاق القضايا التي يعتقدون أن الله قد استثناها يعد شاملاً. وبالنسبة للمتشددين، ففي الأمور المتعلقة بالبشرية، فإن الله فرض قانونًا محددًا ودقيقًا، وعلى المسلمين إطاعة هذا القانون. وطبقًا للمتشددين، فإن

تسعين بالمائة من القانون يعد غير قابل للتغيير أو النقاش، بينما عشرة بالمائة فقط من الشريعة مسموح بالنقاش فيها وتعديها أو تغييرها. ولذلك فإنه يمكن تطبيق الفقه على عشرة بالمائة فقط من الأمور المتعلقة بالشريعة. بينما تغطي الشريعة حوالي تسعين بالمائة من شئون البشرية.

ويمكن أخذ "محمد عبد الوهاب" كمثال، فقد اختار المتشددون المدرسة الحنبلية واعتبروها المدرسة الصحيحة في الإسلام. ولكن في الحقيقة كان المتشددون أكثر تزمتًا حتى مع تلاميذ المدرسة الحنبلية. لقد انتقى المتشددون بعض الفقهاء الحنبليين مثل ابن تيمية وابن قيم الجوزي، وتعاملوا مع آرائهم على أنها ثابتة وغير قابلة للنقاش. لقد أخذ المتشددون آراء هؤلاء الفقهاء بطريقة تعسفية. إذ إنهم أخذوا من هذه الآراء ما يخدم وجهات نظرهم فقط. أما ما يتعارض مع مصالحهم فكانوا يتجاهلونه. ولم يستشهد المتشددون ببعض الفقهاء الحنبليين مثل ابن عقيل ونجم الدين الطوفي المشهورين بمناهجهما العقلانية. وكما ذكرنا من قبل، فإن هذا المنهج الانتقائي فهو بالمثل كما فعل "عبد الوهاب" من قبل. وليس من المدهش أن كل الفقهاء الحنبليين الذين اختارهم المتشددون هم أكثر الفقهاء تعسفًا مع المرأه وغير المسلمين.

إن المدرسة الحنبلية هي أكثر المدارس صرامة وحزمًا في الشريعة الإسلامية. وعلى الرغم من بعض الاستثناءات الملحوظة في وجود بعض الفقهاء الحنبليين الذين يتسمون بتفكيرهم العقلاني، إلا أن المدرسة الحنبلية عرفت بشدتها وحزمها وصرامتها. وبسبب هذا التعقيد والتشدد، فإنه في بداية القرن التاسع عشر كانت المدرسة الحنبلية على حافة الانقراض. وفي هذا الوقت كانت الجزيرة العربية هي المنطقة الوحيدة التي ما تزال فيها المدرسة الحنبلية. أما دول الخليج مثل الكويت فقد هجرت الحنبلية من أجل اعتناق المدرسة المالكية. وبظهور المملكة العربية السعودية وموقفها المساند

للحنبلية، حدث تغيير جذري لمصير المدرسة الحنبلية. فلم تحفظ السعودية المدرسة الحنبلية فقط، بل - من خلال مجهوداتها- جعلت الحنبلية هي الاختيار الأمثل لجميع الحركات التشددية في جميع أنحاء العالم الإسلامي السنّي.

إن الاختلافات بين المتشددين والمعتدلين حول القانون والأخلاق، تعد أكثر عمقًا وتعقيدًا مما ذكرنا. وكما ذكرنا من قبل، فإن كلاً من المتشددين والمعتدلين والمحافظين يؤمنون بأن القرآن لا يمكن تحريفه أو تغييره. فالقرآن لم يتم تحريفه منذ نزوله على النبي محمد (ص). أما السنّة أو العقائد فهي منسوبة للنبي محمد (ص) وهي مختلفة بصورة كلية. فقد تعامل المتشددون مع العقائد المنسوبة للنبي محمد (ص) على أنها قانون يجب أن يفرض ولا يجوز النقاش فيه. وبالرغم من أن هذه الأحاديث تعد بالآلاف، إلا أن المتشددين غالبًا ما يضعون قوانينهم طبقًا لتقليد واحد وجد في مصدر واحد من المصادر العديدة للحديث. ولقد عامل المتشددون بعض المصادر مثل صحيح البخاري على أنه إلزامي ولا يجوز النقاش فيه. واعتبروا أنه إذا ناقش أي مسلم أي حديث من البخاري، فهذا المسلم يعد كافرًا. والمشكلة هي أن بعض هذه الأحاديث تتحدى العقل، وبعضها يتعامل مع المرأة وغير المسلمين بتعسف شديد، وبعضها أيضًا يتعارض بشدة مع بعض العادات والأخلاق التي ذكرت في القرآن. علاوة على ذلك، فإن المتشددين قاموا باختيار بعض الأحاديث النبوية، وكذلك قاموا بتجاهل وإهمال بعض الأحاديث النبوية الأخرى. وفي الواقع، فإن نهجهم يعتبر تذكيرًا لظاهرة "قذف الحديث" والذي وصفه الشيخ الغزالي في عمله المشهور.

والسبب في أن المتشددين اعتمدوا على هذه النظريات في التعامل مع المصادر الرئيسية للقانون الإسلامي، إنما يرجع إلى أسلوب معين في التعامل مع القرآن والسنّة. وبالرغم من مجموعة القضايا المعقدة التي تثيرها هذه

المصادر، إلا أن المتشددين تعاملوا مع القرآن والسنّة على أنهما العلاج الحاسم لكل المشاكل التي يمكن أن تصادفهم في الحياة. وفي الحقيقة يمكن للقرآن والسنّة أن يوفرا حلولاً فعّالة لمعظم المشاكل، ولكن هذا بعيد كل البعد عن الافتراض بأن المصدرين يمكن أن يوجدا حلولاً لكل تحديات الحياة. وبالرغم من ذلك، فإن هناك بين المتشددين، عقيدة تنصّ على أن القرآن والسنّة يوفران أسلوبًا لحياة كاملة وحلاً لكل المشاكل الاجتماعية والسياسية التي يمكن أن تواجه المسلمين. ففي هذا النموذج نجد أسلوبًا ينص على أن القرآن والسنّة مملوءان بالصيغ الكثيرة، والشيء الوحيد المفقود في المعادلة هو الإرادة والتصميم لتطبيق الصيغة الصحيحة للمشكلة المناسبة. وهذا التفكير جعل المتشددين يعتقدون أن هذه العقائد هي آلات إنتاجية، وأنه يوجد حل مجهز في هذه المصادر لكل مشكلة يمكن أن تواجه الإنسان. وفي الحياة الواقعية، فإنه إذا حدث تصادم بسبب أفكار المتشددين، فإن المتشددين سيؤكدون على أن الحلول صحيحة تمامًا، وأن البشر هم المخطئون دائمًا.

وعلى عكس المتشددين، فإن المعتدلين قاموا بتطبيق مناهج فكرية تاريخية منسوبة إلى النبي. وكما ذكرنا من قبل فإن هذه المناهج والعقائد ليست كالقرآن، فقد تم تجميعها بعد عهد الرسول بقرون قليلة، بالإضافة إلى أن هذه العقائد تعكس أحداثًا تاريخية ومنازعات طائفية وسياسية حدثت بعد سنوات من وفاة الرسول (ص). وباستخدام أساليب حديثة للتحليل النقدي، أثبت المعتدلون أن كثيرًا من العقائد ليست صحيحة ومتفقة. بالإضافة إلى أن كثيرًا من العقائد النبوية تم تبليغها من مجموعات فردية. فعلى سبيل المثال، قام فرد بتبليغ فرد آخر أنه سمع النبي (ص) يقول كذا وكذا. أما المتشددون فقد قاموا بدراسة الظروف كي يتأكدوا من صحة هذه العقائد وعقلانيتها. وإذا لم يتأكدوا منها، فإنهم يعتبرونها غير صحيحة وباطلة. فعلى سبيل المثال، هناك دليل واضح على أنه إذا أراد الرسول (ص) أن يُعلّم المسلمين شيئًا ما،

فإن الرسول يأمر مناديًا ينادي على المسلمين أن يجتمعوا، ثم يقول لهم هذا الدرس الهام. وإذا رأي أي معتدل أن هذه النظرية غير متوافقة مع العقل وليس لها دليل، فإنه يعتبرها مشكوكًا فيها ويقوم بالتحقيق في ظروفها. فلو كان الموضوع يتعلق بمبدأ هام في العقيدة، فإن الرسول (ص) كان يجب أن يخبر به أي أحد. فلو كان للموضوع أهمية أو أنه سوف يكون له تأثير على المسلمين، فمن المؤكد أن الرسول (ص) كان سيخبر به أكبر قدر من الناس. وفي ظروف وحالات أخرى كان الرسول (ص) يخبر مجموعة معينة من الصحابة، وبالتالي فهذه التقارير ستعامل معاملة مختلفة. والمعتدلون حاولوا التأكد من أن الأدلة التي تدعم الأحكام يجب أن تكون متماسكة ومعقولة وموثوقة.

وعندما نأتي إلى القرآن، فإن النزاع بين المتشددين والمعتدلين يتمثل في استخدام النظريات العقلية لتوضيح واستخدام الشريعة. فالمتشددون نظروا إلى القرآن على أنه قانون إلهي، وقد وضعوا كل تركيزهم على الآليات التي تتكلم عن أمور معينة مثل الزواج والطلاق والميراث والعقوبات الجنائية. وفرضوا هذه الأحكام دون النظر إلى الظروف والوقت الذي فرض النبي محمد "صلى الله عليه وسلم" فيه هذه الأحكام. ولم يهتم المتشددون بإجمالية المبادئ التوجيهية في القرآن ولم يحاولوا تحليل المبادئ الأدبية والأخلاقية في القرآن.

إن المعتدلين رأوا أن القرآن أصدر أحكامًا معينة في مختلف الموضوعات. وبالنسبة للمعتدلين فإن الأهداف الأخلاقية والأدبية للقرآن تلعب دورًا هامًا ومحوريًا في عملية التحليل التشريعي، ففكرة التحليل التشريعي ليست عملية تنفيذ أوامر عمياء دون تفكير، ولكنها تسعى لالتماس الهدف النهائي للقرآن، والقوانين القرآنية تهدف إلى تطبيق الأهداف الأخلاقية والأدبية مثل المساواة وعدم العنصرية ومثل حرية الضمير والتحرر من

الإكراه في فرض الآراء على الشؤون الإنسانية وحقوق المرأة وملكياتها. وإنه ليجب على المسلمين أن يثقفوا أنفسهم كي يستطيعوا التعامل مع هذه المسائل، فهذه المسائل الأخلاقية تهدف إلى تطبيق عدل الله في المجتمع.

إن القوانين المذكورة في القرآن نزلت من أجل مواقف معينة حدثت على عهد الرسول (ص). وهذه الأحكام كانت من أجل أحداث يمكن أن تحدث في العصر الحديث ويمكن ألا تحدث مرة أخرى. ففي الوقت الذي فُرضت فيه هذه الأحكام كانت من أجل تطبيق العدالة والمساواة والرحمة والإحسان. ولذلك فإنه يجب على المسلم أن يدرس المبادئ الأخلاقية في القرآن ويتعامل بدقة مع الأحكام الواردة فيه على أساس أنها أمثلة توضيحية؛ لكي يستطيع المسلم تطبيق أخلاقيات القرآن في حياته. ولأن المتشددين لم يفكروا في هذه الأحكام على أنها أمثلة توضيحية، ولكنهم اعتبروها إلزامية، فكان هدفهم هو تطبيق هذه الأحكام دون الاهتمام بما إذا كانت أحكامهم تعزز أو تسيئ للمبادئ القرآنية مثل العدل والمساواة والرحمة.

إن النقاش حول ارتباط هذه الأحكام بالهدف النهائي للقرآن مرتبط بموضوع آخر هام جدًا، هو: ما الهدف النهائي للشريعة؟ وما هي الشريعة؟ وإلى ماذا تهدف الشريعة؟. تاريخيًا كانت المدارس الفكرية الشرعية ترفض الكثير من الموضوعات، غير أنهم اتفقوا على الرد على هذه الأسئلة. فطبقًا لجميع المدارس الفكرية فإن هدف الشريعة هو تحقيق المثالية للعباد. وربما تلخص الخلاف بين المتشددين والمعتدلين في كيفية تعامل كل منهم مع هذه المبادئ. فالمتشددون يؤمنون بأن تحقيق المثالية للعباد يمكن أن يتحقق عن طريق مجموعة من القوانين والأوامر الصارمة للسلوك والأسلوب الإنساني. وإن استخدام الأسباب يعد لعنة مطلقة. وإنه يجب على الناس تطبيق القوانين بحزم ودون الخوض في المسائل العقلية. وقد آمن المتشددون بأن الله وضّح

تسعين بالمائة من القوانين وجعلها واضحة وإلزامية. وترك عشرة بالمائة من الشئون الإنسانية للتقدير الإنساني.

وهذه الافتراضات على النقيض تمامًا من منهج المعتدلين. فقد طرح المعتدلون سؤالاً هامًا هو: لماذا منحنا الله الأسباب في حين أن الله قد أوجد حلولاً لكل مشاكلنا البشريه؟. بالنسبة إلى المنهج الإسلامي فإن الله قد أعلن عند بدء الخليقة أنه خلق شيئًا يستحق التكريم، ألا وهو العقل. ولكن وجهة نظر المتشددين هي أن الله لم يترك مساحة كبيرة للبشر لكي يستخدموا عقولهم في التفكير والتحليل، وأن الله قد أوجد حلولاً لكل مشاكل البشرية، وأنه يجب على البشر أن يطيعوا وألا يفكروا.

إن المعتدلين يؤمنون بأن الله يكافئ من يحاول البحث للتوصل إلي المشيئة الإلهية حتى لو توصل إلى نهاية خاطئة. فبالنسبة إلى هذه النظريات، فإن الله يكافئ على المحاولات والمجهودات لمعرفه المشيئة الإلهية، ولا يكافئ على النتائج والنهايات التي يمكن التوصل إليها.

وبالنظر للهدف النهائي للشريعة، فإن المعتدلين يؤمنون بأن خدمة البشرية والمصلحة العامة تعد وسيلة لتطبيق شريعة الله في الأرض. والهدف من الشريعة هو ليس تطبيق نظرية بعينها دون النظر إلى العواقب المترتبة عليها، ولكنه تطبيق القوانين التي تطبق عدل الله في الأرض وتوفره.

إن هذه النزاعات والنقاشات ليست نظرية بدون عواقب عملية. فعلى سبيل المثال، فقد تقبل المتشددون - دون نقاش - الشرع الذي ينص على أن عقاب المرتدين هو الموت، بينما لم يتقبل المعتدلون هذا الشرع؛ لأنه يتعارض مع القرآن. فقد قال الله في كتابه العزيز موجهًا خطابه للرسول (ص): "فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ، لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ " (الغاشية/٢١-٢٢). فهذه الآية تؤكد أنه حتى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لايحق له التفكير في أنه مسيطر ولديه السلطة على أن يكره الناس. وهذا دليل واضح من

القرآن على أن الديانة ليس فيها فرض بالإكراه. وعلى سبيل المثال، ففي عهد الرسول (ص) كان هناك رجل مسلم يدعى "حسين بن سليم بن عواف" له ابنتان مسيحيتان. هذا الصحابي كان قد دعا ابنتيه كثيرًا للدخول في الإسلام، ولكنهما أصرتا على رفضهما. فذهب الأب إلى رسول الله (ص) وطلب منه الإذن لكي يرغم ابنتيه على الإسلام، ولكن النبي رفض. ونزلت آيه قرانية تقول: أن الحق واضح والضلال واضح فمن يُرد الإيمان فليؤمن، ومن لا يريده فله حريته. فقد قال الله تعالى : "لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ" (سورة البقرة / آية ٢٥٦). ولقد اعتبر المعتدلون هذه الآية مبدأً عامًا لا يمكن أن يتناقض مع عقائد النبي (ص). ولذلك يرى المتشددون أنه لا يوجد أي عقاب للمرتدين.

وبجانب موضوع عقاب المرتدين، فإن المتشددين اتبعوا أساليب لا يمكن أن يقبلها المعتدلون. فعلى سبيل المثال، إنّ الشرع الذي ينص على أن شهادة المرأة في المحكمة تحسب بنصف شهادة الرجل، وأن حقوق المرأة بعد الطلاق تعد محدودة للغاية، وأنه مسموح للرجال أن يتخذوا أربع زوجات بسبب أو بدون سبب. فالنقطة المميزة التي يمكن للفرد أن يلاحظها في السعودية وأفغانستان – تحت قيادة طالبان – وفي نيجيريا والسودان، أن ما يطلقون عليه شريعة وشريعة إسلامية، يصدم العقول؛ لأنه تعسفي ويخدم مصالحهم. وما يلاحظه الفرد هو غياب العطف الرحمة والعدل والمساواة.

والأكثر من ذلك، استنادًا على دلائل ضعيفة وغير موثقة، فرض المتشددون على المسلمين حالة من التقشف. فمعظم ما دعوا به يؤدي إلى نزع الرحمة والعدل من القلوب الإنسانية. فقد قضوا على الفن والجمال وأي شيء يدعو إلى الخلق والإبداع، وطلبوا من المسلمين أن يكونوا كالآليين. علاوة على ذلك، فبالنسبة للمتشددين، فإن لديهم قوانين يفرضونها على المسلمين مثل كيف يأكل الفرد ويشرب ويلبس ويمشي ويذهب إلى المرحاض

ويتزاوج، فهناك قوانين لكل نشاط إنساني يجب عليهم مراعاتها. وسوف أذكر أدناه بعض قوانين المتشددين ، كما تتم ممارستها في أجزاء من العالم الإسلامى اليوم:

- محرم على المسلمين الرقص والغناء والموسيقى.
- كل البرامج التليفزيونية محرمة.
- إهداء الورود والأزهار حرام.
- التصفيق بالأيدي تهليلاً حرام.
- رسم الإنسان والحيوان حرام.
- التمثيل في المسرحيات حرام؛ لأن التمثيل نوع من الكذب.
- كتابة الروايات حرام؛ لأنه شكل من أشكال الكذب.
- ارتداء ملابس مرسوم عليها إنسان أو حيوان حرام.
- حلاقة اللحية حرام.
- الكتابة أو الأكل باليد اليسرى حرام.
- الوقوف لتحية شخص ما حرام.
- الاحتفال بمولد أي شخص حرام بما في ذلك مولد النبي (ص).
- الاحتفاظ بالكلاب أو تربيتهم حرام.
- تشريح الجثث حتى في التحقيقات الجنائية أو لسبب علاجي حرام.

وإذا ذهب أي شخص إلى أية دولة إسلامية ماعدا السعودية، فسوف يجد أن هذه القوانين غير مطبقة وغير مقبولة. لقد اعتبر المتشددون هذا الرفض على أنه دليل واضح على أن المسلمين المعاصرين قد ابتعدوا عن الإسلام الصحيح. وفي الواقع، فإن المتشددين آمنوا بأنه يجب إجبار الناس على اتباع أوامرهم وأحكامهم التي يعتنقونها، ولقد رفضت أغلب المجتمعات الإسلامية سياسة المتشددين وآراءهم ومالت إلى الاعتدال.

لقد آمن المعتدلون أن الشرع يجب أن يكون أكثر مرونة لكي يلائم جميع الظروف والحالات الإنسانية المعقدة والتي تتغير باستمرار، وبالتالى فإن الرؤية المعتدلة تدرك التغيرات الزمنية والثقافية الاجتماعية التي حدثت منذ عهد الرسول (ص). إنّ هذه المناقشات حول الشريعة والأخلاق تبرز الاختلاف الجوهرى بين ماحدث في الماضي وما يجب فعله الآن بحيث يتفق مع الشريعة الإسلامية. باختصار إنه اختلاف بين التاريخ والحداثة والتي زادت من مساحة الفجوة بين وجهات نظر المتشددين والمعتدلين. وسوف نتكلم عن هذا الفرق في الفصل القادم.

الفصل الثامن

طرق لفهم التاريخ والحداثة

في صميم المناقشات التي تدور حول طبيعة الشريعة وما تطلبه من المؤمنين، تضع أمام المؤمنين قضية كيفية التفكير في التاريخ والتعامل معه. إن المشكلة التي تواجه جميع الأنظمة الدينيه التشريعية لا تقل تعقيدًا عما إذا كان التاريخ عاطلاً وساكنًا، أو أنه متطور متغير باستمرار. فإذا افترضنا أن التاريخ ليس ثابتـــًا وإنه مثلما يتغير الزمن، يتغير البشر معه أيضًا. فالسؤال الصعب هنا سوف يكون: كيف يعقل أن يتدخل الله في نقطة من التاريخ وفرض مشيئته الثابته على بشر يتطورون ويتغيرون؟ هل يعقل أن نقول إن الله دائم الحضور في العملية التاريخية التي هي بالضرورة متغيرة باستمرار؟ منذ زمن طويل اضطررنا لمواجهة المناقشات حول ما إذا كانت مشيئة الله متغيرة ومتطورة، فإذا كانت كذلك، فكيف بقيت الإلهية أبدية وثابتة؟ هل يعقل أن نقول إن خالق كل شيء خلق التاريخ وفي نفس الوقت ادّعى أن المشيئة الإلهية تتغير مع التاريخ؟

إن هذه الأسئلة وغيرها الكثير تجعل المتشددين والمعتدلين يتساءلون هل كانت هناك نقطة معينة في التاريخ كانت المشيئة الإلهية فيها تامة وكاملة؟ إن كلاً من المجموعتين كان عليهما أن يتجادلا حول المدى الذي عنده يجب على القانون الإسلامي أن يتغير ليواكب الطبيعة المتغيرة ويواكب عادات البشر في مختلف دول العالم. وبينما يحاول الإنسان جاهدًا تطبيق المشيئة والإرادة الإلهية، تأتي المشكلة كيف نفهم التاريخ ونتفاعل معه ليلتهب الجدل بين كل من المتشددين والمعتدلين. إن هذا الموضوع يبعد الوصول إليه، وهو محوري فيما يتعلق بكيفية فهم الإنسان للرسالة الإسلامية الخالدة.

فبالنسبة للمتشددين، فقد أُعتبر من المسلمات الأساسية في الديانة الإسلامية هو أن الإسلام وصل إلى مكانته المزدهرة في فترة تاريخية أطلقوا

عليها "العصر الذهبي للإسلام". فطبقاً للمتشددين يتمثّل العصر الذهبي للإسلام في الفترة التي كان فيها النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) يحكم المدينة، وفي عهد الخلفاء الراشدين الأربعة الذين ساندوا الرسول (ص) وكانوا صحابته المقربين في حياته، ورسول الإسلام أوائل ظهور الدين الإسلامي، وهم أبو بكر (تُوفي ٦٣٤ /١٣) وعمر (تُوفي ٦٤٤ /٢٣) وعثمان (تُوفي ٦٥٦ /٣٥) وعلي (تُوفي ٦٦١/٤٠). بالإضافة إلى بعض الخلفاء الأمويين مثل عمر بن عبد العزيز (تُوفي ٧٢٠ /١٠١) ليكون خامس الخلفاء الراشدين بالرغم من أنه لم يكن من صحابة النبي (ص). إن مصطلح "الخلفاء الراشدين" يعني حرفيًا الخلفاء العاقلين الحصيفين، ويعكس في عمومه عقيدة المسلمين السُنيين بأن من يحصل على هذا اللقب يتمتع بمكانة قديرة ويتميز بالتقوى والمعرفة الدينية، ومن ثمّ، يجب الإيمان بأنهم حكماء عادلون ومنصفون. وبينما يحترم ويوقر المسلمون السُنيون الخلفاء الأربعة وإنجازاتهم، إلا أن المتشددين اعتبروا هذه الفترة هي الفترة المثالية للإسلام والتي استغرقت تقريبًا السنوات الخمسين الأولى من الإسلام، وآمنوا بأنه خلال العصر الذهبي كانت العدالة المثالية والإنصاف في أفضل أحوالها. فالمتشددون يؤمنون بأنه لا يمكن لأي نظام سياسي على مر العصور أن يتوصل إلى درجة أكبر من العدالة والإنصاف، وكذلك يؤمنون بأنه بعد مرور الخمسين عامًا الأولى من الإسلام أصبح توازن التاريخ الإسلامي في انهيار تام. ولذلك فقد آمن المتشددون أنهم إذا أرادوا أن يستعيدوا العصر الذهبي، فإنه يجب على المسلمين أن يعيدوا ويتمسكوا بالقوانين والعادات التي كانت في هذا العصر. إنه ليبدو كما لو كان التاريخ قد وصل إلى الدرجة القصوى من المجد والعزة في هذا العصر الذهبي للإسلام، ولذلك يجب على المسلمين بل على البشرية جمعاء أن تجاهد لاستعادةِ هذا الزمن الذي كان فيه التاريخ قد وصل إلى ذروته.

وكما ذكرت من قبل، فإن المتشددين في العصر الحديث يشعرون بشيء من الغربة والانعزال. وهذا الإحساس بالانعزال؛ بسبب تعلقهم بفترةٍ زمنيةٍ تاريخيةٍ مضت، ولكن هناك عدة عوامل زادت من هذا الإحساس وهي التي أقنعت المتشددين بالتعلق أكثر بهذه الفترة المثالية. ومن أهم هذه العوامل الاستبداد الظالم الموجود في كثير من الدول الإسلامية.

وكانت نتيجة هذا الاستبداد، الإحساس بالضعف واليأس، فالبشر الذين يعيشون في هذه الدول المستبدة يشعرون بأن آراءهم غير هامة أمام الحكومة. ولم يكن الثمن باهظـًا على الذين يدلون بآرائهم، ولكنه كان أيضًا بالنسبة للذين يفكرون ويبدعون، فقد كانوا يخاطرون مخاطرة شديدة إذا فكروا أو أبدعوا، ففي المجتمعات الاستبدادية يحدث أن من يكون لديه إحساس بالضمير الاجتماعي أو لديه الرغبة في المشاركة السياسية في مصالح الأمة، فعندئذ تكون أمامه خيارات محدودة: فإمّا أن يكون حذرًا مع الحدود الصارمة التي وضعتها الحكومة، وإمّا أن يتحمل المخاطرة والسلطات العقابية للدولة. فتأثير هذه القوى المستبدة هو فقدان الكرامة واحترام الذات.

وكانت الفئة التي تأثرت بشكل كبير بسبب هذا الاستبداد هي الفئة المتعلمة في المجتمع والتي ينقصها الوسائل الاقتصادية. وهذه الطبقات المتعلمة ساهمت في تطوير الوعي الاجتماعي السياسي، وهم أكثر وعيًا بحقوقهم وواجباتهم الاجتماعية، وعلاوة على ذلك، فإن الطبقات المثقفة ليست راضية عن قبول وضعها الاجتماعي، ويؤمنون بأن المزيد من التعليم والعمل الجاد، سيرفع ويحسّن مستواهم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي. فعلى سبيل المثال، إن قضايا حقوق المرأة وحقوق الإنسان ازدهرت بارتفاع نسبة محو الأميّة في المجتمع، بالإضافة إلى أن المجتمعات التي بها أعلى نسبة لمحو الأميّة والتعليم هي المجتمعات التي استطاعت إنشاء حالة مثالية من الديمقراطية.

وإذا أردنا التحدث عن العوامل التي أدت إلى الإحساس بالانعزال، فيجب علينا أن نذكر عواقب التعذيب الذي يعتبر عادة دائمة عند الدول المستبدة. إن استخدام أسلوب التعذيب في بعض سجون الدولة أدى إلى ظهور معظم الاتجاهات المتطرفة المتشددة في العالم الإسلامي. ومن الأهمية أن نشير إلى أن ممارسة التعذيب ذاتها هي التي ولدت قصصًا وروايات تحكي الرعب وشدة المعاناة، والتي سرعان ما انتشرت في المجتمع وأصبحت جزءًا من الثقافة العامة، والتي لعبت دورًا هامًا في تعميق الإحساس بالخوف والظلم وعدم الثقة بالنفس. وقد ساعدت هذه الروايات في خلق مناخ مستقطب للكره والعداوة بين المتشددين والدولة، ممّا دفع المتشددين إلى أن ينظروا إلى الدولة على أنها جزء من البيئة المعادية التي تعمل ضدهم. وأكثر من هذا، فقد زادت هذه الروايات من إحساس المتشددين بأنهم ضحايا وأنهم معزولون عن المجتمع الذي يعيشون فيه. لقد كان المتشددون مقتنعين بأن مجتمعاتهم في حالة لامبالاة وغير مهتمة بالإساءة والمعاملة الوحشية التي يلقونها، وهذا بالطبع يساهم في عملية انعزال المتشددين عن المجتمع، وهذه الأفعال التعذيبية جعلت المتشديين أكثر تطرفــًا بسبب الوحشية وسوء معاملتهم كبشر. فعلى سبيل المثال،"صالح سرايا" الذي تم إعدامه في عام ١٩٧٥، و"شكري مصطفي" الذي أعدم في عام ١٩٧٨، وهما من رواد المنظمة المتشددة المتطرفة، فقد كانا عضوين في منظمة الإخوان المسلمين، ولكنهما أصبحا متطرفين بعد التعذيب الذي وقع عليهما في مصر. إن منظمة الإخوان المسلمين السورية أصبحت متطرفة، ولجأت إلى العنف في عام ١٩٨٢ بعد معاناة سنوات طويلة من التصرفات العدوانية من الحكومة السورية ضدهم، بالإضافة إلى ذلك، ليس من قبيل الصدفة أن الحكومة السعودية، والتي هي واحدة من أسوأ منتهكي حقوق الإنسان في الشرق الأوسط، هي واحدة من الحكومات الرئيسية الأكثر تعصبًا وعنفًا وتطرفًا.

إن الحكومات المستبدة في العالم الإسلامي، والتي تنتهك حقوق الإنسان، تميل إلى اتباع أسلوب واحد من اثنين: فإمّا أن تستهدف وتضطهد جميع المنشقين عليها دون النظر إلى أصولهم سواء أكانوا متشددين أم لا، أو أن تلك الحكومات تستهدف الحركات الإسلامية التشددية، فالنظام الأول تمثله المملكة العربية السعودية، والعراق التي كان يحكمها صدام، وسوريا وليبيا وإندونيسيا والسودان، فهذه الدول قد قامت بسجن وتعذيب كل من عارض الحكومة حقيقةً أو تصورًا، كما قامت بتعذيب كل من دافع عن حقوق الإنسان أو من يحاول نشر الأفكار التي تضر بموقف الحكومة في الدولة. وقد اضطهدوا الحركات التشددية؛ لأن سياسات هذه الحركات لا تتفق مع سيادة الدولة وسياستها. وفي الواقع، فإن اضطهاد الحركات التشددية كان يتوقف على مدى تعارض أفكارهم مع سياسة الدولة. ونتيجه لذلك، فإنه في دول مثل: العراق وليبيا وسوريا، قد انتهت أغلب الحركات الإسلامية نهاية وحشيه؛ بسبب أفكارهم التي تتعارض مع أفكار الدولة. ففي المملكة العربية السعودية تمتعت الحركات التشددية بدرجة عالية من الحماية، بينما المجموعات التحررية والصوفية وأغلب الحركات الشيعية تعرضت للاضطهاد الشديد. أما النظام الثاني، فقد كان يتضمن دولاً مثل: مصر وباكستان والكويت والجزائر والمغرب وتونس وأوزباكستان. فقد كانت هذه الدول تضطهد كلاً من المجموعات السلفية التشددية والمنظمات التشددية القتالية. فلو وقع أحد هذه المجموعات في يد الحكومة فلن يحصل أو يجد أي رحمة. وسواء كان النظام الأول أو الثاني، فأنا لا أرى أي فارق في النتائج. إن استخدام العنف والاستبداد من جانب الحكومة ضد أي مجموعة لابد أن يؤدي إلى انتشار الخوف والقلق بين المسلمين. ومع بعض الاستثناءات الملحوظة، كما هو الأمر مع المملكة العربية السعودية، فسنجد أن التأثير العام لسياسة الحكومات الإسلامية سواء اتبعوا النظام الأول أو الثاني، فلا

يختلف كثيرًا، وهو قمع الحركات التشددية، وهذا وحده هو الذي شارك في خلق إحساس بالعزلة لدى الحركات التشددية، وأنهم باتوا ضحية هذا الإحساس الذي كان الوقود للنظريات التآمرية لدى المتشددين، والتي أصبحت مكونًا أساسيًا لهم على مستوى العالم. وفي النهاية، فإنه لايوجد شك في أن التصادم بين المتشددين والحكومات الإسلامية الاستبدادية غير المحبوبة، أعطى المتشددين مستوى من التعاطف الشعبي وحتى أولئك الذين يعتقدون أن أفكار المتشددين هجومية ومثيرة للمشاكل.

إن إحساس المتشددين بالانعزال كان أكثر تعقيدًا من العداوة ضد الحكومات الديكتاتورية التي تحكم بلادهم، فقد آمن المتشددون بأن تجربة الاحتلال الغربي للأمة الإسلامية ليس لها نهاية. وآمنوا كذلك بأن الغرب مايزال يحتل ويتحكم في العالم الإسلامي، وبالأخص في قلب الجزيرة العربية في الشرق الأوسط. فمن وجهة نظرهم، أن إسرائيل قد خلقت سياسة تضمن بها أن يظل العرب غير متحدين وضعفاء. وعلاوة على ذلك، فقد آمنوا أيضًا أنّ حكام الدول الإسلامية ليسوا إلا أتباعًا للقوات المحتلة، ومن يتمتع بالقوة من دول الغرب، خاصة أؤلئك الذين يمارسون الضغط على الدول الإسلامية، وقد آمنوا بأن الشكل المعاصر للاحتلال يتمثل في أن الغرب يؤمنون بأنهم إذا وضعوا حكامًا تابعين لهم، فسوف يكون ذلك أقل تكلفة من محاربة الدول الإسلامية، وسوف يؤدي نفس المهمة. وهذا الاتهام أصدره المتشددون في بعض الأوقات ضد حكومات بعض الدول الإسلامية مثل: مصر والأردن وتونس والمغرب وسوريا والعراق والكويت والبحرين ودولة الإمارات وعمان والسودان وأوغندة وباكستان وإندونيسيا.

ولقد أظهرت المملكة العربية السعودية حالة خاصة جدًا من الحركات التشددية، فعلى الرغم من أن العائلة السعودية اكتسبت قوتها من بريطانيا، إلا أنها أصبحت تعد في مأمن من نقد المتشددين خلال السبعينيات والثمانينيات،

ولكن الموقف اختلف في التسعينيات مع أول حرب الخليج. إذ أصبحت بعض الحركات التشددية تنتقد الحكومة السعودية؛ لأنها رحبت وتعاونت مع القوات الأمريكية في الجزيرة العربية. ومع هذا، فإن أغلب الحركات التشددية كانت منحازة إلى الحكومة السعودية واعتمدت ماليًا على المنح السعودية. ولكن بعد الغزوات الأمريكية الأخيرة على أفغانستان والعراق، تعاطفت بعض الحركات التشددية مع "ابن لادن" و"طالبان" وبدأوا في اتهام الحكومة السعودية بخيانة السلفيين الوهابيين، وأطلقوا عليها اسم "الحكومة الكافرة". وقد أدت هذه الأحداث لمصادمات عديدة بين المتشددين والحكومة السعودية، ومع ذلك فمن وجهة نظري، أنه عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر اضطرت السعودية إلى أن تبعد نفسها عن الحركات التشددية. ومن المستبعد جدًا، أن المملكة العربية السعودية ستتوقف عن أن تكون الداعم الرئيسي للنظرية التشددية في العالم الإسلامي. ومع ذلك، فمن الممكن أن تحاول المملكة السعودية إقناع الحركات التشددية بتوجيه أساليبها، بحيث تنحصر في محاربة المسلمين الضالين مثل "الحركات التحررية والنسائية" تاركين الدول الغربية بلا حرب.

وبالنسبة للمتشددين، فإن كلاً من بريطانيا وفرنسا تمثلان المحرك الرئيسي لاستمرار النظرية التي تحارب الإسلام. ولكن منذ أصبحت الولايات المتحدة هي القوة العظمى في العالم، فقد أصبحت المحرك الرئيسي لهذه النظرية. فبعد الغزو السوفيتي على أفغانستان والحرب في البوسنة والشيشان، تمت إضافة روسيا إلى قائمة الدول المعادية للإسلام. فقبل اعتداءات الولايات المتحدة الأمريكية الأخيرة على أفغانستان والعراق، كان المتشددون يعتقدون أن الطرق الروسية كانت غير عقلانية، بينما الطرق الأمريكية كانت أكثر دهاء وتآمرًا.

ولقد كان هناك هجوم آخر على العالم الإسلامي، والذي لام فيه المتشددون الغرب بوجه عام والولايات المتحدة بشكل خاص. فبالنسبة للمتشددين، تمثل السيطرة العسكرية جزءًا صغيرًا من عملية السيطرة على العالم الإسلامي، إذ إن الغزو الثقافي يعد من أخطر أنواع الغزو. فهو يتضمن نشر الثقافة الغربية وعاداتها وآدابها في العالم الإسلامي. وقد اتخذ هذا الغزو الفكري أشكالاً عديدة. إن الحكام الذين هم في الحقيقة وكلاء للغرب، قد سمحوا بإدخال الموسيقى والفن والاستعراضات الغربية، وسمحوا بتأسيس معاهد أجنبية في جميع أنحاء العالم الإسلامي، ولقد آمن المتشددون أيضًا بأن الغرب يحاولون إقناع المسلمين بأن المؤسسات الغربية تعد أكثر ديمقراطية وعدلاً من المؤسسات الإسلامية مثل الخلافة. ولقد اعتقد المتشددون أن ما أراده الغرب من خلال هذه العملية هو جعل العالم الإسلامي في حالة من الضعف وعدم الفاعلية. فالغزو الغربي هدفه التأكد من عدم إمكانيه استعادة العصر الذهبي الإسلامي، وهذا هو سبب عدوانية المتشددين للغرب.

إن عداوة المتشددين للغرب لا تنفصل عن التجربة الاستعمارية والفشل الذي عاناه المسلمون في فترة ما بعد الاستعمار. فكثير من الدول الإسلامية ليست فقط استبدادية، ولكنها أيضًا فشلت في تطوير نفسها، فقد عجزت تلك الدول عن أن تكوّن أساسًا صناعيًا وتكنولوجيًا تتنافس به في السوق العالمية. فقد ألقى المتشددون باللوم على الغرب في هذا العجز والفشل. وبالطبع، فإن صراع إسرائيل الدائم وقوتها العسكرية وسيادتها التكنولوجية، هو خير مثال لوجهة نظر المتشددين. ومن أسباب عدم موافقة المتشددين لعمل سلام مع إسرائيل؛ أنهم يؤمنون بأن الهدف الأساسي لإسرائيل هو إذلال وإهانة المسلمين، وقيام إسرائيل ووجودها يعد جزءًا من عملية الغرب للقضاء على العالم الإسلامي. وثاني أهم سبب يرتبط بالمسجد الأقصى في القدس، إنه لا

يوجد نقاش في أن القدس وبخاصة المسجد الأقصى يحتل مكانة خاصة في قلوب المسلمين، فإنه يعتبر ثالث المدن المقدسة في الإسلام. وبما أن المسجد الأقصى ذو مكانة خاصة في قلوب المؤمنين، فإنه يجب أن نتذكر دماء الكثير من المسلمين التي سالت على جدران القدس لحمايتها وصد هجمات الصليبيين عنها. ولذلك فإن احتلال الإسرائيليين لها وتحكمهم في المسجد الأقصى يعد السبب الرئيسي لمعاداة المتشددين لعمل سلام مع إسرائيل.

إن المتشددين ليسوا ضد الحداثة، ولكنهم يؤمنون أن الحداثة هي مفهوم متحيز ثقافيًا للغرب. وعلى سبيل المثال، فإن ثقافة الحداثة مع مبادئها عن حقوق الإنسان وحقوق المرأة وحقوق الأقلية وحرية الديانة والديمقراطية، هي مبادئ غربية، وبالتالي فإنها تعد مبادئ غريبة عن العالم الإسلامي. وبالرغم من ذلك، فإن المتشددين ميزوا بين ثقافة الحداثة والحداثة نفسها. فقد فرقوا بين الحداثة والثقافة الغربية. فالحداثة مقبولة، ولكن الثقافة الغربية مرفوضة. ولكي تصبح الحداثة حقيقية في نظر المتشددين، فإنه يجب استعادة العصر الذهبي للإسلام. وهذا لا يعني إلغاء التكنولوجيا والعلوم التي اخترعها الغرب، ولكن من أجل مقاومة الحضارة الثقافية الغربية، فإنه يجب على المسلمين ألا يحاولوا دراسة العلوم الاجتماعية أو الإنسانية. وكان هذا سببًا في مجيء الكثير من المتشددين إلى الغرب للدراسة، ولكنهم ركزوا دراستهم على العلوم الفيزيائية وعلوم الكمبيوتر وأهملوا كل العلوم الاجتماعية والبشرية. ولقد آمن المتشددون بأنهم إذا تسلحوا بالعلوم التكنولوجية الحديثة، فإنهم سوف يستطيعون استعادة العصر الذهبي للإسلام عن طريق خلق مجتمع مماثل لمجتمع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الذي كان في مكة والمدينة.

وعلى الرغم من أن المتشددين تلاعبوا كثيرًا بالألفاظ، إلا أنها لم يكن لها معنى، فالمتشددون – في الواقع – قد ساووا بين الحداثة والتقدم التاريخي في

نقطة الإنجازات البشرية النهائية، بالادعاء أنه من أجل حداثة حقيقية، فإنه يجب على البشرية أن تعود إلى العصر الذهبي للإسلام. كما يؤكد المتشددون أن التاريخ قد وصل إلى قمته في العصر الذي كان يحكم فيه النبي (صلى الله عليه وسلم) مكة والمدينة، ومن بعده صحابته والخلفاء الراشدون. والاختلاف هنا هو أن المتشددين يرون أنه بإمكانهم أن يستغلوا العلوم والتقنيات الحديثة من أجل تقوية مركزهم، وبذلك فإنهم يستطيعون تحقيق نظريتهم في خلق العالم المثالي.

وكما ذكرنا من قبل، فإن دراسة موضوعات معينة مثل الفلسفة ونظرية الديمقراطية، تعد كلها محرمة عند المتشددين. وعلاوة على ذلك، فقد حذر المتشددون المسلمين من أن يدرسوا العلوم الإسلامية في المعاهد الأجنبية؛ لأنهم يؤمنون بأن العلماء الغربيين سوف ينتهزون الفرصة كي يزرعوا الشك في قلوب المسلمين، إضافة إلى أنهم يؤمنون بأن العلماء الغربيين سوف يحاولون جعل المسلمين يتجهون إلى طوائف إسلامية غير صحيحة، مثل طائفة المعتزلة (العقلانيين) وطائفة الشيعة. وطبقًا للمتشددين، فإن التعرض للمفاسد التاريخية وأشكال الهرطقة قد يخلق الشك في قلوب المؤمنين ويجعلهم يبتعدون عن الطريق الصحيح للإسلام، فإن هذه النظريات التشددية قد زادت من انعزال المتشددين في العصر الحديث.

ولقد ذهب المتشددون إلى أبعد من رفضهم لدراسات فكرية معينة. فهناك قاعدة أساسية عند المتشددين ترى أن المسلمين يجب أن تكون لهم ممارسات ثقافية تكون معارضة للغرب. وهذا النوع من المقاومة الثقافية غالبًا ما يأخذ أشكالاً سطحية. فعلى سبيل المثال، قد أكد المتشددون أنه غير مسموح للمسلمين بأن يستخدموا معجون الأسنان في تنظيف أسنانهم، ولكن يجب عليهم أن يستخدموا غصنًا صغيرًا يُعرف بالمسواك. والسبب في ذلك، هو أن المسلمين يجب أن يقعلوا ويفعلوا كل ما في وسعهم من أجل تمييز أنفسهم

عن غير المسلمين، ولأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يستخدم المسواك في تنظيف أسنانه. فلقد فات هؤلاء المتشددين أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد استخدم المسواك في الوقت الذي لم يكن قد اخترع فيه معجون الأسنان.

ويجب أن أعترف أنني وجدت المنطق الانتقائي للمتشددين غريبًا ومثيرًا للفضول. فعلى سبيل المثال، هم لم يُحرّموا استخدام المظلات بالرغم من أن النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه لم يستخدموها. وبالرغم من ذلك فقد حرّم المتشددون ارتداء ربطات العنق واعتبروها بدعة غربية. وهم أيضًا لم يحرّموا ارتداء الملابس التحتية على الرغم من أن هذا النوع من الملابس لم يكن متوفرًا في أيام النبي (صلى الله عليه وسلم).

إن الافتراضات التي فرضها تفكير المتشددين كانت من أجل التمييز وجعل المسلمين مختلفين عن غير المسلمين. ولذلك، فقد أكد المتشددون على أنه بدلاً من التصفيق بالأيدي، فإنه يجب على المسلمين أن يُكبّروا بصوت مرتفع ثلاث تكبيرات (الله أكبر). وإذن، فإن المتشددين يؤمنون بأن المسلمين يجب أن يتميزوا عن غير المسلمين ولو ترتب على ذلك ضياع الفائدة أو وقوع ضرر مترتب على هذه العادات. إن موقف المتشددين يعد غريبًا جدًا. وبالمثل فقد حرّموا الاحتفال بأعياد الميلاد أو إهداء الورود للمرضى؛ لأن كل هذا يعد عادة غربية، ولذلك فإنه يجب على المسلمين الابتعاد عنها ورفضها، وأن يمارسوا شيئًا مختلفـًا عنها تمامًا؛ والغريب هنا أنه بالرغم من أن المتشددين حرّموا اتباع العادات الغربية وأمروا المسلمين باتباع عادات مختلفة عنها تمامًا، إلا أن المتشددين لم يحرّموا استخدام الأسلحة والعلوم الغربية والتكنولوجيا الغربية مثل الكمبيوتر والهواتف المحمولة.

إن رفض المتشددين للحضارة الغربية وتفاعلهم مع الحداثة يعد جزءًا هامًا في شخصيتهم، فقد تمسكوا بعصر معين في الإسلام وأطلقوا عليه

العصر الذهبي وسخّروا كل تطوراتهم من أجل محاكاة هذا العصر. ويرغم ذلك، فإنهم لم يكونوا متشبثين بهذا العصر. فلم يكن لديهم صبر وكانوا مستبدين لدرجة أنهم لم يحاولوا اكتساب فهم متطور للتاريخ، ولو كان هذا التاريخ هو التاريخ الإسلامي. وبالتالي فعلى أي أساس بنوا أنفسهم؟ ولقد ذكرت على سبيل المثال، أن طريقة المتشددين في الملبس كانت أكثر تشبهًا ببدع هوليود، ولم تكن تشبه طريقة ملابس الصحابة في عهد الرسول (ص). فهناك مصادر تاريخية تؤكد أن الصحابة على عهد الرسول (ص) – في القرن السادس – كانوا يرتدون ملابس من قطعة واحدة والتي نادرًا ما كانت تغطي الجسد بأكمله، وقد كانت هذه الملابس مليئة بالثقوب والأتربة. وارتداء الكثير من الملابس يعني شيئًا واحدًا وهو الثروة الباهظة. فالملابس المصبوغة كانت باهظة جدًا ولم تكن متوفرة لكثير منهم. ولكن طريقة ارتداء المتشددين هي أقرب لهوليود والأفلام المصرية أكثر من استنادها إلى المصادر التاريخية الفعلية. وهذا دليل واضح على أن المتشددين بنوا أفكارهم على أساس الغرب وليس على أساس الوصول إلى أصالة الإسلام. لقد وضع المتشددون أنفسهم في دائرة مغلقة، عزلوا أنفسهم فيها عن العالم والحداثة وعاشوا في عالمهم التخيلي متمسكين بالماضي. ولكن كلما انعزلوا عن الحضارة، زاد تمسكهم بالماضي، وبالتالي تزداد كراهيتهم للحداثة.

والمعتدلون لا يعتقدون أن الإسلام وصل إلى أقصى مراحل ازدهاره في العصر الذهبي أو حتى في عصر الرسول (ص). فإمكانية أن يعود للإسلام ازدهاره ممتدة على مر العصور، إذ يمكن أن يصبح الإسلام أكثر ازدهارًا في المستقبل مما كان عليه في الماضي. ولذلك اهتم المعتدلون بالتاريخ؛ لأنه يسجل النجاحات والإخفاقات التي حدثت في الماضي. فالمعتدلون لا يعتقدون بأن التاريخ سوف يكرر نفسه، إذ إن كل فترة زمنية تمثل أحداثًا منفردة يجب على المسلمين دراستها كي يتعلموا الدروس المستفادة منها. وهذا يعني

أنه يجب ألا نجعل الماضي مثاليًا، بل يجب أن نقر بأخطاء الماضي ونتعلم منها. أما النجاحات السابقة فيجب الاحتفال بها لا عبادتها. إن الإسلام بالنسبة للمعتدلين يعد قوة تقدمية تسير باستمرار نحو الأفضل وكل جيل له إنجازاته وأخلاقه.

وطبقـًا للتعاليم النبوية، فإن الحكمة والمعرفة ليست لها جنسية، ولذلك لا يهم مصدر المعرفة ومع من تكون، لكن المهم هو استخدام المسلمين لهذه المعرفة في عبادة الله ولتحقيق الخير على الأرض. ولذلك فإن من أهم صفات المعتدلين هو أنهم استفادوا استفادة كاملة من التقدم العلمي والعلوم الاجتماعية والسياسية. فهم يؤمنون بأن الاستفادة من هذه العلوم سوف تحسّن وتطور من الحياة الاجتماعية والتصرفات الأخلاقية والبناء السياسي والاقتصادي. وانه من المستحيل أن نتوصل إلى الأهداف الأخلاقية والمعنوية للديانة الإسلامية دون فهم مطالب وتحديات كل عصر. ولا يمكن أن نفي بواجبنا تجاه الله وأن نتبع الخير ونبتعد عن الشر دون فهم تغيرات وتحولات حالة البشر. وكما ذكرت من قبل بجانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن القرآن أمر المسلمين بتعمير الأرض وعدم الإفساد فيها وعدم إراقة الدماء أو نشر الرعب والخوف، ولذلك، فالمعتدلون يعتقدون بأن الميراث الإنساني غير قابل للانقسام، وأن الإسلام – من خلال جهود المسلمين – لابد وأن يسهم في الجهد المبذول لتعمير الأرض وتجنب إفسادها.

ولقد حاول المعتدلون وضع موازنة بين التغيرات الواجبة لمسايرة الحداثة وبين الحاجة إلى الأصاله التاريخية. إن هذا التوازن مختلف باختلاف المفكرين المسلمين، وهذا الاختلاف من أجل توافق التراث الإسلامي مع تطورات العصر والحداثة. وقد توصل العصر الحديث إلى طرق جديدة للمعرفة والفهم ووجهات النظر والحقيقة والإدراك، ويجب على التقاليد

الإسلامية أن تساير هذه النماذج العصرية. فعلى سبيل المثال، هناك دراسات عديدة في العصر الحديث حول طبيعة الذاكرة البشرية وقواعد النوع والطبقة والجهود المبذولة ضد الاستبداد ووظيفة المجتمعات المدنية. والسؤال الذي طرحه المعتدلون هو: كيف تخدم هذه المعرفة والفهم التقاليد الإسلاميه؟ وكيف يساهم الإسلام في الإدراك والمعرفة؟ وفي كل الأحوال لم يهمل المعتدلون الحداثة باعتبارها شيئًا ليس لهم به صلة، وأيضًا لم يتركوا التاريخ الإسلامي كما لو كان عديم الأهمية.

إن علاقه المعتدلين بالغرب متعددة الأوجه، وهناك قصة تلقي الضوء على هذا التعدد. ففي بداية العشرينيات، عندما زار العالم المعتدل المصري "رفاعة الطهطاوي" باريس وكان شديد التأثر بالمدينة، فقد لاحظ أن المدينة نظيفة وجميلة ومرتبة، وأن البارسيين في فرنسا يعملون بجهد ونظام وانكبوا على العلم والإنتاج. وعندما عاد الطهطاوي إلى مصر، كتب تعليقـًا مثيرًا للجدل، فقد قال الطهطاوي: "في باريس، رأيت الإسلام على حين لايوجد هناك مسلمون، ولكن في مصر رأيت مسلمين ولكن بدون إسلام". فمن الواضح أن هذه المقولة مبالغ فيها جدًا، لكن ماقصده الطهطاوي هو أن البارسيين حققوا المبادئ الأخلاقية للإسلام من دون قصد، على الرغم من أنهم ليسوا مسلمين. أما في مصر، فقد كان الناس مسلمين، ولكن بقيت التعاليم الإسلامية ناقصة وغير مطبقة. فمن وجهة نظر الطهطاوي، يجب على المسلم أن يعمل بجد وأن يكون منظمًا ومتعلمًا ومثقفًا، ولكن أن يكون الإنسان غير منضبط وغير متعلم فهذا يعد مخالفًا للديانة الإسلامية.

ولقد صورت مقولة "الطهطاوي" قلقـًا شديدًا في تفكير المعتدلين. فقد آمن المعتدلون بأن هناك مبادئ معينة مثل: العدل والمساواة والصدق والاجتهاد والإبداع والإنتاج والانتظام يجب أن تطبق عالميًا. ولقد أطلق البعض على هذه المبادئ "مبادئ الحضارة" وهذه المبادئ تساعد على التطور

الاجتماعي والاقتصادي. وعندما نتكلم عن تحقيق هذه المبادئ، فإن الإسلام أمر المسلمين أن يكونوا في المقدمة، وأن يكونوا خير مثال لكل الأمم. وبالرغم من ذلك، فإن كثيرًا من المجتمعات الإسلامية فشلت في تحقيق هذه المبادئ، ولذلك فما تزال هذه المجتمعات غير متطورة ومتأخرة، بينما التزم الغرب بهذه المبادئ وطبقوها، وبهذا أصبح في المقدمة، ولذلك أعجب المعتدلون بالغرب واحترموهم. إن أفكار المعتدلين التحررية الديمقراطية أدت إلي اضطهادهم في أوطانهم، ووجدوا الحرية والملاذ في الغرب. والحقيقة المؤسفة هي أن الكثير من العلماء المعتدلين سجنوا وتم تعذيبهم من قبل حكومات دكتاتورية في بلادهم، فهربوا إلى الغرب؛ لأنهم وجدوا هناك الحرية والديمقراطية.

إن موقف المعتدلين من الغرب يقوم على الاحترام والإصرار على أن الإسلام لم يكن معاديًا للغرب أو هو ضد الغرب. واسترشادًا بالقيم المعنوية والأخلاقية للإسلام، فقد اتجه المعتدلون إلى فحص ودراسة الحضارة الغربية وممارساتها وعاداتها وحاولوا أخذ أفضل هذه الأساليب وترك أسوأها. إن مقياس رفض أو قبول هذه الأساليب كبير جدًا، فعلى سبيل المثال، فقد اعترض المعتدلون على مسابقات الجمال. وعدد كبير من المعتدلين رأوا أن ممارسة التوظيف لمن يرغب في العمل ثم السهولة التي يفقد بها العاملون وظائفهم، تعتبر من وجهة النظر الإسلامية عملاً مهينـًا، ولكن كثيرًا من الثقافة الغربية ليس فقط مقبولاً إسلاميًا بل ومرغوبًا فيه. وقد امتدح المعتدلون العادات الغربية في كتاباتهم مثل الالتزام والحرية العلمية.

ومعظم المعتدلين يعارضون بشدة السياسة الخارجية للغرب وبخاصة سياسة الولايات المتحدة تجاه العالم الإسلامي، وبخاصة الشرق الأوسط. فالمعتدلون لا يوافقون على الأسباب التي وراء هذه السياسات، واعترضوا أيضًا على الإمدادات والمساعدات التي تقدمها الولايات المتحدة لإسرائيل

لتتشر سيطرتها على فلسطين. ومن أهم الأشياء التي تفرق بين المعتدلين والمتشددين، هو أن المعتدلين لا يؤمنون بحتمية الخلاف والصراع بين المسلمين والغرب، والأهم من ذلك هو أن المعتدلين يؤمنون بأن الطريقة التي يجب أن تتبع من أجل تطور المسلمين ونشر الديمقراطية في بلادهم هو التأمل في النفس والنقد الذاتي، لكي يصلوا إلى تنمية الدول الإسلامية. إن معظم المعتدلين لا ينكرون تأثير الاستعمار والاحتلال، ولكن كمسالة مبدأ، فإنهم يرفضون أن يتخذوا الاستعمار على أنه كبش فداء وأن يستخدموه لتجنب مسؤولية فشل المسلمين. فالمعتدلون على سبيل المثال خلافـاً للمتشددين، لا يؤمنون بأن إسرائيل هي السبب في فشل تطور العديد من الدول الشرقية الإسلامية.

فمن وجهة نظر أغلب المعتدلين المسلمين، إن المشكلة الرئيسية للمتشددين هي أنهم فهموا الديانة الإسلامية على أنها في مواجهة مع الغرب. أمّا بالنسبة للمعتدلين فقد رأوا أن هذه الطريقة تعد طريقة عدوانية لمعنى الدين وتعريفه. لقد اعتمد المتشددون على الأوامر والوصايا الإلهية في عدم اتباع اليهود والمسيحيين بدون تفكير، واعتمدوا أيضًا على بعض وصايا الرسول (صلى الله عليه وسلم) للمسلمين بأن يكونوا مختلفين في مظهرهم عن غير المسلمين، ولكن لم يستطع المتشددون فهم المغزي من الأوامر الإلهية، فهذه الأوامر تهدف إلى حث المسلمين على الحرص في اختيار طريقتهم في الحياة. أما مبدأ الانعزال الذي اتبعه المتشددون، فهو بعيد جدًا عمّا أمر الله به وما أراده من المسلم أن يكون عليه. والأهم من ذلك هو أن المتشددين حوّلوا الإسلام إلى مذهب ينفي الآخرين ويمنع التعامل معهم، بينما تعامل المعتدلون مع دينهم بطريقة مختلفة تمامًا عن طريقة المتشددين الرجعية المتعسفة.

الفصل التاسع

الديموقراطية وحقوق الانسان

كثير من المسلمين وغير المسلمين في جميع أنحاء العالم اليوم يؤمنون بأن الديمقراطية وحقوق الإنسان تعتبر أساسًا من الأمور الشاذة والغريبة بالنسبة للإسلام. ومن وجهة نظري، فإن موضوع ما إذا كان الإسلام يدعم ويساند النظام الديمقراطي الذي يحترم حقوق الفرد، يمثل - إلى حد بعيد- أهم تحدٍ يواجه المسلمين اليوم. وإنه - بلا شك - توجد نماذج مختلفة لحكم ديمقراطي ناجح، ولعله يكون من الأمور الخادعة أن ندّعي أن كل البشر حول العالم سوف يتفقون على حقوق بعينها تكون هي التي يجب أن يُعترف بها كحقوق أساسية عامة لكل البشر. وعلى أية حال، فإن المجموعة الرئيسية للقضايا التي تواجه المعتدلين والمتشددين على قدم المساواة، هي ما إذا كان - من حيث المبدأ- يحق للناس أن يمتلكوا الحق الجماعي في اختيار وانتخاب حكوماتهم وأن يحددوا مجموعة القوانين التي ستحكمهم. وبشكل أكثر تحديدًا، ومن تلك القضايا موضوع ما إذا كان المسلمون الأتقياء يمكن أن يخضعوا لنظام سيادة البشر على شئونهم الخاصة، واستطرادًا مع ذلك، فهل المسلمون ملزمون بالاعتراف بأن الله هو الحاكم وأن له السلطة في أن يمنع البشر من أن يكونوا أحرارًا في تصريف شئونهم، حسبما يعتقدون أن ذلك هو المناسب؟ وبإيجاز هل علوم الدين الإسلامية والشريعة يمنعان بشدة المسلمين من الاعتقاد والتطبيق للنظام الديمقراطي للحكومات؟.

إن موضوع حقوق الإنسان يثير مجموعة مشابهة من المشاكل، وفي الحقيقة وبصور مختلفة، فإن تحدي حقوق الإنسان هو جزء لا يتجزء من تحدي حقوق الديمقراطية. ومن المشكوك فيه، وجود أي نظام للحكم عدا الديمقراطية له القدرة على دعم نوع الضمانات الإجرائية اللازمة لحماية

وتطوير الحقوق الإنسانية للفرد. وعلى أية حال، فإنه عند التفكير في موضوع الإسلام وحقوق الإنسان، فإنه يجب أن نفرق بين عديد من الأسئلة التي تكون وثيقة الصلة، وكل منها يثير مجموعة من المشاكل. وأحد هذه الموضوعات يدور حول ما إذا كانت الشريعة الإسلامية قد أمدتنا بمجموعة فريدة خاصة بتلك الشريعة التي تتعلق بحقوق الفرد التي من الممكن أن تتوافق في بعض النواحي، أو ربما تتضارب مع حقوق الإنسان المعترف بها من قبل المجموعة الدولية. وبدلاً من ذلك، فهل الشريعة الإسلامية لم تزود المجتمع من قبل بقائمتها الخاصة بحقوق الفرد؟ وهل من الممكن للمفسرين المعاصرين أن يدلفوا إلى التراث الفكري الإسلامي فيستنبطوا منه ويجمعوا مجموعة من الحقوق التي تتوافق مع العقيدة الإسلامية؟ وهل إذا تناولنا الأمر بشكل مختلف يمكن لقراء معاصرين لنصوص إسلامية أن يفسروها بمثل الطريقة التي تدعم نظام الحقوق الإنسانية الخاصة بالفرد، والتي هي جديدة ومبتكرة كلية في التاريخ الإسلامي؟.

وعلى الرغم من ذلك، فإن هناك احتمالاً آخر بأن المسلمين لا يستطيعون بل يواجهون، وما إذا كانت العقيدة الإسلامية - أساسًا - على خلاف مع فكرة حقوق الفرد؟ بعبارة أخرى، هل هناك شيء في الدين الإسلامي لايسمح للمسلمين بأن يعترفوا أو يؤمنوا بحقوق الفرد؟ وثمة سؤال مختلف إلى حد ما، وهو ما إذا كان هناك قوانين إسلامية معينة - على سبيل المثال- القوانين التي تتعلق بمشاركة المرأة في الميراث وشهادة المرأة في المسائل الجنائية وأمور أخرى متعددة تشتمل على قوانين الزواج والطلاق أو عقوبات جنائية خاصة. فهل تلك القوانين الإسلامية تتعارض مع المعايير الدولية المعاصرة لحقوق الإنسان؟ وإذا كان الأمر كذلك، فهل يمكن تغيير معايير القانون الإسلامي أم تغيير معايير حقوق الإنسان العالمية حتى لا يكون الأمران متعارضين؟.

وبصورة جزئية، إن مايجعل الديمقراطية وحقوق الفرد موضوعًا مثيرًا للجدل ليس لأنه يكمن فقط في الإسلام، ولكن لأنه مبثوث في ثقافات كثيرة في جميع أنحاء العالم، وإنما انبثق كلا المفهومين من التجارب التاريخية الفريدة للغرب. وسواء أكان مرغوبًا أوحتى ممكنًا نقل الديمقراطية وحقوق الفرد خارج بيئتهما الطبيعية التاريخية في الغرب إلى العالم غير العربي، فإن ذلك أمر يستحق أن يناضل من أجله إلى حد بعيد. وعلى الرغم من وجود معاهدات وإعلانات عالمية دونت قائمة طويلة عادلة للحقوق تزعم أنها تخص جميع البشر، إلا أن كثيرًا من المسلمين وغير المسلمين أكدوا على أنه لا توجد مجموعة معينة من الحقوق يُعترف بها من قبل كل الثقافات وكل الناس. وهؤلاء الكتاب الذين تناقشوا في أن أية محاولة لوضع قائمة بحقوق معينة يفترض أن تكون عامة وسارية المفعول بالنسبة لجميع الناس، لهي – بالضرورة – داخلة فيما يطلقون عليه المسلمات الكاذبة. وفي الحقيقة، فإن الحقوق التي أُدرجت في معاهدات وإعلانات عالمية تتجه إلى اختلاف كبير. فعلى سبيل المثال، فإن هذه الوثائق الدولية تتحدث عن حق الإنسان في حرية المعتقد وحرية الضمير وحرية التعبير والحق في الخصوصية، بل وتحدثوا أيضًا عن الحق في المأوى والطعام والمعيشة، بل وحتى الحق في إجازة مدفوعة الأجر وفي إجازة تتصل بالأمومة، ولذا، فإنه لايمكن مناقشة ما إذا كان كل حق موجود – على سبيل المثال– في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وميثاق الحقوق السياسية والمدنية متوافق مع الديانة الإسلامية أم لا. ومع ذلك، فإن النقطة الهامة هي التركيز على ما إذا كان المتشددون والمعتدلون يتقبلون فكرة حقوق الإنسان على أنها مبدأ أو على أنها مفهوم، وعمّا إذا كان يوجد مخطط إسلامي لحقوق الإنسان أم لا.

إن معظم المسلمين المعتدلين يشكّون كثيرًا في فكرة أن أيًا من الديمقراطية أو حقوق الإنسان والتي تُدعى بالمسلمات الكاذبة، أو الممارسات الغربية

الفريدة لا تتوافق ولا تتناسب مع أي ثقافة أخرى. إن هذه الدعاوى غالبًا ما تهدف إلى إخفاء درجة معينة من العرقية؛ لأنها تبلغ رأيًا مفاده أن المجتمعات غير الغربية هي بطبيعتها الحقيقية عاجزة عن العيش في نظام حكومي ديمقراطي مرتبط بقانون معين، وكذلك فهي لا تستطيع فهم أو احترام حقوق الإنسان. وبالرغم من أن الغرب اخترعوا فكرة الديمقراطية والمبادئ الأساسية لحقوق الإنسان، إلا أن هذا لا يعني أن البشر غير الغربيين محكوم عليهم بالمعاناة من الاستبداد إلى الأبد. إن المسلمين المعتدلين يؤمنون بأن احترام حقوق الإنسان هو مبدأ أخلاقي أساسي وليس مسلمة كاذبة، ويجب أن يُطالب به ويُتابع كهدف مرغوب بشكل أخلاقي. وفي الحقيقة، فإن كثيرًا من المسلمين المعتدلين يؤمنون بأنه قد لا يعتبر من المخادعة والكذب أن ندعي بأن القانون الإسلامي يقدم قائمته الجاهزة الخاصة بحقوق الإنسان أي حقوق الإنسان كمفهوم وكديمقراطية وكنظام للحكم، فهذه الحقوق متوافقة تمامًا مع علوم الدين الإسلامي وقانونه. بل لقد ذهب بعض المعتدلين - إلى أبعد من ذلك - في نقاشهم، إذ قالوا إنه ليس فقط الإسلام والديمقراطية وحقوق الإنسان متصالحة فيما بينها، لكن الإسلام يحث ويطلب نظامًا ديمقراطيًا في الحكومات.

واستنادًا إلى العقيدة الإسلامية، فلقد تناقش المعتدلون حول أنه لكل البشر على الأقل الحق في الحرية والكرامة، ويأتي في مقدمة إيمان المعتدلين بالديمقراطية وحقوق الإنسان أن الاضطهاد يعد إثمًا عند الله وعند الناس. ولقد وصف القرآن الظالمين بأنهم المفسدون في الأرض ووصف الاضطهاد بأنه عصيان لأوامر الله. وفي تفكير المعتدلين نجد أنهم يؤمنون بأن البشرية كلها لها الحق في الكرامة. كما أن القرآن يقرر في وضوح أن الله قد وهب الكرامة للبشرية كلها.

إن الحرية والاختيار يعتبران المكونان الأساسيان لكرامة البشر. وإنني لعلى قناعة من أنه من الواضح جدًا أنه عندما يتم تقييد الناس وحبسهم واضطهادهم أو إنكار حقهم في وسائل تقرير الذات، فإن ذلك يشعرهم بأن إحساسهم بقيمتهم قد انتقص. والأشد قسوة من هذا، هو السحق والقهر والأشكال المنظمة من الحرمان من الحرية والاستبداد والطغيان الذي تصبه الدولة على الناس. إن العدوان يسمح للدولة أن تسرق كرامة البشر دون وجه حق ودون السماح لأحد أن يعترض عليها. لقد اكتشف المعتدلون أن الدول المعاصرة تملك من القدرات في إجراء عمليات المراقبة ما ليس له مثيل، وأنها تتدخل - بشكل كامل - في حياة مواطنيها، وبسبب استخدام هذا الحق المطلق في استخدام القوة؛ أصبحت قادرة على التحكم في حياة الناس من خلال التهديدات وممارسة العنف عن طريق قتل المنشقين وتعذيبهم. إن القرآن يدين هذا النوع من الاستبداد واستغلال القوة، وينصح المسلمين بأن يقاوموا هذه الأفعال، وإن لم يقدروا، فيجب عليهم هجرة هذه الدول المستبدة والبحث عن أرض يطبق فيها عدل الله وقانونه. وفي الحقيقة، فإن القرآن قد صرّح بأن من يقبل العيش في هذه الأراضي المستبدة والظالمة يعد ظالمًا لنفسه.

ففي السيرة الإسلامية المشهورة نجد "عمر" وهو ثاني الخلفاء الراشدين ومن الصحابة المقربين من الرسول الكريم (ص) يعلن أن الإنسان خُلق حرًا. وقد وجّه "عمر" أحد حكامه بأن الظلم يمكن أن يكون شكلاً من أشكال الاستعباد والاضطهاد. وسأل أحد حكامه بكلام بليغ فقال له: من يملك الحق في أن يستعبد الناس وقد خلقهم الله أحرارًا؟ إن المعتدلين غالبًا ما كانوا يستندون على هذه التقاليد وغيرها في الجدال حول الحرية باعتبارها حقـًا طبيعيًا لكل البشر، وسلب الحرية من البشر يعد مساويًا لإذلالهم واستعبادهم. إن الخضوع لله وإسلام الوجه له، يصبح ذا معنى إذا كان البشر أحرارًا في

أن يخضعوا أو لا يخضعوا. وبدون الحرية في الاختيار والطاعة والخضوع لله، تصبح هذه الأعمال مع فقدان الحرية لا معنى لها. إن الاختيار وأعني به الحرية يعد منحة إلهية وجزءًا لا يتجزأ من القدرة على الخضوع لله، والحرية لمواصلة التقوى والخوف من الله والحرية في رفض عمل ذلك.

إن استعباد المرء واضطهاده على يد غيره من البشر، لا يتماشى أساسًا مع مهمة الإنسان في إخضاع ذاته من غير تحفظ لله عز وجل. وفي الحقيقة، فإن الإسلام قد دعا المسلمين وغير المسلمين أن يتوصلوا إلى إجماع بينهم على أن يعبدوا الله وحده وألا يتخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله. وبالنسبة للمعتدلين، فإن هذه الآية تؤكد مبدأً أساسيًا وحاسمًا وهو: لايجب على البشر أن يهيمن بعضهم على بعض، والخضوع الأخلاقي لا يجوز أن يكون إلا لله، أما خضوع البعض للبعض فليس إلا ظلمًا. وها هو التنزيل القرآني يشجع المسلمين وغيرهم على أن يبحثوا عن ترتيب معين بمقتضاه لا يهيمن أحدهم على الآخر.

وهناك عامل آخر يجعل من الديمقراطية أمرًا ضروريًا بالنسبة لتفكير المعتدلين وهو فكرة "الحق" في الإسلام. وهذه الفكرة تلعب أيضًا دورًا حاسمًا في جهود المعتدلين التي بُذلت لجعل حقوق الإنسان والديمقراطية متأصلة تمامًا في الشريعة الإسلامية وعلوم الدين الإسلامية. فكلمة "الحق" تعني الحق والأهلية وتعني الصدق. ووفقـًا لنظرية الحق في القانون الإسلامي، فإن الله له حقوق، وللبشر أيضًا مجموعة من الحقوق، ومن الأهمية بمكان أنه إذا كان لشخص ما حق، فإن هذا الشخص بامتلاكه لهذا الحق، فإنه يملك التصدي لأي إنسان مهما كان يريد أن يسلب أو ينتهك أو يهدد هذا الحق. وكمسألة مبدأ، فإنه يجب أن يؤخذ هذا الحق على محمل الجد، ولا يجوز للدولة أن توقفه أو تلغيه. وكذلك الأمر بالنسبة لله، فإنه لن يلغي حقـًا تقرر لإنسان إلا إذا تنازل هذا الإنسان عن حقه بطيب نفس. وبعبارة أخرى، فإنه

لا يمكن لأحد أن ينكر أو يضيع حق إنسان إلا إذا قرر هذا الإنسان التنازل عن حقه. وهذا يعني بالنسبة إلى الشريعة الإسلامية أن حق الإنسان أيًا كان هذا الحق، مصون وأن صاحب هذا الحق يتمتع بالحصانة التي لا يمكن أن يتجاهلها أحد أو ينتهكها أحد حتى ولو كانت الدولة ذاتها.

إن هذه المذاهب تعد أساس بناء فكرة حقوق الإنسان في الإسلام. وقد أكد المعتدلون أن الله له حقوق والبشر أيضًا لهم حقوق، ولكن حقوق الله سوف يصونها الله يوم القيامة، أمّا حقوق الإنسان فيجب أن تؤخذ على الأرض. وفي الواقع، فإن الله سيصون حقوقه يوم القيامة، لكن يجب على البشر أن يتمسكوا بحقوقهم ويدافعوا عنها في الحياة الدنيا على الأرض.

في التقاليد الإسلامية القديمة كان العدل يعد قيمة جوهرية ورئيسية، ولقد أكد العلماء القدامى على أن الإسلام جعل العدل فريضة حتى أنهم قالوا إن الله يفضل مجتمعًا غير مسلم يكون عادلاً على مجتمع مسلم غير عادل. ويرى بعض العلماء أن طاعة الله لا يمكن أن تقوم إذا انتشر الظلم والاضطهاد في المجتمع. ويرى بعض العلماء مثل "عبد الرحمن الكواكبي" أنه إذا انتشر الاضطهاد في الأرض، فإن ذلك لابد أن يؤدي إلى نتائج سيئة، ويؤدي إلى عدم القدرة على إطاعة الله. ومن بين هذه النتائج المترتبة على الاضطهاد، الخوف والقلق والافتقار إلى الهدوء وانتشار النفاق؛ لأن الناس لن يبوحوا بحقيقة ما بداخلهم خوفـًا من أن يُعانوا من الظلم. كذلك فإن الطغيان يؤدي إلى انعدام الأمن والانتهازية؛ لأن الناس سيعتقدون أنه لا يوجد ترابط بين الأفعال والنتائج، وسوف يؤدي ذلك إلى المعاناة؛ لأن الناس ستسلب منهم حقوقهم. إن وجود وانتشار الظلم يعني غياب خشية الله، بينما تعني العدالة وجود الطاعة القصوى لله. وعلى الرغم من أن الله هو وحده يملك العدالة القصوى، إلا أنه يجب على البشر أن يبذلوا غاية الجهد لتطبيق العدالة قدر استطاعتهم.

إن العدالة تطبق بإعطاء كل فرد حقه. كما أن العدالة المثالية تعني الوصول إلى توازن مثالي بين الواجبات والحقوق. والمعتدلون يؤكدون على أنه من أجل تطبيق العدل، يجب على المسلمين أن يضعوا نظامًا سياسيًا مسئولاً عن إيجاد توازن بين الحقوق والواجبات في المجتمع. علاوة على ذلك، فإن تطبيق العدل يوفر للمسلمين نظامًا يدافع عن حقوقهم ويمنع انتشار الظلم في المجتمع ويحمي الناس من الاضطهاد، وفي تفكير المعتدلين، فإن ما يحتاجه أي نظام للتوصل إلى العدل، هو الوصول إلى مؤسسات القوة والمسؤولية.

إن الطبيعة الإنسانية تؤكد على أن النظام الحكومي الدستوري الديمقراطي السياسي هو الذي يستطيع أن يلبي احتياجات المجتمع. ففي النظام غير الديمقراطي، لا يمكن للأمة أن تصمد أمام معارضيها ولا يمكن أن تخلق توازنًا أو تقيم عدلاً في مجتمعها. والأكثر من ذلك أن التجربة توضح أن نظام الحكومة الذي يؤسس طبقـًا للقائمة الدستورية للواجبات والحقوق الإنسانية قادر على تحقيق واحترام كرامة البشر.

إن القرآن والتعاليم النبوية قد أوضحت أن للبشر حقوقـًا معينة في حياتهم. وفي التقاليد الفقهية الإسلامية، قام علماء الدين بوضع مخطط لحقوق الإنسان وأطلقوا عليه "الاهتمامات المصانة" للبشرية. ولقد حددوا خمسة اهتمامات أساسية هي: الحياة والعقل والنسل والسمعة والملكية[١٠]. وتأسيسًا على هذه النظرية، فإنه يجب على النظام السياسي الشرعي أن يحمي هذه الحقوق ويحترمها. فيجب أن يُحافظ على حياة البشر ويرقيها (الحياة)، وإعطاء البشر حق حرية التفكير والتدبر (العقل)، وحق البشر في الزواج وتربية أطفالهم

---

[10] عن الضرورات الخمس في الإسلام، قال العلماء إن مقاصد الشريعة لا تعدو ثلاثة أقسام١- ضرورية ٢- حاجيّة ٣- تحسينية.

(النسل)، والحق في حسن السمعة، فلا يُقذف أحد في عرضه أو يُشاع عنه ما يلوث سمعته (السمعة أو العرض) والحق في التملك (الملكية)، وعدم السماح بأخذ حقوقهم دون وجه حق. وبعض العلماء يرون أن حق النسب وحق السمعة داخلان ضمن الحقوق الشخصية. واستشهد بعض العلماء بخليفة المسلمين "عمر" عندما قال إنه إذا جمعت الدولة معلومات عن شخص عن طريق التجسس، فإنه يجب عدم الأخذ بهذه المعلومات أو الدلائل؛ لأنها جاءت بطريق غير شرعي، ومن ثمّ فلا يُعتد بها عند المحاكمة أو الادعاء الجنائي. وأطلق بعض العلماء على "الاهتمامات المصانة" كلمة حقوق بدلاً من اهتمامات.

ولم يؤمن بعض العلماء بأن هذه الحقوق الخمسة تمثل كل حقوق الإنسان. إذ إن هذه الحقوق الخمسة تمثل الحقوق الأساسية، ولكنها ليست شاملة ولا تمثل جميع حقوق الإنسان، واعتبروا هذه الحقوق الخمسة ليست نهاية قائمة حقوق الإنسان، ولكنها فقط نقطة البداية.

ولتأكيد الحماية الممنوحة لهذه الحقوق الخمسة، قام العلماء بوضع تصنيف من ثلاثة أجزاء، وقالوا إن هذه الحقوق المصانة تتمثل في ثلاثة أصناف: ضرورية، احتياجية، تحسينية أو ترفيهية:

- أما الضروريات: فتتمثل في الأشياء الأساسية والرئيسية من أجل حماية الحق ومساندة المصالح والحق في التعبير والنقاش. والضروريات هي الأشياء التي إذا لم تتوفر، فإن حق الإنسان في التعبير والنقاش يكون غير مصان.
- أما الاحتياجية: فتعد أقل خطرًا. وهي الأشياء الهامة جدًا من أجل المصلحة أو الحق في التعبير، ولكنها ليس لها أهميه محورية، فإذا لم يتوفر الاحتياج المعين، فإن هذا لا يعني أن الحقوق لا يمكن حمايتها.

- أما التحسينية أو الترفيهية: فهي الأشياء التي ليست ذات خطر ولاهي بالشديدة الأهمية لحماية مصلحة أو حق، أو هي بالأحرى التي إن توفرت، ستساهم فيي تحسين الانتفاع والتمتع بالمصلحة أو بالحق.

وكمثال لتوضيح هذا التقسيم الثلاثي، فإنه كما ذكرنا من قبل، فإن الحياة تعتبر حقـاً مصاناً في القانون الإسلامي. وإن تحريم القتل يعد من الضروريات من أجل حماية الحياة، وكذلك يعد توفير المأكل والمشرب والسكن المناسب للإنسان من الضروريات، وذلك من أجل حماية الحياة له، بينما توفير الرعاية الصحية والتعليم الجامعي والملبس والعمل يعد كل ذلك من الاحتياجات، ويعد توفير وسائل للتخرج من الجامعة ووسائل المواصلات وتوفير المستشارين النفسيين من الرفاهية.

إن العلماء السابقين لم يذكروا بم تُحدد الضروريات والاحتياجات والرفاهيات. غير أنهم سعوا إلى التفرقة بين الأشياء التي يجب أن يكون توافرها مضموناً للبشر؛ لأنها تمثل الضروريات من أجل حياة يشوبها الاحترام والكرامة، وبين الأشياء الأقل أهمية. وقال العلماء السابقون إنه يجب على كل جيل مسلم أن يحدد ما هي الضروريات والاحتياجات والرفاهيات طبقـاً للتغير في الظروف والأحداث والعصر الذي يعيشون فيه. ولذلك فلن يكون من الحكمة أن نضع قائمة بالاحتياجات والضروريات والرفاهيات ونجعلها ثابتة وغير قابلة للتغيّر.

وبالنسبة للنظرية السابقة، فإن المجتمعات العادلة سوف تحمي وتصون الضروريات، والمجتمع الذي يستطيع حماية الاحتياجات بجانب الضروريات، يعتبر مجتمعًا أكثر من عادل، بينما المجتمع الذي يمكن أن يوفر وسائل الرفاهية بجانب الاحتياجات والضروريات، يكون أكثر المجتمعات عدلاً وإنصافـاً.

ففي المصادر القديمة توجد مناقشات واسعة حول أفضل الوسائل من أجل حماية الحقوق الخمسة، ألا وهي: الحياة، العقل، النسب، السمعة، الممتلكات. وللأسف فإن كل هذه المحاولات السابقة اختفت في العصر الحديث. وفي الواقع، فإن كثيرًا من الدول الإسلامية اليوم تهمل كل ضروريات واحتياجات شعوبها. وعلى سبيل المثال، فإنه يوجد العديد من محاكمات الإعدام العدوانية على يد الحكومة السعودية التي تخرق أول حق من حقوق الإنسان وهو الحياة. بالإضافة إلى أن الانتشار الواسع لاستخدام الاحتجاز التعسفي والتعذيب في الأراضي الإسلامية يمثل عدوانًا ضد الحياة والفكر وأحيانًا السمعة.

ولقد حاول المعتدلون أن يستعينوا بالموروث الثقافي القديم من أجل تحديد ما هو ضروري للبشر من أجل الازدهار، وما هو ما ليس بالضروري من أجل استبقاء الحياة، ولكنه من الاحتياجات والرفاهيات. ولقد قال المعتدلون إنه على الأقل، فإن هذه المناقشات والتقاليد القديمة يجب أن تترجم في العصر الحديث إلى أعمال من أجل حماية حقوق الأفراد. إن الأخلاق التي فرضتها التقاليد القديمة مثل الكرامة والحرية والحقوق الخمسة والوقوف ضد العدوان، يجب أن توضع في نموذج لحقوق الإنسان في العصر الحديث والتي تعكس تراثـًا إسلاميًا، وهذه الحقوق توضح الديمقراطية في الإسلام.

يؤمن المعتدلون أن هناك مبادئ عديدة أخرى في التراث الإسلامي التي تؤيد مبدأ الديمقراطية، فالقرآن يأمر المسلمين في سورة "الشورى" أن يتشاوروا في كل أمورهم. ويعتبر المعتدلون هذا أمرًا إلهيًا يؤكد في اللجوء إلى أسلوب الضغط أو السيطرة. وعملية تحديد القرار لا يجب أن تقتصر على فرد معين أو نخبة معينة، ولكن يجب أن يتخذ المسلم قراره من خلال عملية مشاورة جماعية.

فعندما دخل الرسول (صلى الله عليه وسلم) المدينة، وضع دستورًا للالتزامات والواجبات والحقوق لكل قبيلة، وأيضًا لغير المسلمين في المدينة.

لقد نشأ رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم) في مكة وبدأ فيها رسالته وظل يبلغ الدعوة لمدة عشر سنوات، ولكنه عانى من الاضطهاد على يد القبائل الكبيرة التي رفضت قبول دعوته. وفي النهاية، قرر الرسول الهجرة إلى المدينة، لأنها كانت مهيّأة لاستقباله واستقبال رسالته وصحابته. وكانت المدينة مقسمة إلى قبائل مسلمة وقبائل يهودية، وكان هناك الذين تحولوا إلى الإسلام والتحقوا بالمجتمع الإسلامي، وهناك من ظل مشركًا. وبعد مفاوضات بين الرسول (صلى الله عليه وسلم) وكبراء المدينة، قام الرسول (ص) بقيادة الهجرة للمجتمع الإسلامي من مكة إلى المدينة والتي عرفت بـــ"الهجرة"، وتم اختيار الرسول (ص) ليكون الحاكم على هذه المدينة، وبعد تولي الرسول حكم المدينة، جلس مع كبراء القوم ووضع ما عرف بـــ"دستور المدينة". والمصادر التاريخية تؤكد أن دستور الحكومة يجب أن يقوم على مبدأ الشورى.

وهناك دليل آخر يستشهد به المعتدلون وهو تأسيس ما كان يعرف بـــ"أهل الحل والعقد"، فقد أقام ثاني خليفة للمسلمين وهو "عمر بن الخطاب" من الشيوخ ليمثلوا مختلف المجتمعات في الدولة الإسلامية، وكلفهم بأن يحكموا الولاية بعد مماته وأن يختاروا خليفة ثالث من بعده كي يحكم المسلمين. إن السبب فيما عرف بـــ "أهل الحل والعقد" هو الدلالة على ما يمثل المجتمع، إذ إن لأهل الحل والعقد القوة في أن يلزموا المجتمع بأوامرهم، وفي مرحلة لاحقة في التاريخ الإسلامي أصبح لهم وظيفة استشارية، فصار لهم - فقط - الحق في إعطاء النصائح للخلفاء وليس تحديد أو تقرير الأمور.

وفي النهاية، استند المعتدلون أيضًا إلى مبدأ "الإجماع"، أو اتفاق مجموعة من الناس على صحة شيء أو خطأه. إن العلماء السابقين مارسوا التشاور في النصوص الفقهية واختلفوا حول متطلبات وشروط الآراء الصحيحة. فلقد ناقشوا عددًا كبيرًا من الأمور، ومن بين هذه الأمور تقييم الرأي الصحيح السليم، فهل يجب أخذ آراء الفقهاء فقط أم يجب أخذ آراء عامة الشعب أيضًا؟ فالبعض رأى أن آراء الرسول (ص) والصحابة فقط هي التي يمكن أن تسوي أي جدال قائم أو أي نزاع قانوني. وتناقشوا أيضًا حول ما هي الموضوعات الجديرة بالمناقشة، فعلى سبيل المثال، لقد اختلفوا حول: هل يقتصر مبدأ المشاورة على إيجاد حلول للمشاكل الدينية فقط ؟ أم يجب أن تتناول أيضًا المشاكل القانونية؟ وعلاوة على ذلك، فقد تناقش السابقون في النتيجة المناسبة للمشاورة قائلين: هل يجب أن تكون الآراء المقترحة دائمًا موضوعًا للنقاش؟ وماذا يحدث إذا كان هناك توافق في الرأي في وقت ما؟ ولكن بعد ذلك انهار التوافق واختفي. ولقد كان من أكثر الموضوعات نقاشًا هو: إذا كانت الآراء موجودة فهل من الخطأ أن نعارض ونختلف مع هذه الآراء الموجودة؟ لقد تجادل الكثير من الفقهاء السابقين حول أنه قد يكون من الممكن الوصول إلى الآراء، ولكن بعد الوصول إليها قد لا يمكن تطبيقها.

إن المسلمين المعتدلين حاولوا إعادة تفسير مفهوم توافق الآراء لتأكيد فكرة الديمقراطية، والتي تنفذ بمشيئة الأغلبية. وأكد المعتدلون أنه من أجل حكم بلد ما، يجب أن تمثل مشيئة الشعب السياسة السائدة، وهذا يعد إلزامًا وواجبًا. وأكد المعتدلون أن كلمة إجماع لا يجب بالضرورة أن تعني توافق الآراء، ولكن تعني وجود عدد بسيط. بالإضافة إلى تأكيد أن رأي أو صوت أي شخص مسلم أو غير مسلم يجب أن يتم الحصول عليه لإيجاد رغبة الأغلبية، وبالتالي رغبة الشعب بأكمله. وأكد المعتدلون أنه من أجل تجنب

استبداد الأغلبية أو اضطهاد الأغلبية للأقلية، فإنه يجب أن يكون هناك نظام دستوري حتى يضمن حقوق الأفراد، وبذلك يكون رأي الأغلبية معززًا ومحترمًا، لكن من الضروري أن تكون هناك مقاييس دستورية، وإذا تجاوز رأي الأغلبية هذه الحدود، فإنه لا يكون صحيحًا وبالتالي لا يُحترم. وقال بعض المعتدلين إن النظام الدستوري لا يجب أن يشمل فقط حقوق الأفراد ولكن يجب أن يشمل أيضًا المبادئ الأخلاقية والدينية التي فرضها الإسلام. ولذلك، فإنه إذا فرضت الأغلبية قانونًا يعارض المبادئ الأخلاقية للإسلام، فإنه يجب أن يتم تجنبب هذا القانون وعدم تطبيقه.

وبالمثل، فعندما نتكلم عن الديمقراطية، فإنه يثور سؤال: من هو المسئول عن الديمقراطية؟ ومن هو الذي يملك السلطة المطلقه؟ لقد أعطى المعتدلون إجابات كثيرة عن هذه الأسئلة، ولكنها جميعًا لها نفس التأثير. ولقد أكد المعتدلون أن السلطة المطلقة لله وحده، ولكنه قد أعطى البشر الحق في التصرف في شئونهم الخاصة تبعًا لمشيئتهم، ويوم القيامة يكافئهم أويعاقبهم. والبعض قال إن البشر لهم السيادة فيما يتعلق بالقانون البشري، والله له السيادة فيما يتعلق بالقانون الإلهي. ولأن واجب البشر هو إدارة القانون البشري لا القانون الإلهي. فعندئذ يمكن للبشر أن يشرعوا القوانين فقط من أجل تحقيق تقوى الله علي الأرض. وإذا لم تحقق تلك القوانين التقوى، فإنه يجب إلغاؤها وتجنبها، وهناك نظرة أخرى للمعتدلين تقول: إنه يمكن للبشر أن يملكوا التحكم في السلطة؛ لأن أمور الله متروكة له عز وجل، أما شئون *الدولة فمتروك أمرها للناس، وهذا الرأي يعد الأقرب إلى الصواب.*

وهناك موضوع آخر لاقى مناقشات كثيرة بين المعتدلين وهو دور قانون الشريعة أو القانون الديني في الديمقراطية الإسلامية، فقد ثبت أن هذا الموضوع كان له تحديات كثيرة، وبالتالي كان له آراء ووجهات نظر عديدة، ولقد صنفت هذه الآراء في أربعة آراء رئيسية:

بعض المعتدلين أكدوا أن معظم القوانين يجب أن تكون في أيدي البشر ماعدا مجموعة أساسية من القوانين عرفت باسم "الحدود"، والحدود عبارة عن مجموعة من القوانين ذكرت في القرآن، تتضمن على سبيل المثال، الزنا والسرقة. وبالرغم من أن "الحدود" تتضمن عقوبات قاسية للجرائم، إلا أنها خففت؛ لأن الأدلة الإثباتية لفرض وتنفيذ هذه العقوبات يجب أن تكون متوفرة ومثبتة بدقة، وبالتالي، فإن فرض هذه العقوبات أصبح صعبًا ونادرًا جدًا. فعلى سبيل المثال، من أجل إثبات جريمة الزنا والتي عقابها مائة جلدة، يجب أن يكون هناك أربعة شهود يُقرُّون بأنهم شاهدوها. وإذا أكد اثنان الجريمة بينما وأنكرها الاثنان الآخران، فإنه لايعترف بوقوع الجريمة ويتم عندئذ عقاب المدعين بأن فلانًا أو فلانة قد زنت عقابًا لهما على قذفهما المرأة بالزنا. ولذلك فإذا جاء أحد بادعاء وقوع جريمة زنا وليس معه دليل إثبات، فإن هذا الشخص يتحمل عقاب مخاطرته ودعواه. كل هذا صيانة للأعراض وحتى لايصدر أحد اتهامًا لأحد وهو غير متأكد، إذ إنه سيتحمل عقاب مخاطرته. وبالنسبة لهذا المنهج، فإنه قد يمكن للناس من أن يفلتوا من قوانين الحدود إذا كانوا أتباعًا ورعايا لحكومة غير مسلمة، أما إذا اختاروا حكومة مسلمة وعاشوا في كنفها، فعندئذ يجب عليهم الالتزام بقوانين الحدود، ومن ثمّ تطبق عليهم.

ورفض بعض المفكرين المعتدلين هذا المنهج وأكدوا أن الديمقراطية الإسلامية لا يجب أن تطبق قوانين الشريعة وأن يكون القانون الوحيد الذي يطبق هو قانون المجلس التشريعي. وفي هذا النموذج تكون الشريعة مساعدًا أخلاقيًا فقط وليس مصدرًا أساسيًا للحكم. وقالت مجموعة ثالثة إن الديمقراطية الإسلامية يجب أن يكون فيها القانون مناسبًا كي يتم تطبيقه، ولكن هؤلاء الثلاثة أجمعوا على أنه يجب أن يوقفوا تنفيذ أي قانون يتعارض مع القرآن. إن النظرية الأخيرة تقول إن القانون يجب أن يعود إلى البشر،

ولذلك يسمح للسلطة التشريعية أن تصدر القوانين التي تراها مناسبة، ولكن هذه القوانين يجب أن تخضع لمعايير الشريعة، أمّا القوانين غير الأخلاقية فيجب أن تُحذف وتلغي.

ومما يربط هذه الآراء الثلاثة أنها جميعًا ترفض قوانين الحكومة التعسفية وترفض فرض الحكومة لقوانين إلهية لا يمكن تغييرها تبعًا لمرور الوقت. ولا نستطيع أن نقول إن المسلمين المعتدلين لايؤمنون بالقانون الإلهي أو أنه لايفيد البشر، إنهم يؤمنون بأن الله يخاطب قلوب البشر لا حكوماتهم. وعندما تدّعي مؤسسة أنها تمثل إرادة الله، فإنها تظلم البشر، إذ إن إرادة الله أعظم من أن تمثل عن طريق مؤسسة أو مجموعة من الأفراد[١١] .

علاوة على ذلك، فإن المسلمين المعتدلين يؤكدون على أن الفقهاء الذين يبحثون ويدرسون القوانيين الإلهية يجب أن يكملوا دورهم بتعليم البشر هذه القوانين. ففي التاريخ الإسلامي لم يفرض الفقهاء القوة مباشرة، ولكنهم كانوا جزءًا من المجتمع المدني، فقوتهم الحقيقية لم تكن تمثل السلطة التي أعطتها الدولة لهم، ولكنها كانت شعبيتهم وقدرتهم على التأثير في عقول وقلوب الناس من خلال علمهم ومعرفة الناس الكاملة بعلم الفقه الإسلامـــي.

ففي المجتمع الإسلامي يمكن للفقهاء أن يقنعوا أغلب الشعب بقانون معين، ولكن عندما يصدر قانون من المجلس التشريعي، فإن هذا القانون يعد قانونًا بشريًا وليس قانونًا إلهيًا، ويتم تطبيق هذا القانون؛ لأن الهيئة التي تمثل المجتمع تؤمن بأن هذا القانون مفيد ويخدم مصالح الدولة، ويمكن لهذه الهيئة أن تغير هذه القوانين إذا كانت لا تتناسب مع الدائرة الانتخابية. وعندما

---

[11] إن الحكام مخولون من قبل الله عن طريق الشعب بتنفيذ مشيئته وتطبيق شرعه. فمن ذا- إذن- يطبق شرع الله إذا لم يطبق هؤلاء الحكام الذين قرأوا قول الله لرسوله وأن احكم بما أنزل الله. "المترجم"

تفترض دولة أنها تمثل قوة الله في الأرض، فإن هذا يعد مخالفـًا للمبادئ الإسلامية وعصيانًا لأوامر الله.

وبالطبع فإن كل ما ذكرناه يعد غير صحيح بالنسبة للمتشددين. فالمتشددون يؤمنون بأن الديمقراطية هي بدعة غربية. وهذا هو سبب رفضها. وقد أصرّ المتشددون على إعادة بناء الخلافة وأن هذا هو حجر الأساس لنظام الحكومة الإسلامي، وبذلك اعتمدوا على النموذج الذي وضعه الخلفاء الراشدون الأربعة الذين حكموا بعد وفاة الرسول(ص)، وحاول المتشددون أن يخلقوا نموذجًا مماثلاً لنظام الخلافة.

إن مشكلة المتشددين تتمثل في أنهم لم يستطيعوا معرفة أن الخلفاء الراشدين لم يتبعوا نظامًا حكوميًا واحدًا، ولكنهم اتبعوا أنظمة مختلفة. وفي الواقع، فإن الخلفاء لم يتبعوا نظرية معينة للحكومة، وأصبحت الخلافة رمزًا للوحدة الإسلامية دون الالتزام بنظام حكومي معين. ولذلك لم يعـارض المعتدلون إعادة خلق الخلافة، ولكنهم اعترضوا على خلق نظام يكون سائدًا في كل الدول الإسلامية. ومعظم المعتدلين أيدوا أن الخلافة هي رمز لتوحيد الأمم الإسلامية تحت علم واحد، بينما لم ينظر المتشددون للخلافة على أنها رمز للاتحاد، ولكنهم أرادوا فقط أن يستعيدوا نظام الحكومة الذي كان موجودًا في العصر الذهبي للإسلام.

إن المتشددين ينظرون إلى نظام الحكومة في العصر الذهبي للخلافة على أنه "نظام الشورى" وكان المتشددون يؤكدون على أنه أفضل من نظام الديمقراطية الغربي. وكما ذكرنا من قبل، فإن الشورى هي مفهوم قرآني يعني الحكم بالمشاورة، ولقد اعتبر المتشددون أن هناك نظامًا حكوميًا كاملاً يُدعى الشورى، وعندما نقرأ نصوص المتشددين نرى أن ما كان يقصد بالشورى هو نظام العدل الذي يجعل القانون الإسلامي استشاريًا. وبالنسبة للمتشددين، فإن القانون العادل هو الذي يستمد من قوانين الله ويطبقها.

والحاكم يجب أن يلتزم بالقوانين التي ذكرت في القرآن الكريم وبعد المشاورة مع الشعب يمكنه أن يحدد أيّ القوانين تصلح لأن تطبق.

والشيء المثير في كتابات المتشددين هو أنهم يؤكدون على أن اختيار الحاكم يجب أن يتوفر فيه عدل هذا الحاكم، ويجب أن يتـــأكدوا من أن هذا الحاكم سيلتزم بالقوانين الإسلامية.

وأكد المتشددون أنه طالما أن الهيئة الاستشارية تتابع هذا الحاكم، فإنه سوف يتبع في حكمه نظامًا عادلاً.

لقد أعطى المتشددون الحكومة قوة لم يكن لها مثيل في التاريخ الإسلامي. فالدولة أصبحت لها القوة في التحكم بحياة الشعب. وأصبحت لها قوة لم تكن من قبل في العصور القديمة، ولقد استخدم المتشددون هذه القوة لفرض ما كانوا يؤمنون بأنه يمثل الإرادة الإلهية. فعلى سبيل المثال، آمن المتشددون بأن الدولة يجب أن ترغم الرجال على الذهاب إلى المساجد وإلزام النساء بارتداء الحجاب. وبفرض هذا القانون الإلهي، سوف تسود العدالة في جميع أنحاء الدولة. وبذلك فلن يحتاج الأفراد لمبادئ حقوق الإنسان. وفي الواقع، فلقد آمن المتشددون بأن مبدأ حقوق الإنسان ما هو إلا بدعة اخترعها الغرب، وبتطبيق القانون الإلهي، سوف يتحقق كل من حقوق الله وحقوق الإنسان.

وآمن المتشددون بأنه في الوقت الحالي لا توجد دولة إسلامية كاملة حقيقية. فبالنسبة لهم، فإن كل الحكومات الإسلامية الآن غير شرعية؛ لأنها تنفذ قوانين فرنسا وبريطانيا. ولذلك آمن المتشددون بأن الحكومات الحالية يجب أن تستقيل، وهذا يعد من بعض الاختلافات بين المتشددين والمحافظين. فالمحافظون يؤمنون بأن الدولة الإسلامية يجب أن تتبع قوانين الله، ولكنهم لا يؤمنون بأن التمرد على الحكومة التي تفشل في تطبيق القانون الإلهي يعد

عدلاً، فقد رفض المحافظون استخدام القوة والعنف للوصول إلى أهدافهم، بينما يؤيد المتشددون استخدام العنف والقوة.

ويؤكد المتشددون على أن الدول التي تطبق نظرياتهم في العصر الحديث هي المملكة العربية السعودية وأفغانستان تحت سيطرة "طالبان". ولقد آمن المتشددون بأن الولايات المتحدة الأمريكية تحاول تدمير حركة "طالبان"؛ لأنها أصبحت قريبة من إنشاء خلافة إسلامية حقيقية، ولأن الولايات المتحدة الأمريكية لن تسمح بإعادة العصر الذهبي للإسلام. وكما ذكرت من قبل، فلقد انقلب المتشددون على المملكة العربية السعودية في الوقت الحالي؛ بسبب غزو العراق وبسبب العلاقة القوية بين السعودية وأمريكا. وقد أكد كثير من المتشددين أن التعاون بين السعودية وأمريكا في ظل العدوان على أفغانستان والعراق يعد خيانة لمبادئ العائلة السعودية، وهو دليل على أن الحكومة السعودية لم تعد تلتزم بأوامر الإسلام ولذلك يجب أن تستبعد.

ومن وجهة نظري، فإن الحقيقة المؤسفة هي أن نظرية المتشددين سوف تؤدي إلى إهدار الدماء وإشعال الحروب ولن يستطيع المتشددون الوصول إلى العالم المثالي الذي يحلمون به. وكما قال بعض الفقهاء القدامى، إن العدل والاستبداد ضدان، وإذا تقابلا فلابد أن يقتل أحدهما الآخر. وبعد الكثير من المعاناة اكتشف المتشددون أنهم من خلال حلمهم بالعالم المثالي على الأرض، لم يبلغوا شيئاً مما حلموا به، إنه كان مجرد كابوس.

وسوف نتناول في الفصل القادم المعاهدات التي وقعها غير المسلمين مع الدول الإسلامية. ولكي تتحقق الديمقراطية، فإنه يجب أن يتمتع كل الشعب بالمساواة كما يجب أن يمنح القانون الحقوق الكاملة للشعب بأكلمه. ويجب أن تشمل هذه الديمقراطية غير المسلمين الذين يعيشون في كنف المسلمين. والتحدي ليس بوضع حقوق من أجل غير المسلمين، ولكن التحدي هو نشر التسامح في أنحاء الدولة. إن هذه القوانين سوف تضمن إمكانية وجود ديانات

متعددة دون محاولة أي ديانة للسيطرة على الديانة الأخرى، وهذا هو السبب في الجدل القائم حول موضوع العلاقة والتعاون بين المسلمين وغير المسلمين.

ومن الموضوعات الهامة التي من الممكن أن تؤثر في ديناميكيات الأديان، ما يتصل بالتعددية والديموقراطية داخل الدولة وهو ما يمكن أن نطلق عليه التصور النهائي للقيمة الأخلاقية للأفراد. فمعظم الديانات تؤكد أن أتباعها سوف يدخلون الجنة ومن يخالفها فكأنما عصى الله وسوف يعاني من غضب الله. ومن الصعب أن تدعي كل ديانة أنها تمثل الحقيقة المطلقة. والسؤال هنا هو: ما هي الديانات التي تتعارض مع أخلاقيات التسامح؟ وأيها الضروري لبناء مجتمع ديمقراطي؟ وهل إذا أشارت ديانة بأصابع الاتهام لديانة أخرى وادّعت بأن تلك الديانة سوف تدخل الجحيم، فهل هذا يقلل من القيمة المعنوية لمن يرفضون هذه الديانة وينظرون إليها على أنها ديانة غير صحيحة؟

إن عددًا كبيرًا من العلماء النظريين أكدوا أن التسامح – في الحقيقة – ليس إلا أن تغفر لشخص معين وتقبل بوجود أصحاب الديانات الأخرى، فلربما كانوا الشر الذي لابد منه. هؤلاء العلماء النظريون أكدوا أنه من أجل الحصول على مجتمع مدني يساند التعددية والديمقراطية، فإن التسامح الأخلاقي وحده لا يكفي. إن ما نحتاجه هو اتباع أسلوب أخلاقي وتعاون مشترك بين الديانات المختلفة من أجل رقي ونجاح حقوق الإنسان وتحقيق العدل لكل البشرية. وطبقـًا لهؤلاء العلماء، فإن الدولة التي تحكم على بعض الناس بالموت وعلى البعض الآخر باللعنة تبعًا لمعتقداتهم، تعتبر مخالفة للأخلاقيات المدنية لحقوق الإنسان والمساواة بين الناس.

إن مسالة حصر وتعذر الوصول إلى طبيعة القناعات الدينية وما إذا كانت القناعات الدينية أو اللغوية أو الرمزية يجب أن تظل بعيدة عن عالم

الناس، فهذا كله كان موضوع جدل لفترة طويلة. وعلى الرغم من أن هذا ليس هو الوقت المناسب للخوض في هذا الموضوع، ولكنني أعتقد أن كل المعتقدات الفكرية القوية أوجدت نفس التحدي من أجل تعارض الأخلاقيات المدنية مع الديمقراطية، ولكن هذا لا يعني أن نظام المعتقدات فقط هو المقبول من الجميع، بل يجب أن يتم التسليم به من الكل. فأنا أؤمن بأن الدين يمكن أن يكون له دور شرعي في المجتمع طالما أنه لا يمثل عدوانًا أو قهرًا أو ظلمًا للآخرين. وفي حالة الإسلام، فإن نظرية كونه عدوانيًا على الآخرين، فإن هذا يتوقف على طريقة فهم غير المسلمين للقرآن والنصوص الإسلامية وقدرتهم على إحراز وبلوغ النجاة.

الفصل العاشر

التعايش مع غير المسلمين و النجاة في الآخرة

إذا بدأنا بالتفكير في قضايا مثل: كيفية التعامل مع غير المسلمين والنجاة أو الإدانة، فإنه من الصعب تخيل أن كلاً من المعتدلين والمتشددين يقرأون ويفسرون نفس المصادر الدينية، وهذا يرجع إلى أن الاستنتاجات التي يصل إليها الفريقان متضاربة إلى أقصى حد، وموقفهما المتباعدان يثيران أسئلة جوهرية حول مدى الاختلاف الذي من الممكن أن تؤدي إليه أساليب التفسير في فهم المشيئة الإلهية. إن معاني النصوص الدينية تتأثر بشدة بالميول الفطرية والالتزامات الأخلاقية لقراء تلك النصوص، وتتأثر أيضًا بالأدوات التقنية التي يستخدمها الناس في فهم النص، ولكننا لن نتطرق هنا إلى أدوات الاستيضاح والطرق التي يستخدمها كل من المعتدلين والمتشددين في فهم النص والمراد منه. ففي هذا الفصل سوف ألقي الضوء على الاستنتاجات الفقهية والعقائدية التي توصل إليها المتشددون والمعتدلون دون الخوض في منقاشاتهم الفقهية المغالى فيها حول الكيفية التي يتحتم على الفرد أن يقرأ بها القرآن الكريم والنصوص الدينية.

وطبقــًا للمتشددين، فإن مسألة النجاة من النار محسومة، فالمسلمون وحدهم هم الذين لديهم فرصة النجاة في الآخرة، ليس هذا فحسب، بل إنَّ المسلمين الذين لا يتبعون المعتقدات أو الممارسات الصحيحة – بحسب تحديد المتشددين– لن يحظوا بالنجاة. والفرق بين المسلمين الملحدين أو العصاة وبين غير المسلمين – عند المتشددين – هو فقط اختلاف منازلهم في النار التي مصيرهم إليها، إذ سوف يحتل غير المسلمين الدرك الأسفل من النار أي منزلة أدنى من تلك التي سوف يحتلها المسلم الملحد أو العاصي. لقد اختلف المتشددون حول ما إذا كان الكفار سيخرجون من النار أم يظلون أبدًا فيها،

بينما يؤمنون بأن المسلمين العاصين سيمكثون في النار إلى أن يكَفّروا عن جميع سيئاتهم.

لعل ذلك ليس بالأمر الجديد، فمعظم الأديان تقول إن من يأبى الإيمان برسالتها، سيلقى عقابه بطريقة أو بأخرى، لكن موقف المتشددين الرافض امتد ليشمل الحياة على الأرض. فلقد قام المتشددون بتطبيق حالة تعرف بوضع الذمة، وهم أولئك غير المسلمين الذين يعيشون في أراضٍ إسلامية، وذلك دون أية تحفظات أو مراجعة. وطبقـاً لنظام أهل الذمة، فإنه يتوجب على غير المسلمين أن يقوموا بدفع الجزية لقاء الامتيازات والحماية التي يوفرها لهم المسلمون. وفي هذا النظام يتم إعفاء غير المسلمين من الخدمة العسكرية، ويتم أيضًا استثناؤهم من تولي المناصب الرفيعة والتي تشتمل على التعامل مع المصالح العليا للبلاد، كمنصب الرئيس أو رئيس وزراء البلاد، غير أننا نجد في التاريخ الإسلامي أن غير المسلمين قد تولوا مناصب رفيعة وخاصة فيما يتعلق بالسياسات المالية أو تحصيل الضرائب. وليس من الواضح إذا كان المتشددون قد اعتبروا هذا الأسلوب التاريخي مقبولاً، أو اعتبروه دلالة أخرى لابتعاد أجيال المسلمين الأوائل عن الطريق القويم .

وضمن الإطار الرئيسي لنظام الذمة، فإن طريقة تعامل المتشددين مع غير المسلمين مميزة بدرجة عالية. فعلى سبيل المثال، تقبل المتشددون بسهولة القانون القرآني الذي ينص على أن المسلمين يجب أن يتعاملوا مع غير المسلمين والفقهاء طبقـاً للشريعة النبوية والتي تؤكد أن أي شخص يجرح أو يهين غير المسلم طبقـاً لنظام الذمة، سوف يشهد الرسول عليه يوم القيامة. وعلى الرغم من هذا فقد أصرّ المتشددون على أنه يجب إذلال غير المسلمين لأقصى حد حتى تكون منزلتهم الأدنى مقارنة بالمسلمين واضحة. فعلى سبيل المثال، يجب على غير المسلمين ارتداء شارة مميزة، وبذلك يكون من السهل معرفتهم. علاوة على ذلك، غير مسموح لغير المسلمين ببناء كنائس ومعابد

تكون أعلى من المساجد. كذلك يجب أن يكون غير المسلمين في المرتبة الثانية للمسلمين في ممارسة الارتباطات الاجتماعية. فعلى سبيل المثال، أكد المتشددون أن المسلمين يجب عليهم ألا يبدأوا بإلقاء تحية السلام على غير المسلمين. وقد وضع المتشددون قائمة من الردود لرد التحيه إذا قام غير مسلم بالسلام . ويجب على المسلمين استخدام المصطلحات التي هي في القائمة فقط.. وفي الواقع، فإن كثيرًا من هذه القوانين الهجومية وغير الأخلاقية قد أتت من مختلف الأحاديث الملفقة التي نسبت إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) في القرن التاسع والعاشر الميلاديين. وكثير من الفقهاء أكدوا أن هذه الافتراءات متناقضة تمامًا مع أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم). وقد قام بعض الفقهاء مثل "ابن تيمية" بتأييد هذه التصرفات المهينة ضد غير المسلمين، فقد كانت عداوته لغير المسلمين كبيرة جدًا؛ لأنه عاش في زمن كانت الحضارة الإسلامية في أشد أزماتها، فالأراضي الإسلامية والقبائل الإسلامية كانت تحت حصار العديد من المحتلين. فلقد كان للفقهاء مثل "ابن تيمية" قدر كبير من التأثير على الوهابية والمتشددين، ولذلك فإن هذه القوانين قد تم تطبيقها على يد حركة "طالبان" في "أفغانستان" وفي أجزاء من السعودية. واليوم، أكدت الكثير من الدول الإسلامية عدم شرعية هذه القوانين ومنعوا تطبيقها . ومن الأشياء الأكثر غموضًا في أفكار المتشددين، هي كيفية التعامل مع الذين ليس لهم ديانة، الذين ليسوا يهودًا أو مسيحيين، إذ من المتعارف عليه أن أهل الذمة هم المسيحيون واليهود. والسؤال هنا، ماذا يجب فعله مع الذين ليسوا مسيحيين وليسوا يهودًا ؟!! فعندما دخل الإسلام بلادًا مثل الهند والصين وجنوب الصحراء الإفريقية الكبرى، كان لابد من تعديل التقاليد الفقهية وتطبيق وضع أهل الذمة على الهندوسيين والبوذيين والزرادشتيين، ولكن لم يكن من الواضح إذا كان المتشددون مستعدين لقبول هذا التعديل أم لا. فإذا رفض المتشددون قبول هذا التعديل، فإنهم يرفضون

نشر نظام الذمة على الذين ليسوا من أهل الكتاب، وهذا معناه أن الذين ليسوا مسلمين أو مسيحيين أو يهودًا يجب معاقبتهم وقتلهم . فبالنسبة للمتشددين، فإنه لابد أن يسود الإسلام، ويجب معاملة غير المسلمين الذين يعيشون في الأراضي الإسلامية معاملة سيئة، حتى ينتهي بهم الضيق والتعب إلى التحول عن ديانتهم والدخول في الإسلام . إن نظرية المتشددين تحمل منظورين، فمن ناحية يوجد الإسلام الذي يمثل الجانب النقي الجيد، ومن ناحية أخرى يوجد غير المسلمين الذين يمثلون الشر. واستنادًا إلى بعض كتابات الفقهاء السابقين، فقد أيد المتشددون بشدة سياسة "الولاء والبراء" والتي تنص أولوياتها على أنه يجب على المسلمين الاهتمام بشئون حلفائهم وأصدقائهم المسلمين فقط. ووفقــاً لذلك، فإنه يجب على المسلمين مساعدة غير المسلمين، ولكن لأغراض محددة ومعينة. ويجب على المسلمين فعل هذا فقط إذا كانوا ضعفاء وفي حاجة للمساعدة. ولكن بمجرد استعادة المسلمين لقوتهم، فإنه يجب عليهم إعلان قوتهم وسيطرتهم على الجميع، ويجب على المسلمين عدم السماح لأنفسهم بأن يتخذوا من غير المسلمين أصدقاءً أو أحباءً. وإن عدم إسلام غير المسلمين يعد خطأ أخلاقيًا وأن أي مسلم يظهر اهتمامه تجاه غير المسلم، فإن هذا إشارة إلى أن هذا المسلم يضع مشاعره في منزلة مقدمة على التزاماته الدينية، وهذا يدل على ضعف إيمانه. فيمكن للمسلم أن يظهر العطف تجاه غير المسلم وهذا فقط للظهور بالمثال الجيد، أو يمكن تقديم المساعدة في الحالات القصوى فقط، ولكن في كل الأحوال لا يجب على المسلم أن يحب غير المسلم؛ لأن هذا يعد تمامًا مثل حب شيء غير أخلاقي. ويجب على المسلم أن يعمل جاهدًا ليثبت تفوقه على غير المسلم. وكان هدف كل المسلمين هو وضع العالم بأكمله تحت سيطرة الإسلام عن طريق جعلهم "أهل ذمة" أو تحويلهم إلى الإسلام، وبطريقة أخرى، يجب على معسكر الخير (الإسلام) إمّا أن يحكم معسكر الشر أو يحوله إلى خير . ولقد بدأ

المعتدلون بداية مختلفة فلقد حاولوا فهم السبب الرئيسي من خلق الله لعباده. والغرض من الإسلام. بينما آمن المتشددون بأن وجود غير المسلمين هو عبارة عن فترة مؤقتة وأن الإسلام سوف يقوم بمعالجتها، وأنه قريبًا سوف يتحول العالم بأكمله إلى الإسلام، ولكن المعتدلين رفضوا هذه النظرية واعتبروها مضادة للمشيئة الإلهية. وقد جادل المعتدلون في أن القرآن لم يقبل فقط، ولكنه توقع الاختلاف والتناظر داخل المجتمع، فقد ذكر في القرآن الكريم: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ".

(سورة الحجرات/ آية ١٣)

وفي آية أخرى يؤكد القرآن على أن هذا الاختلاف يعد من المشيئة الإلهية.. فيقول الله في كتابه العزيز: "وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاء فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ " ..

(سورة الشورى- آية ٨)

ولقد أكد المعتدلون أن القرآن أكد على أهمية مبدأ التنوع وأكد أن طبيعة الإنسان قابلة للتغير بشكل هائل، فلم يذكر القرآن أن التنوع بين البشر يمثل مرضًا أو شرًا، فالتنوع يعد جزءًا من الغرض من الخلق. والمشيئة الإلهية في التعارف بين الشعوب يعد أمرًا إلزاميًا على المسلمين، ويجب عليهم التعاون والعمل مع المسلمين وغير المسلمين. وكما قال "باكير محمد الحكيم" خامس إمام شيعي "إن ازدهار الشعوب يمكن أن يأتي فقط عن طريق التعايش".

فعلى سبيل المثال، وكما ذكر في القرآن أكثر من مرة، أن الله لو شاء لخلق الناس أمة واحدة، ولخلقهم جميعًا مؤمنين، ولكن في الحقيقة، فإن القرآن أكد على حتمية الاختلاف بين الناس، وأن المشيئة الإلهية في جعل الناس مختلفين ومعتدلين يوضح مراعاة الله لحرية الفرد، وأيضًا إعطاء الله

الناس الفرصة على قياس قدرة التحمل. ولأن التنوع هو جزء من المشيئة الإلهية، فقد أكد المعتدلون أنه لا يجب على الناس إعادة المجادلة في مشيئة الله.

بالإضافة إلى وجوب التسامح، فقد ألزم القرآن الناس أن يتفاعلوا مع بعضهم البعض من أجل السعي إلى الأفضلية. وبسبب أهمية هذه النقطة، ولأن هذا الجزء من القرآن يعد غريبًا على بعض الناس في الغرب، فسوف آتي بنص قرآني صريح يثبت هذا.. فعلى سبيل المثال يقول الله تعالى: "وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ "
(سورة المائدة/ آية ٤٨).

وتأكيدًا لنفس النقطة.. وجه القرآن خطابه للمؤمنين.. فقال الله تعالى: "وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ"
(سورة العنكبوت/آية ٤٦).

ويؤكد القرآن أيضا: "ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ " (سورة النحل/ آية ١٢٥).

وتأكيدًا لما سبق فقد قال الله تعالى في كتابه العزيز: "قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ".
(سورة آل عمران/ آية ٦٤)

فالجزء الأول من هذه الآية يعد تذكيرًا للمسلمين والمسيحين واليهود أنهم جميعًا يعبدون إلهًا واحدًا وهو الله. والجزء الثاني يؤكد أنه يجب على جميع الناس العيش معًا، وألا يحاول أحد فرض سيطرته على الآخر.

ونفس الموضوع تم تأكيده في "آيات السلام". فلقد اشتق لفظ "الإسلام" من السلام، والذي يعني الأمان والهدوء والطمأنينة.. وأن آيات السلام في القرآن لا تشير فقط إلى تسامح الأديان مع بعضها البعض، ولكنها تشير أيضًا إلى التعاون للوصول إلى رضا الله على الأرض. ففي آيات السلام أكّد القرآن على أنه خلال تعامل المسلمين مع غير المسلمين، يجب على المسلمين إظهار مدى التزامهم بأوامر الله، ولكن لو حاول غير المسلمين رفض الحقيقة، فإنه يجب على المسلمين الانصراف عنهم وعدم السلام عليهم. وبهذه الرؤية يؤكد المسلمون لمعارضيهم أن خلافاتهم ليست شخصية. وأن المسلمين لا يحملون أي حقد تجاه معارضيهم. وحتى إذا رفض المعارضون الرسالة الإسلامية، فإن القرآن أمر المسلمين بأن يردوا ردًا مناسبًا ولائقـًا أمام هذا الرفض، وهو أن يتمنوا لمعارضيهم نعمة السلام.

وحتى لو تم رفض الإسلام، فإن شيئًا سوف يبقى، ألا وهو أن كل المسلمين وغير المسلمين يبحثون عن خلق آلية لا تعمل – فقط – من أجل التوفيق بين الناس بعضهم البعض، ولكن أيضًا من أجل الاتحاد في السعي إلى الفضيلة وتعمير الأرض، فقد قال الله في كتابه العزيز: "وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْـوَى وَلاَ تَعَاوَنُـواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ" (سورة المائدة/ آية ٢)

فهذا الأمر هو جزء من أوامر الله العليا التي يجب أن تطبق على الأرض؛ لتأسيس القيم المثالية مثل: العدالة والرحمة والشفقة والإحسان

والجمال على الأرض. وفي الواقع، فإن تعاون المسلمين وغير المسلمين لا يعني فقط استيعاب أو تحقيق الاختلاف، ولكن يعني إيجاد القواسم المشتركة لتطبيق الخير على الأرض. ولقد أكّد القرآن أنه يمكن أن تختلف كل مجموعة من حيث قوانينها وقواعدها، ولكن هذا لا يعني منع وجود تعاون بينهم.

فيقول الله تبارك وتعالى: "وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَـئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِـي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ

(سورة المائدة/ آية ٤٣-٤٤)

ويقول الحق تبارك وتعالى: "وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ * وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ".

(سورة المائدة/ آية ٤٦-٤٨)

إن أتباع إبراهيم بذلوا كل جهودهم وبرعوا في تقديم المساعدة من أجل الخير. وأن الانجذاب الأدبي والقرب الروحي بين المسلمين وأتباع إبراهيم مؤكد جدًا في القرآن، فلا يوجد في القرآن ما يمنع التعاون بين كل أجناس الأرض من أجل خلق مجتمع يرضى الله عنه.

ولقد أكد المعتدلون أنه بجانب التعاون الذي يجب أن يكون بين الناس لنشر الخير، فقد أكد القرآن الكريم فكرة تعددية القوانين واختلافها. ففي الواقع، يعد اختلاف الناس وتناظرهم جزءًا من المشيئة الإلهية. ومن منظور آخر، فإن أي واحد يرفض الاختلاف والتعددية ويحاول فرض قانون موحد على البشرية، فإنه بذلك يتحدى القرآن. وأنه من الممكن أن يكون للناس آراء مختلفة وقوانين وطقوس مختلفة، ولكنهم يتحدون في مبادئهم الأخلاقية. وبينما تتعلق القوانين بالطقوس والشعائر الدينية والقوانين التنظيمية المتعلقة بإدارة العدالة المتوقعة، فإنه يجب أن يكون هناك قدر كبير من المساحة الأدبية والأخلاقيه بين كل من المسلمين وغير المسلمين . وردًا على هذا الموقف المعتدل، فلقد رجع المتشددون إلى آيات القرآن التي تتطرق إلى موضوع الولاء (البحث عن الحلفاء غير المسلمين) لمحاولة إثبات تحريم الإسلام لأي نوع من التعاون بين المسلمين وغير المسلمين، فتلك الآيات دعت المسلمين إلى عدم التحالف مع أعداء الإسلام. ومن الملاحظ أن نفس السور القرآنية التي تتكلم عن الوحدة الرئيسية بين الديانات الإبراهيمية، تحتوي أيضًا على بعض الآيات التي تأمر المسلمين بعدم التحالف مع غير المسلمين. وهذه الحقائق جعلت علماء الغرب يستنتجون ويظنون أن هذه الآيات متعارضة ومتناقضة، ولكن المتشددين تعاملوا مع هذه الآيات المتعارضة بأنهم قالوا أن آيات التصالح مع غير المسلمين قد أُلغيت؛ بسبب آيات عدم التحالف معهم. ومن ناحيه أخرى، يرى المعتدلون أن هذا

الاختلاف بين الآيات القرآنية كان بسبب اختلاف الأحداث التاريخية على مر العصور الإسلامية.

إن الآيات التي تدعو المسلمين لمساعدة المجتمعات الإسلامية الحديثة في المدينة لا تشتمل على إدانه شاملة لليهود أو المسيحيين الذين سوف يلاقون جزاءهم عند الله. ولكن بدلاً من ذلك، فقد تقبل المتشددون اختلاف المجتمعات اليهودية والمسيحية واختلاف قوانينهم مع التمسك أنه في حالة الصراع أو الحروب، فإنه يجب على المسلمين عدم التحالف مع أعداء الإسلام. ويرى المتشددون أن القرآن قد حذر المسلمين من التحالف مع غير المسلمين، وأنه من الواجب أن يختاروا حلفاءهم. ويذكر المتشددون أيضًا أنه ورد في القرآن أنه خلال المعارك بين المسلمين وغير المسلمين يجب على الأحزاب الإسلامية الامتناع عن تقديم أي مساعدات للقوات غير الإسلامية. وأن آيات عدم التحالف مع غير المسلمين ذكرت في القرآن في ظل المعارك التي كانت قائمة بين المسلمين وغير المسلمين، ولقد أمر القرآن المسلمين ألا يقدموا أي مساعدات للذين يمكن أن يلحقوا الضرر بالمسلمين، ولكن هذا لا يعني أن القرآن حث المسلمين في المقام الأول على القتال ضد غير المسلمين، فلقد دعا القرآن المسلمين إلى أنه في حالة غياب الظروف الاستثنائية والحروب، فإنه يجب عليهم أن يتعاونوا مع غير المسلمين للوصول إلى تطبيق الخير على الأرض. وسوف يتضح هذا عندما أشرح موقف كل من المتشددين والمعتدلين تجاه موقف الحرب.

وقد كان التحليل القرآني للمعتدلين مختلفـاً تمامًا مع تحليل المتشددين، فلقد رأي المعتدلون أن الله لا يرغب في أن يتحكم المسلمون في غير المسلمين. إذ أمر المسلمين أن يدعوا غيرهم إلي ديانة الإسلام بالحسنى، وعليهم أن يعرفوا أنه لن يستجيب كل الناس لدعوتهم. والجدير بالذكر، أنه

عن طريق هذه الدعوة فسوف يتعرف الناس على بعضهم البعض. ولكن هذا التعارف من الممكن أن يكون غير ذي قيمة، إذا كان ليس من أجل نشر الخير وتعمير الأرض. ومن هذا المنظور، فقد رفض المعتدلون المذاهب التي تدعو إلى الكراهية والانتقام من غير المسلمين الذين يعيشون على الأراضي الإسلامية.*ولقد آمن المعتدلون بأن سياسة التفرقة بين المسلمين وغير المسلمين عن طريق إرغام غير المسلمين بارتداء شارة معينة أو وضع القيود على بناء الكنائس، لا يتفق مع تعاليم الإسلام، وبذلك فإنه يجب شجب هذه القوانين، وأن سلب حقوق وكرامة غير المسلمين يعد خيانة للثقة الإلهية في نشر الخير على الأرض.

بالإضافة إلى أن الغالبية العظمى للمسلمين المعتدلين رفضت نظام الجزية، فهو يعد غير ملائم لعصر الديمقراطية، فنظام فرض الجزية على الديانات والشعوب الأقلية كان منتشرًا جدًا في القرون الوسطى وظروف الحداثة ألغت هذا النظام؛ لأن هذا النظام في العصر الحديث يعد منافيًا لكل مبادئ العدالة والكرامة. وكان مبرر نظام الجزية في العصور الوسطى أنه كان نظامًا تبادليًا، فيجب على الأحزاب الضعيفة دفع جزية للأحزاب الأقوى من أجل الحماية. فعلى سبيل المثال، كان المسلمون مجبرين على دفع ضرائب للدول الأقوى، ولكن في العصر الحديث، فإن نظام دفع الجزية يعد إهانة وعرقلة للمشاريع التعاونية التي تهدف إلى نشر الخير والعدل في العالم[١٢] .

---

[12] إن تقرير وجوب أخذ الجزية من أهل الكتاب قد ورد في الآية ٢٩ من سورة التوبة. ولكن ترتفع بعض الأصوات في زماننا هذا وتطالب بإيقاف أخذ الجزية؛ لأن ذلك الحكم لم يعد يناسب العصر. إن هناك أحكامًا أخرى قطعية وردت في الكتاب والسنّة المطهرة

ويمكن تبرير نظام الجزية اليوم إذا كانت تصرفات المسلمين تجاه غير المسلمين عنصرية. وفي الحقيقة، فإن تعامل المتشددين مع غير المسلمين كان عنصريًا، بينما آمن المعتدلون أن الأسلوب العنصري يعد متعارضًا تمامًا مع الديانة الإسلامية وبالأخص نظرية الخلاص. فقد كان مبرر المتشددين للممارسة العنصرية هو إيمانهم الشديد بأنهم وحدهم يمتلكون الحقيقة المطلقة وأن باقي الشعوب كافرين. إن هذا الاعتقاد في أن الله إلى جانب مجموعة معينة وأن باقـي الناس ملعونون، قد أدى إلى الاقتناع التام بأن أي شخص لا يتبع سياسة المتشددين، يعد أقل شأنـًا من المتشددين. ولا يوجد جدال في أن هذا بسبب حالة جماعات المسلمين المتشددين، فإنهم استخدموا أفكارهم عن الخلاص والإدانة من أجل تبرير تصرفاتهم الوحشية وغير الآدمية.

إن موضوع الخلاص في أفكار المعتدلين دقيق جدًا؛ وذلك لأن هذا الموضوع قد تم تناوله في القرآن الكريم بدقة بالغة. وكان المبدأ الأول هو أن الله وحده هو مالك يوم القيامة، وأن مشيئة الله غير محدودة. وأن الله وحده

تمثل الثوابت التي لا يجرؤ أحد على المساس بها أو تبديلها أو إيقافها بحجة أو بأخرى. ومن تلك: الحدود من جلد ورجم الزناة وشاربي الخمر، والقاذفين للمحصنات، ومثل تعديل ميراث الأنثى ليكون كاملاً وليس النصف مساواة بالرجل. فكل هذه الأحكام والحدود طبقت زمن الرسول كرجم "ماعز والغامدية" في الحديث المشهور وسوف يجري تطبيق هذه الأحكام في قادم الأزمان ولو كان قبيل قيام الساعة وفي أي مكان؛ لأنها وغيرها قد نص عليها القرآن أو السنّة، ولأن الإسلام هو آخر الأديان الصالح لكل زمان ومكان على تغير الأحوال، وكذلك الأمر بالنسبة لميراث الأنثى فلا تغيير ولا تعديل؛ لأن هذا الحكم وغيره من أحكام قد صدرت من الحكيم الخبير رب الناس الرحيم ولأنه لا تبديل لحكم الله. (المترجم)

هو الذي يغفر أو لايغفر، ولذلك يقول الله تعالى لنبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) في القرآن الكريم: "لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ". (سورة آل عمران/ آية ١٢٨-١٢٩)

وبعد الإقرار بمشيئة وقدرة الله، نجد أن الله قد فرض التزامات على الناس طبقــاً لإيمانهم وأفعالهم. ولقد أكّد القرآن أن الإسلام حق وأنه من عند الله، وأن محمدًا هو آخر الرسل. فعلى سبيل المثال: قال الله تعالى في كتابه العزيز: " لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ * وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ". (سورة الحج/ آية ٦٧-٦٩)

والأهم من ذلك أن القرآن لم يستبعد احتمالية وجود طرق أُخرى للخلاص. والعامل الرئيسي في هذا الموضوع هو: من هو الذي يستحق رحمة الله ؟؟.. والقرآن يؤكد أن مشيئة الله غير محدودة. فالله يدخل من يشاء في رحمته. والقرآن يوضح مدى الاستياء من الذين يقومون بوضع حدود لمشيئة الله طبقــاً لمعاييرهم ومفاهيمهم ومصلحتهم الخاصة. ففي البداية يؤكد القرآن أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أُرسل رحمة للعالمين. وأن الله وحده هو الذي يحدد من سيشمله برحمته في الأرض أو في السماء، وأنه يعد تجاوزًا غير مسموح به إذا حاول أحد القول أو التخمين بشأن من سيدخل رحمة الله ومن سيحرم منها.

واستكمالاً لموضوع شمول وعمومية رحمة الله، فالقرآن مضى في بشارة بعض الناس الذين قد يكونون بالضرورة مسلمين، فقد قال الله تعالى:

" وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ"

(سورة الحج/ آية ٣٤).

وتتضمن هذه الآية، إنه بالرغم من اختلاف الطرق، إلا أنهم مازالوا يتوجهون إلى الله. ولقد ذكر القرآن أن من يعبد الله حق عبادته، فإنه يُجزى بالحسنات والخيرات، وهذه هي النقطة الرئيسية. فبغض النظر عن الطريق، فإن أهم شيء هو عبادة الله وحده.

ونقطة هامة أخرى، فلقد أكد القرآن أن تعددية القوانين الدينية تعد مبدأ شرعيًا. فقد قال الله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ " (سورة البقرة/ آية ٦٢)

وفي آية أخرى يقول الحق تبارك وتعالى: "وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَـئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ"

(سورة آل عمران/ آية ١٩٩)

وكما ذكر من قبل، فإن "أهل الكتاب" هم اليهود والمسيحيون.

ولقد أدرك المعتدلون نقطة هامة في القرآن وإن كانت غير ملحوظة. إذ لا يوجد أدنى شك في أن المسلمين الذين يؤمنون بالله ويتقونه في أعمالهم سوف يدخلون الجنة وستكون لهم مكافأة كبيرة يوم القيامة، ولكن القرآن يؤكد على أنه غير مسموح لأي أحد بأن يحدد من يمكن أن يدخل في رحمة الله ومن لا يدخل. وأكد أيضًا احتمالية انتفاع غير المسلمين بنعم الله. ولقد كرر القرآن هذه النقطة في أكثر من موضع بشكل ملحوظ، مؤكدًا أنه يجب على

المسلمين ألا ينفوا احتمالية نيل غير المسلمين للخلاص (أي النجاة من النار). وقد آمن المعتدلون أن هذا يوضح طريقة المعاملة التي يجب على المسلمين اتباعها في التعامل مع الغير. فغير مسموح للمسلمين بتحديد ماذا سيفعل الله مع غير المسلمين، وبالتالي يجب على المسلمين التعامل مع الغير على أساس الخير والجمال الذي خلقه الله في قلب كل إنسان. ولا يجوز الاعتقاد بأن غير المسلمين ملعونون؛ لأن هذا قد يؤثر في سلوكهم وتعاملهم مع غير المسلمين. إن الله يؤكد أنه لايسمح لأحد حتى ولو كان مسلمًا أن يشرك بالله بادعائه أنه صوت الله في الأرض، ويجب على البشر أن يعرفوا مكانتهم، وأن هذا التواضع هو الذي يفرق بين طاعة الله وعصيانه.

ولقد رد المتشددون على المعتدلين بكلمة واحدة وهي "باطل". والتي تعني أن كل الآيات التي تتكلم عن التسامح والتعاون مع غير المسلمين تعتبر باطلة وملغاة. ففي نظر المتشددين أن الله هو الذي قرر أن يبطل الآيات القرآنية التي يأمر المسلمين فيها بالتعاون مع غير المسلمين. وأن الله أمر المسلمين أن يكونوا متسامحين مع غير المسلمين – فقط – عندما كان الإسلام ضعيفـًا، ولكن بمجرد أن يصبح الإسلام قويًا وذا سلطة، فيجب على المسلمين تدمير غير المسلمين أو على الأقل أن يكونوا معادين لهم.

وبالنسبة إلى المعتدلين، فإن نظرية المتشددين ليس لها أي أساس من الصحة. وأن هذه النظرية الانتهازية ليست لها علاقة بعدل الله ورحمته. وأنهم بذلك يقومون بتحدي الله؛ لأنهم يأمرون الناس بأن يتعاملوا بخلق حسن إلى أن يصلوا إلى أهدافهم الشخصية، وليست هذه هي الطريقة التي ينظر بها المعتدلون إلى الإسلام، ولم تكن هذه هي طريقتهم في قراءة وفهم القرآن.

ولقد أعلن المتشددون أن أي جزء في القرآن يكون متعارضًا مع نظريتهم يصبح ملغيًا وباطلاً. وفي هذه الحالة ادعى المتشددون أن ما يطلقون عليه آيات الجهاد، قد أبطل كل الأيات القرآنيه التي تدعو إلى التسامح والتعاون. وسوف أتناول موضوع الجهاد وآيات الجهاد في الفصل التالي. وسواء اتبع المتشددون مذهب الجهاد أو أي مذهب فقهي آخر، فإن المشكلة الرئيسية هي وجهة نظرهم التعصبية. لقد حاول المتشددون بكل الطرق أن يجدوا مذهبًا يستطيعون من خلاله إدخال نظريتهم وأفكارهم إلى الديانة الإسلامية، وذلك يدل على أن نظريتهم غير ذات صلة بالقرآن الكريم، فقد ذكروا نظريات غريبة.. وعلى سبيل المثال، ادعّوا بأن بعض الآيات القرآنية باطلة لا من قبل الناس، ولكن من قبل الله، وكذلك أهملوا بعض أجزاء الكتاب المقدس.

الفصل الحادي عشر

الجهاد والحرب والإرهاب

لا يوجد جانب من جوانب الدين الإسلامي يستحوذ بكثرة على نظر الجمهور وكل وسائل الإعلام اليومية كما هو الأمر بالنسبة إلى موضوع الجهاد والإرهاب. وفي الحقيقة، فإن موضوع الجهاد في الإسلام يقوم على قاعدة معظم الدعاوى حول استطاعة الإسلام أن يتعايش ويتعاون مع غير المسلمين. وبالرغم من كل الكتابات التي كتبت عن هذا الموضوع، فالذي يبدو محيرًا هو كيفية فهم كثير من المسلمين للعقيدة بطريقة جد مختلفة. ومن المؤكد أن كثيرًا مما كتب عن الجهاد مصادره ضعيفة إن لم تكن معدومة. ولكننا – أيضًا – لا نفكر في أن بيانات وسلوك المسلمين خاصة في العصر الحديث، قد جعلت مفهوم الجهاد مدعاة للارتباك والتشويش. فالجهاد – خاصة– كما صوّره الإعلام الغربي غالبًا مايكون مرتبطـًا بفكرة الحرب المقدسة التي تذاع تحت اسم الله ضد الكافرين، والتي تساوت – في أغلب الأحيان – مع أكثر الصور الفظة للتعصب الديني. والأسوأ من كل هذا أن الإرهاب قد دنّس سمعة ثاني أكبر ديانة في العالم.

ولم يكن غريبًا أن مواقف المعتدلين والمتشددين حول هذه القضية جد مختلفة، فكل واحد من الفريقين عالم وحده، أو أن المشكلة هي أن المتشددين يتكلمون بصوت أعلى من المعتدلين، ذلك أن المتشددين يتحدثون بلغة البنادق، فماذا يملك المعتدلون في مواجهة السلاح؟!

ولسوف يكون أكثر سهولة أن نفهم أولاً المناقشات ضد الموروث القديم. وأنا لا أتفق مع العلماء الذين يعتقدون أن الماضي هو الذي يحدد المستقبل، ولكن التراث القديم قد لعب دورًا هامًا في موضوع الجهاد والحرب.

الجهاد مبدأ جوهري في علوم الدين الإسلامية، فالكلمة نفسها تعني حرفيًا "الكفاح وترويض النفس على الكفاح والمثابرة"، وفي حالات كثيرة،

يعني الجهاد خلق عمل روحي أخلاقي مادي قوي في الإسلام، فالتقوى والمعرفة والصحة والجمال ومساندة الحق لا يمكن أن تتواجد بدون الجهاد، ولذلك فإن تطهير النفس من الغرور والسعي إلى المعرفة ومعالجة المرضى وإطعام الفقراء ومظاهرة الحق والعدل كلها أشكال وصور للجهاد.

ولقد استخدم القرآن كلمة الجهاد للإشارة إلى الأعمال التي فيها نضال من أجل نصرة الله في الأرض، وتتمثل في كل الأشكال التي ذكرناها آنفا. ولقد ذكر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن أعظم أنواع الجهاد هو جهاد النفس ومقاومة شهواتها أو الجهر بالحق أمام الحاكم المستبد والصبر على ما يستتبع ذلك من اضطهاد ومعاناة. وبذات المنطق ومن نفس المنطلق، فإن الكفاح والعمل الشاق في الحرب - شريطة أن تكون تلك الحرب عادلة - يعتبران - أيضًا - من الجهاد. ويجب التأكيد على أنه طالما أن الهدف والداعي إلى الحرب أمر جيد، فإن ذلك الصراع يعتبر من الجهاد، كذلك فإن مقاتلة الأمم الظالمة واستعمال القوة معها يعتبر جهادًا.

لقد أصبح الجهاد رمزًا للعمل الشاق والمثابرة والنجاح في التاريخ الإسلامي. وإذا قامت الحرب بين المسلمين وغير المسلمين، فإن الداعي إلى ذلك هو الجهاد، ويجب أن يدعو إلى ذلك الجهاد قائد المسلمين نفسه، على حين أنه إذا كان الجهاد يتعلق بمسألة داخلية كاحتجاج أو تمرد أو تنظيم لتوفير مال لبناء مدرسة أو مكتبة أو مأوى للطلاب والقطط الضالة - كما كانت العادة في العصور الكلاسيكية - فإن الدعوة لذلك الجهاد كان يتولاها العلماء الذين يناصرون قضية معينة، فهل كان الناس يهرعون إلى الجهاد؟ إن ذلك يتوقف على السلطة الأدبية والمكانة الاجتماعية للعالم أو القائد. وإنه مالم يصدر قائد معين أمرًا بالتجنيد العسكري الإجباري، فإنه لن يكون هناك خيار سوى تمني أن تقنع الدعوة للجهاد عددًا كافيًا من الناس للانضمام إلى صفوف المقاتلين أيًا كان سبب الحرب.

هل كان هناك علم دين خاص بالجهاد المقدس الذي كان يقصد به بعد ذلك الجنود المسيحيين في العقيدة الكاثولوكية؟ والإجابة هنا هي بالنفي، إذ إن التقاليد الدينية الإسلامية لا تتضمن فكرة الحرب المقدسة، فالإسلام قد خلا من أي شيء مثل مؤسسة السلطة البابوية التي بإمكانها أن تصدر قرارًا عن الوضع المقدس للحرب. الفرق الرئيسي هو أنه يوجد في المسيحية مؤسسة تستطيع بشكل حاسم وقاطع أن تمنح القوات العسكرية مرتبة الصليبيين أو الرحلة في جيش الرب وتضمن الخلاص لهؤلاء الجنود المحاربين. أما بالنسبة للإسلام فإنه لا يوجد أحد - حتى الخليفة نفسه - يملك القوة لضمان خلاص المحاربين أوافتدائهم أو صبغ حملة عسكرية بصبغة إلهية أو مقدسة. فالجهاد يعني الكفاح، ومصطلح "الحرب المقدسة" لم يرد ذكره في القرآن، ولم يتردد على ألسنة علماء الدين، ففي الإسلام لم تكن الحرب مقدسة على الإطلاق، إذ هي إما أن تكون مبررة أو غير مبررة، فإن كان للحرب ما يبررها، فأولئك الذين يسقطون قتلى يعتبرون شهداء عند الله وهم في أعلى الدرجات والله وحده هو العليم بنوايا أولئك المقاتلين وأسباب قتالهم، وهذا يحدد منزلتهم عند الله أهم شهداء أم غير شهداء. ولم يشر القرآن إلى فكرة الحرب المفتوحة غير المحددة، ولم ينظر إلى الحقيقة البسيطة المتمثلة في الاشتراك الفعلي في الحرب من جانب المسلمين، فلم يعتبر وجودهم ودخولهم إلى القتال أمرًا كافيًا لتبرير الحرب وجعلها حربًا مقدسة. إن القرآن لم يستثنِ إمكانية وجود مسلم يحارب معتمدًا على مبدأ غير عادل، ومن ثم، فإن مثل ذلك المسلم لا يعد مجاهدًا. وحسب مفهوم القرآن فإنه يمكن أن تكون الحرب ضرورية بل قد تكون أحيانًا إلزامية، ولكن الحرب لم تكن -أبدًا- من أخلاقيات هذا الدين.

لم يذكر القرآن كلمة "الجهاد" للإشارة إلى الصراع أو الحرب، فمثل هذه الأعمال يُشار إليها على أنها قتال، بينما دعوة القرآن إلى الجهاد مشروطة

ومقيدة، وهذا ليس هو الحال بالنسبة للقتال. فالجهاد حسن في حد ذاته وفيما يتعلق به، بينما القتال ليس كذلك، والجهاد حسن؛ لأنه مثل عمل البروتستانت الأخلاقي الذي يعني عملاً شاقًا من أجل سبب حسن. وعلى أية حال، فإن القتال - أي الحرب - أمر مختلف تمامًا. إن كل إشارة في القرآن إلى القتال، إنما جاءت مقيدة ومحددة بظروف خاصة، ولكن الحض على الجهاد كالإشارات إلى العدل والصدق، هي مطلقة وغير مشروطة. وفي كل مناسبة مفردة، يحض فيها القرآن المسلمين على القتال، فإنه يسارع ويقيد الحض على القتال بأمر للمؤمنين بألا يعتدوا، وأن يصفحوا، وينشدوا السلام. وبالرغم من أن هذه الحقيقة تُستشف وتُعرف من مجرد قراءة النص القرآني، إلا أن هذه الحقيقة النصية تملص منها بشدة عدد كبير من علماء المسلمين وغير المسلمين في علوم القرآن، ومع ذلك وبعيدًا عن المناقشة، فإن القرآن لم يظاهر أبدًا الخيار العسكري دون أن يقيد هذا الاختيار بشروط محددة.

وعلى الرغم من أن القرآن لم يتغاضَ عن فكرة الحرب غير المحددة أو الحرب المقدسة، فإن الأحوال التاريخية لفقهاء المسلمين في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، أوضحت التأثيرات العميقة التي أحدثتها قرارات وتفسيرات هؤلاء الفقهاء للقرآن، ففي خلال تلك الحقبة التاريخية وفي غياب معاهدات السلام، كانت الدول في حالة حرب دائمة مع بعضها البعض. ففي العصور الوسطى كان قهر وغزو الدول الضعيفة أمرًا سائغًا على مستوى الدول والإمبراطوريات، والأمثلة من التاريخ عديدة وكلها تثبت هذا، بما في ذلك قوانين اليونان والرومان والبيزنطيين ومملكة اللمبارديين (شعبٌ تيوتوني غزا إيطاليا) وممالك الفرنجة والقوطيين الغربيين والشرقيين والقبائل المنغولية والدول الصليبية، وغيرهم الكثير. ففي خلال القرون الوسطى كانت الشعوب تغزو بعضها البعض بطريقة جادة لفرض الحكم والسيطرة، وإذا حاولت أمة أن تصد الاحتلال، فإنه يجب على الأمة الضعيفة - حسب النظام

السائد في ذلك الوقت – أن توقع على اتفاقية تنص على أنه يجب أن تدفع قدرًا من المال للدولة الأقوى. على حين كانت الاتفاقيات السائدة بين الدول القوية تنص على عدم ممارسة العنف أو العدوان، وأن يعمل الجانبان على تطوير المصالح المشتركة بينهما.. والحقيقة هي أن تطلعات وطموح أي قائد تستطيع – بسهولة – إلغاء أي اتفاقية والعودة إلى الحرب. وإن من يقرأ تاريخ العصور الوسطى يجد أنه عبارة عن سلسلة متواصلة من الحروب والانتصارات والهزائم للأمم والإمبراطوريات.

كان هذا هو النظام السائد في الفترة التي كان القانون الإسلامي يتكون فيها، وذلك خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين. وعندما نتكلم عن القانون الدولي، فإن الفقهاء المسلمين أدخلوا ممارساتهم وعاداتهم في تفسيراتهم للقرآن والسنّة، وكانت هذه الأحداث هي السبب الرئيسي وراء سوء فهم الغرب للدين الإسلامي كما كان لها – أيضًا – تأثير كبير على نظرة المتشددين في العصر الحديث . وكثير من الفقهاء المسلمين قسّموا العالم إلى قسمين: دار الإسلام، ودار الحرب أو دار الكفر. ومن الناحية التاريخية، فإن مبدأ تقسيم الديار كان متبعًا من قبل في نظام تقسيم الأراضي المسيحية في القرن الثاني عشر. وعلى الرغم من أن كلمة "دار" تعني البيت، لكن المعنى المقصود بها هو الأراضي والسلطة القضائية الإسلامية في مقابل الأراضي والسلطة القضائية غير المسلمة، ولذا فقد فكر عدد كبير من الفقهاء في تقسيم الأراضي إلى قسمين: أراضي إسلامية، وأخرى غير إسلامية.

وطبقًا لوجهة النظر الخاصة بهذا التقسيم الثنائي التفرع، فإنه من المفترض أن يظل كل من المسلمين وغير المسلمين في حالة حرب مستمرة إلى أن يتمكن المسلمون من هزيمة غير المسلمين تمامًا. وطبقًا لآراء عدد كبير من فقهاء هذا العصر، فإنه يجب على الإسلام أن يعطي غير المسلمين ثلاثة اختيارات: التحول إلى الإسلام، أو دفع الجزية أو القتال. ولم يكن من

المعتقد أن يتحول العالم بأجمعه إلى الإسلام، ولكن كان يعتقد أنه من الضروري أن يسعى المسلمون لفرض سيطرتهم على العالم بأكمله. ولذلك فبالنسبة إلى دعاة النظام الثنائي التفرع، فإن الاختلافات والتعدد في الديانات لا يسبب أي مشكلة طالما أن هذا الاختلاف لا يشكل أي تحدٍ للسلطة الإسلامية. ولذلك فقد كانت الحرب دائمًا ضرورية لتأكيد سيادة المسلمين على غيرهم. ولقد أكد المدافعون عن النظام الثنائي أنه في ظل ظروف التنافس الصعبة، فإنه يجب على المسلمين أن يكونوا الحاكمين لا المحكومين، وقد افترض مقترحو وجهة النظر هذه، أن أي أمة غير مسلمة يجب أن يكون بينها وبين المسلمين علاقة عداوة إلى أن توجد معاهدة تثبت غير ذلك. وقد أعربوا عن اعتراضهم على اتفاقيات الإسلام التي لم يكن لها تاريخ انتهاء ودعوا في كثير من الحالات إلى تحديد مدة المعاهدات بعشر سنوات، وقد كانت معاهدات هذه الحقبة لاتستمر إلى الأبد، فمن الممكن أن تؤرخ المعاهدة بحيث تنتهي بعد تسعة وتسعين عامًا، لكنه يجب أن يكون هناك موعد لانتهاء استمرار المعاهدة، وعلى الرغم من أن المعاهدات المحددة بأجل كانت سائدة في عرف الأمم، إلا أنه طبقًا للفقهاء أصحاب الرؤية المزدوجة، فإن معاهدة السلام كانت تعد تنازلاً عن الحقوق السياسية، وكانت الحالة السائدة في هذا الوقت، هي أن الصراع بين كل من الدارين "دار الإسلام" و"دار الحرب" سيظل إلى الأبد إلى أن تهزم قوة الأخرى وتتولى السيطرة عليها.

ومن الواضح أن موضوع الحرب التي سادت بين المسلمين وغير المسلمين احتل المكانة الأولى في كتابات بعض فقهاء هذا الوقت. وقد أثّرت هذه الحروب في المعتقدات الدينية، وكان السبب الرئيسي لهذه الحالة هو أن بعض الفقهاء أكدوا أن الدول غير الإسلامية تشكل تهديدًا على المسلمين إلى أن يثبت العكس. وطبقًا للمعايير السائدة للعلاقات الدولية في هذا الوقت، فإنه إذا لم توجد اتفاقية إيجابية فإن كل دولة تعتبر في حالة حرب وعدوان مع

الدول الأخرى، ولذلك افترض بعض الفقهاء أن العلاقة بين غير المسلمين والمسلمين يجب أن تكون علاقة عداوة وحرب، وعليه فيجب على المسلمين أن يكونوا دائمًا في حالة استعداد للحرب إلى أن توجد اتفاقية سلام تفرض العكس. وعلى سبيل المثال، فقد اعتبر بعض الفقهاء أن كلاً من الإمبراطورية البيزنطية ودولة البندقية تشكلان خطرًا وتهديدًا على الأمة الإسلامية، إلا إذا تمت معاهدة سلام بينهم. وفي الواقع، فإن كلاً من البيزنطيين والفينيسيين في أوقات مختلفة، قد وقّعوا اتفاقيات سلام مع كل من مصر وسوريا، وبالمثل فقد افترض الفقهاء أن الأمم الفرنجية يمثلون تهديدًا أيضًا، ولكن في هذا الوقت كان افتراضهم صحيحًا بسبب الغزوات التي قام بها هؤلاء ضد المسلمين.

إن فكرة تقسيم العالم إلى أراضي إسلامية وغير إسلامية ذات تأثير كبير على الفقه الإسلامي. ولم يؤيد القرآن أو السنّة هذه الفكرة، فقد أمر القرآن المسلمين أن يعتبروا أنفسهم أفرادًا في مجتمع واحد، ويجب عليهم ألا يقسّموا العالم إلى أراضي إسلامية وغير إسلامية، وأنه لا يجوز أن يكونوا في حالة حرب دائمة مع غير المسلمين. فالمسكنين أو الدارين اللتين تحدث عنهما القرآن هما الدار الآخرة، والدار الأولى، والثانية هي تلك التي على الأرض. ولقد أكد كل من القرآن والسنّة النبوية أن كل المسلمين ينتمون إلى أمة واحدة، وهذا يؤكد الرابطة الأخلاقية التي توحد جميع المسلمين، وأن المسلمين يجب أن يكونوا كلهم إخوة. ففكرة تقسيم العالم إلى قسمين متضادين لم تؤيد في المصادر الإسلامية إلا بنسبة ضئيلة جدًا.

إن وجهة النظر القائلة بالتقسيم المتفرع إلى اثنين، هي الوجهة السائدة خلال التاريخ الإسلامي. فكتابات بعض الفقهاء خلال هذا الوقت وبالأخص خلال القرن العشرين، تؤكد أنه قد كان هناك قسم ثالث في العالم وهو القسم

المحايد، وكان يشار إليه بـــ"دار الصلح" أو "دار العهد" وكان يتضمن غير المسلمين الذين كان بينهم وبين المسلمين علاقة سلام من خلال معاهدة سلام رسمية أو من خلال ممارسات معتادة بينهم. ولم يكن للجهاد العدواني أي دور في هذا القسم. وفي الواقع، فإنه إذا قامت أي جماعة إسلامية بممارسة العنف ضد هذا القسم المحايد، فإن هذا لا يعتبر ذنبًا فقط ولكنه أيضًا يلزم هذه الجماعة بدفع التعويضات لما سببوه من خسائر ودمار لأهل هذه الأراضي المحايدة. ففي القرون الأولى للإسلام، تمتع الحبشيون والنوبيون غير المسلمين بحالة من السلام مع الأمة الإسلامية، وكان هذا يعد موقفًا حياديًا، فخلال الفترات التاريخية للإسلام كان غير المسلمين يوقعون اتفاقيات سلام مع الإمبراطورية العباسية وبعد تحطم هذه الإمبراطورية على يد إحدى السلالات الإسلامية، حدثت اتفاقيات سلام تخدم العلاقات التجارية حتى مع الدول الصليبية في القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر. ولذلك، فعندما نقرأ الممارسات التاريخية، نجد أن معارضي النظام الثنائي يؤكدون أن تقسيم العالم إلى ثلاثة أقسام يعد الطريقة الصحيحة لوصف العلاقات السائدة في العالم . ومن المهم أن نذكر أنه بالنسبة إلى هذا القسم الثالث، فإن كل ما يلزم كان اتفاقية أو معاهدة بعدم ممارسة العنف أو العدوان، أمّا علاقة المودة أو الصداقة فلم تكن إلزامية. ولذلك، فلا يمكن للمسلمين استخدام عذر افتقار الصداقة لانتهاك اتفاقية السلام والهجوم على الدول غير المسلمة. فعلى سبيل المثال، في يومنا هذا وقعت الولايات المتحدة اتفاقيات سلام مع الكثير من الأمم الإسلامية مثل المملكة العربية السعودية، ومن ثم فإنه يعد محظورًا على أي جماعة سعودية القيام بهجمات على الولايات المتحدة في وجود هذه المعاهدة . وقد أكد التاريخ الإسلامي أن كلاً من النظام الثنائي والثلاثي ليس له أي أساس من الصحة وليس واقعيًا. فكثير من الفقهاء في العالم الإسلامي وخاصة عقب القرن الثاني عشر رفضوا تقسيم العالم إلى قسمين أو ثلاثة،

وبدأوا بطرح نظرية تنص على أن العالم مقسَّم إلى أنواع وأقسام عديدة. ولذلك فقد أكد معظم الفقهاء على أنه بالرغم من الانتماء السياسي لأي إقليم، فإن التقسيم يجب أن يكون على أساس إمكانية ممارسة العادات الإسلامية أو وجود العدل (دار العدل). وتأكيدًا على ذلك، فإذا استطاع المسلمون ممارسة العادات الإسلامية بحرية وعدل - على سبيل المثال - في الولايات المتحدة، فإنها تعد جزءًا من القسم الإسلامي. وبذلك يمكن لدولة يحكمها غير المسلمين ويوجد بها جزء من المسلمين، أن تكون جزءًا من العالم الإسلامي، وهذا يعني أنه لا يمكن محاربة أو ممارسة العنف ضد هذه الدولة.

وقد افترض بعضِ العلماء أنه يوجد إسلام رسمي وإسلام حقيقي، وبمعنى آخر، فإنه لو كان هناك أرض يحكمها حاكم مسلم ظالم أو غير عادل، فإن هذه الأرض تتبع الإسلام الرسمي. بينما الأراضي التي يحكمها حاكم إسلامي عادل وتتم ممارسة العادات الإسلامية فيها بحرية، فإن هذه الأراضي تتبع الإسلام الحقيقي. لكن بعض العلماء المسلمين أكدوا أن تقسيم العالم إلى ثلاثة أجزاء يعد غير صحيح. وأنه بدلاً من ذلك يجب أن يقسّم العالم إلى أكثر من ثلاثه أقسام، وأن يوضح مع كل قسم الجانب الأخلاقي والسياسي لهذه الأرض. وقد قال بعض الفقهاء إنه عندما يحكم المسلمين حكامٌ فاسدون وغير عادلين، فإنه يجب على المسلمين أن يتمسكوا بالإسلام الصحيح في قلوبهم.

ولقد ناقش الفقهاء الموضوع المعقد للأقسام. وناقشوا - أيضًا - ماذا يمكن أن يكون سببًا كافيًا وعادلاً لمحاربة غير المسلمين. وقد تركزت هذه المناقشات على موضوع هام وهو: هل يجب محاربة غير المسلمين بسبب عدم إيمانهم أو بسبب تشكيلهم تهديدًا للمسلمين. وانتهت هذه المناقشات بأن المبرر لمحاربة غير المسلمين؛ هو بسبب تشكيل تهديد على المسلمين، وإذا لم يشكل غير المسلمين تهديدًا على المسلمين، فإنه لا يجوز ممارسة العنف

والحروب ضدهم، وأن عدم إيمانهم أو كفرهم لا يعد سببًا كافيًا لممارسة العدوان والحروب عليهم.

ولذلك وطبقـًا لهذه التقاليد، فإن حياة الناس غير المحاربين تعد مصانة ومحفوظة. وعلى الرغم من أنهم غير مؤمنين، إلا أنهم لا يشكلون تهديدًا ولذلك لا تتم مهاجمتهم. واستنادًا إلى أوامر الرسول "صلى الله عليه وسلم"، فإن الفقهاء المسلمين أكدوا أن حياة البشر غير المقاتلين من أطفال ونساء وكبار سن والرهبان والكهنة أو أي شخص لا يتوقع منه أن يلحق الضرر بالمسلمين، تعتبر حياة هؤلاء محفوظة وغير مسموح بمهاجمتها حتى في خلال الحروب القائمة. وقد كان الرسول "صلى الله عليه وسلم" قبل القيام بأية حملة عسكرية، يأمر جنوده بعدم مهاجمة القوم غير المحاربين وعدم تدمير ممتلكاتهم وحقولهم ونباتاتهم، وكان يأمر بمساعدة الجرحى والمحتاجين، ويشمل هذا الأمر أسرى الحرب أيضًا. وفي حادثة شهيرة، عندما انتهت حملة عسكرية إسلامية، وجد الرسول (ص) جثة امرأة على الأرض، فقام بتوبيخ وعقاب جنوده على قتلهم لهذه المرأة.

ويعد هذا النظام هو الموروث بين المسلمين في العصر الحديث. ومثلما هو واضح من ملاحظة هذا النظام، فإنه لم يكن سهلاً أو بسيطًا، فقد كان يحتوي على الكثير من الاتجاهات والآراء، وكان على المسلمين تحديد كيف سيواجهون تحديات العصر، وكيف سيتعاملون معها، فبعض هذا التراث جاء مباشرة من القرآن. فمثلاً، هناك تحريم إيذاء أسرى الحرب أو انتهاك المعاهدات. والبعض من هذا التراث له صلة ضعيفة بالقرآن، وذلك مثل تقسيم العالم إلى قسمين. وكما ذكرنا من قبل، فإن القرآن قد تكلم عن المسلمين على أنهم أمة واحدة ولم يقسمهم الله إلى قسمين أو أكثر.

وعلى الرغم من ضعف العلاقة التي تربط النظام الثنائي بالديانة الإسلامية، إلا أن هذا النظام لعب دورًا هامًا في تشكيل النماذج الغربية

الفكرية عن الإسلام، فكثير من الكتب التي كتبها العلماء غير المسلمين في الغرب، وضعت أسطورة فرض الإسلام لوجوب تقسيم العالم إلى أقسام في نزاع دائم. ونفس الكتب أكدت على أن المسلمين المعاصرين يتبعون نفس النظام الثنائي في تقسيم العالم. وبالطبع فلم يكن هذا وصفًا دقيقًا للاتجاه الإسلامي الشرعي أو لمعتقدات وإيمان المسلمين اليوم، ولكنه كان وصفًا لمعتقدات وإدانات المتشددين المعاصرين للإسلام وشرعه، وكان المتشددون متعلقين بالنظام الثنائي بشدة وبما يصحبه من تعقيدات؛ وذلك لأنه كان يخدم اهتماماتهم الخاصة. وبالرغم من أن فكرة أراضي العالم الإسلامي والعالم المسيحي كانت نتيجة لظروف تاريخية، إلا أن المتشددين اعتبروا أن هذا النظام يُعد إلزاميًا في الديانة الإسلامية. و سواء آمن المتشددون بأن تقسيم الأراضي الإسلامية مرتبط بحروب أو بحالة هدنة، فإن النتيجة في الحالتين واحدة.

إن فكرة محاربة الأقسام كانت ذات فائدة في فترة معينة من التاريخ، ولكن إذا تم تطبيق هذا النظام الآن، فإنه سيؤدي إلى عواقب وخيمة، فقد كان هذا النظام مناسبًا للمتشددين؛ لأنه أعطى لهم ترخيصًا بمهاجمة أعدائهم دون إنذار، فلقد اعتبر المتشددون كل الدول غير الإسلامية أعداء للإسلام، ومن ثم يصبح لهم الحق في الهجوم عليهم جميعًا دون سابق إنذار في أي وقت وفي أي مكان. وأعطوا لأنفسهم الحق أيضًا بالهجوم على الأراضي غير الإسلامية أو أي مصالح لغير المسلمين في البلاد الإسلامية. ولقد ارتضى المتشددون نظرية إلزامية تقول إنه يمكن للمسلمين أن يوقعوا معاهدات سلام مع غير المسلمين، ولكن ذلك إذا كانت الأمة الإسلامية في حالة ضعف، وأن تكون هذه المعاهدة لمدة محددة، ولكن بمجرد أن تصبح الأمة الإسلامية أكثر قوة فإنه يجب على المسلمين أن يفرضوا سيطرتهم على غير المسلمين بإعطائهم ثلاثة خيارات: التحول إلى الإسلام، أو دفع الجزية أو الحرب.

هل هذا يفسر عنف المتشددين ضد الغرب في العصر الحديث؟؟ ليس بالضبط. فلقد آمن المتشددون بأنهم مرتبطون بحرب دفاعية لا هجومية. وكانت نتيجة هذا غريبة جدًا، فلو كانت هذه الحرب حربًا عدوانية أو كما تسمى في الشريعة "الحرب الوقائية"، فإنه كان يجب على المتشددين إعطاء الغرب خيار الدخول في الإسلام، ولكن المتشددين اعتقدوا أن هذه حرب دفاعية، ومن ثمّ فليس عليهم أن يحذروا أو يمتنعوا عن العدوان.

وكما ذكرنا في الفصل السابق فلقد آمن المتشددون بأن أغلب الأراضي الإسلامية ما تزال محتلة من قبل الغرب بالوكالة. فكثير من حكام العالم الإسلامي يعملون تحت وكالة أسيادهم من الغرب، ولذلك عندما تصل القوات الغربية إلى الشرق الأوسط بدعوة من الحكومات المحلية، فإن هذه الدعوة تعد غير شرعية أو ملزمة. إن الغرب ما يزال يمثل العدوان والمعتدين؛ لأنه من خلال وكلائه المحليين أباح لنفسه احتلال الأراضي الإسلامية، وكان هذا هو سبب هجوم المناضلين المتشددين منذ الثمانينيات على الأمريكيين والغرب في السعودية واليمن ومصر والكثير من الدول الإسلامية، ففي كل مثال من هذه الأمثلة آمن المتشددون أن الحكام المسلمين ليسوا إلا عملاءً للغرب. وعلى هذا الأساس، فإن أي معاهدات أعطاها هؤلاء الحكام للغرب تعتبر ملغاة، ومن ثمّ وتأكيدًا على ذلك، لا يجوز أن يتمتع الغرب بأي حصانة.

ولكن السؤال هنا هو: إذا كان المتشددون يعتقدون أن المسلمين محتلين عن طريق الغرب.. فلماذا لمْ يحارب المتشددون القوات الغربية الموجودة داخل الأراضي الإسلامية فقط بدلاً من أن يحاربوا الغرب في جميع أنحاء العالم؟؟؟ الإجابة هنا هي أن المتشددين على دراية بأن الغرب لديه قوات وجيوش كبيرة، بينما المسلمون كما يراهم المتشددون ضعفاء وسوف تتم هزيمتهم خلال أي حرب لهم مع الغرب، ولذلك يجب على المسلمين إيجاد طريقة بديلة عن الحرب. فمثلاً يمكنهم ضرب الأماكن التي يحسون أنهم

يمكنهم أن يحدثوا فيها أكبر قدر من الدمار، ونتيجة لهذا، فسوف ينسحب أعداؤهم من الأراضي الإسلامية. لقد كان منطق المتشددين في تبرير انتهاكاتهم للقوانين الأخلاقية الإسلامية، أن هذه هي الطريقة الوحيدة لهزيمة أعدائهم. ولأن المتشددين لم يتمتعوا بالقوة الكافية لهزيمة أعدائهم الغربيين، فإنهم قد حاولوا نيل الانتصار بأي وسيلة ممكنة. وبناءً على وجهة نظر المتشددين، فإن هجماتهم على المدنيين الغربيين سوف تجعل القوات الغربية تتوسل إليهم لكي يوقفوا هجماتهم، كما أن هؤلاء الغربيين سيتركون الأراضي الإسلامية ولن يحاولوا التفكير في حكم الأراضي الإسلامية.

إن الخلاف بين المتشددين والمعتدلين كان عميقًا جدًا في كل الموضوعات المتعلقة بالحرب والجهاد والإرهاب. وكان هذا الخلاف أيضًا راجعًا إلى القداسة والقيمة المعطاة للحياة وأي الأمثلة يريد الله من المسلمين أن يظهروا بها أمام البشرية. وكان الخلاف متعلقًا أيضًا بحالة الحرب الدائمة بين المسلمين وغير المسلمين، وما هي النتائج المترتبة على هذه الحرب، فهنا نجد اختلافًا كبيرًا في كيفية قراءة النصوص القرآنية المتعلقة بالحروب، والدوافع لممارسة العنف والنتائج المترتبة عليه.

وسوف يعترف كل من المتشددين والمعتدلين بأن السلام يعد مبدأً أخلاقيًا رئيسيًا وقد تكرر ذكره في كثير من الطقوس والممارسات الدينية مثل الصلاة والممارسات الاجتماعية مثل تحية السلام بين الناس. ولم يكن القرآن يتكلم عن التعابير الاصطلاحية للرغبات التي كانت عبارة عن طريقة لائقة لتجاهل الآخرين، فالإسلام كان يحث على السلام والمسامحة والرحمة. فهو يأمر المسلمين بالتسامح وأن يقولوا "سلام" ثم بيّن أن الله اختص نفسه بالرحمة، فكل من الرحمة والتسامح سواء أكانت مع المسلم أو غير المسلم تعد واجبة وضرورة للعيش في مجتمع يسوده السلام، ففي القرآن وجميع المصادر الإسلامية يعد السلام شرطًا هامًا وضروريًا لنيل الرضا الإلهي، فالكتابات

السابقة تؤكد أن الإسلام ليس فقط عبارة عن دين، ولكنه أيضًا يؤمن بالسلام وضرورة وجوده.

وطبقًا للقرآن فإنه يجب على كل المسلمين التعامل بالسلام والتسامح، وعلى هذا، فإن القرآن حريص على تحذير المسلمين من جعل ظروف الحقد والعداوة، بحيث تلوث قلوبهم، ولهذا أمر القرآن المسلمين ألا يجعلوا تصرفات الآخرين الظالمة مدعاة لتغيير أسلوبهم وتصرفاتهم تجاه الرحمة والمغفرة، وقد تم توكيد هذه النقطة أكثر من مرة في الإسلام. فعلى سبيل المثال، قال الله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ" (سورة المائدة/ آية ٨)

وحتى إذا عانى المسلمون، فإنه يجب عليهم التمسك بالأخلاق الإسلامية الحميدة. فقد جاء القرآن محددًا في هذه النقطة وأمر المسلمين بالآتي: يقول الحق تبارك وتعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ". (سورة المائدة/ آية ٢)

ويؤكد القرآن على أن الله لا يحب العدوان ولا يحب المعتدين، وأمر المسلمين أن يأخذوا حذرهم في التعامل، حتى لا يظلم أحد أحدًا عن طريق الخطأ. وقد أكد القرآن على وجود قانون للعقوبات، يطبق في بعض الحالات. وإذا تعرض المسلمون للهجوم، فإنه يجب عليهم أن يردوا بالحسنى، فإن أصر أعداؤهم على العنف، فإنه يجب على المسلمين أن يدافعوا عن دينهم دون استخدام العنف، إذ إن الحق تبارك وتعالى يقول في كتابه العزيز:

"الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ "

(سورة البقرة/ آية ١٩٤)

ففي هذا الجزء يشير القرآن إلى الحق في الدفاع عن النفس.. لا سيما، في المواقف التي سيؤدي فيها عدم الدفاع إلى إلحاق الضرر بالنفس. ففي بعض الأوقات يكون الفشل في الدفاع عن النفس مثل تدمير النفس أو الانتحار، ولكن يجب أيضًا الأخذ بعين الاعتبار أنه في بعض الأوقات يعد الإصرار على ممارسة العدوان وشن الحروب سببًا أيضًا في تدمير النفس الإنسانية.

ومن الواضح أن الاضطرار إلى استخدام القوة ليس بالوضع المثالي. إذ يتكلم القرآن عن المواقف التي يجب على المسلمين أن يلجأوا فيها إلى القوة؛ لأنه لا يوجد خيار آخر أمامهم، فالوضع المثالي والأفضل للمسلمين أن يحاولوا استخدام المغفرة والرحمة، ولذلك يقول الله تعالى: "وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ"

(سورة فصلت/ الآيات من ٣٣-٣٥)

ففي هذا الجزء يؤكد القرآن على أهمية أن يدفعوا الشر بالخير.

إن نشر الخير والتسامح هو أفضل وأحسن الحالات وليس نشر الحقد والكراهية. ولهذا أمر القرآن المسلمين في قوله تعالى: "خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ " (سورة الأعراف/ آية ١٩٩)

وهذا يعني إنه يجب على المسلمين أن يتخلقوا بالخلق الحسن والمسامحة والمغفرة وألا يبحثوا عن مواجهة وقتال الذين لا يتفهمون أصول وتعاليم الديانة الإسلامية، ويشمل هذا الأمر أيضًا عدم تشجيع المسلمين

للنزاع والصراع والكراهية، ولذلك يأمر الله نبيه محمدًا "صلى الله عليه و سلم" ألا يستخدم لغة فظة أو يلعن معارضيه، حتى إذا بدأ معارضوه بالإساءة اللفظية. ولقد برر القرآن هذا التصرف بأنه إذا رد المسلمون على معارضيهم بنفس الطريقة السيئة، فسيؤدي هذا إلى الكثير من العداوة والكراهية.

وقد كان موقف التسامح والمغفرة غريبًا جدًا على المتشددين، ومن ثمّ فقد كانت هذه هي المشكلة الرئيسية عندهم، إذ كان موقف المتشددين يستند إلى أن الإسلام قد أمر بالقتال والقيام بالغزوات، ولذا فقد كانوا مهتمين بتأكيد وتضخيم الفواصل بين المسلمين وغير المسلمين بدلاً من أن يبحثوا عن الأشياء المشتركة بينهم، ويدعوا إلى التسامح والمغفرة. وقد كان هذا الموقف متعارضًا تمامًا مع ما أمر به القرآن من المحاولة في تحويل كراهية وحقد الأعداء إلى علاقة متحابة ومتسامحة.

وقد كانت أكبر مشكلة عند المتشددين تتمثل في موقف القرآن من العنف وغياب السلام، فقد رفض القرآن هذا الموقف بشدة واعتبره حالة سلبية غير مرغوب فيها. ووصف القرآن هذا الموقف على أنه محنة أو لعنة أو عقاب، وأحيانـــًا كان يصفه بأنه شر؛ لأن غياب السلام لا يعد حالة جيدة يقتدي بها المسلمون. فلقد صور القرآن القتال على أنه نتيجة ضعف وحماقات بشرية، وأنه نتيجة استسلام الإنسان لغرائزه ونزواته، أو أنه نتيجة إغراءات شيطانية. ولذلك وكما ذكرنا من قبل، نجد أن القرآن يؤكد على أنه لولا الإحسان الإلهي ورحمته، لهدم الكثير من المساجد والكنائس والمعابد والمنازل، بسبب الحروب الناتجة عن الجهل والحقد. وفي أغلب الأحيان تتدخل رحمة الله لإطفاء نار الحرب وحفظ البشرية من نتائج هذا العنف. إن هذا التوجيه الأدبي الذي وضعه القرآن للمسلمين هدفه أن يؤمنوا بأن الحرب ما هي إلا شر وفساد غير أن هذا الهدف غير موجود تمامًا في مبادئ المتشددين.

لقد تجاهل المتشددون التعاليم القرآنية التي تنص على أن أسلوب التدمير ونشر الخراب في الأرض يعد من أخطر الذنوب "الفساد في الارض" والذي يعني تدمير جمال خلق الله. ويعد هذا التصرف تحديًا وعصياناً لله. والذين يسعون في الأرض فسادًا من تدمير للمتلكات وتدمير للطبيعة، يعدون مفسدين، وهم بهذا يحاربون الله، فتدمير وإفساد الأرض يؤدي إلى هدم العلاقات الإنسانية التي خلقها الله على الأرض وتدمير كل الإمكانيات لتأسيس علاقات أخوية بين البشر بعضهم البعض.

ولقد أشار القرآن إلى أن الحرب هي العامل الرئيس في عملية الفساد في الأرض وتدمير البشرية. ولهذا السبب أكدت الديانة الإسلامية على أن تعمير الأرض وبناءها يعد جزءًا هامًا من القانون الإلهي. ولهذا برعت الحضارة الإسلامية في العلوم والفنون والفلسفة والطراز المعماري وفي التجارة، ولهذا عرفت الحضارة الإسلامية بأنها حضارة بناء لا حضارة هدم.

ولفهم موقف الإسلام والقرآن من نظرية الحرب، فإن هناك مبادئ أساسية تجب ملاحظتها. فالمسلمون الأوائل الأقلية الذين كانوا يعيشون في مكة، لم يكن مسموحًا لهم بالرد على الضغط الذي كان يمارسه حكام مكة عليهم، إلى أن أعطاهم الله تصريحًا بالهجوم والحرب. ولقد عانى المسلمون الأوائل في مكة لسنوات طويلة. وبالرغم من نفاذ صبر المسلمين، لم يسمح لهم الرسول "صلى الله عليه وسلم" باستخدام العنف، وأمر بعض المسلمين المظلومين والضعفاء بالهجرة إلى الحبشة حيث الملجأ والحماية عند النجاشي ملك الحبشة.

إن التصريح الذي أعطاه الله للمسلمين للهجرة من مكة واستخدام القوة للدفاع عن النفس، جاء في خطاب قرآني موجه إلى المسلمين وإلى الرسول (ص). ولقد وضح فيه للمسلمين بأن الله قد أعطاهم الإذن بالحرب فقط؛ لأنهم قد أصبحوا ضحايا للظلم والعدوان. علاوة على ذلك، فقد ألزم القرآن

المسلمين أن يحاربوا الذين ظلموهم فقط، وألا ينتهكوا العهد ويحاربوا الدول المسالمة لهم. فطبقًا للقانون القرآني، إذا توقف العدو عن العدوان والحرب وأراد السلام، فإنه يجب على المسلمين على الفور أن يقبلوا السلام ويسالموا أعداءهم. وأوضح القرآن أن الله لم يحرم على المسلمين عقد اتفاقيات سلام مع الذين لا يحاربون الإسلام، ولكن الله حرم السلام مع الذين يطردون المسلمين من بيوتهم أو يقومون باضطهادهم.

فلقد قال الله في كتابه العزيز: "وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ" (الأنفال/آية٦١)

وقد أمر القرآن المسلمين بألا ينفروا من الذين يريدون السلام ويذكر الله المسلمين قائلاً في كتابه العزيز: "إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَآؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُونَكُمْ أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً " (سورة النساء/ آية ٩٠)

وقد حذر القرآن المسلمين من اتخاذ موقف العدوان من أجل استمرارية الحرب. فإذا عرض أعداء المسلمين السلام على المسلمين، فإن عليهم أن يقبلوه ويجنحوا للسلم.

وبعبارة أخرى، فإنه لا يجوز للمسلمين أن يحاولوا اختلاق عوائق في طريق السلام، وإذا فعلوا هذا، فإن هذا يعد إشارة على أن المسلمين قد استسلموا لغرائزهم الدنيوية وأهملوا القوانين الإلهية. إن مبدأ رفض السلام العادل يعد أيضًا إشارة على أن المسلمين فقدوا إيمانهم وانشغلوا بالأهداف الدنيوية كالقوة والحكم والسيطرة، فالقرآن ينص على أن الإخفاق في طلب السلام دون مبرر عادل يعتبر عملاً متغطرسًا وذنبًا عظيمًا؛ لأن محاولة نشر السلام تعد نعمة إلهية. إنّ الحكم لله، ولو شاء الله أن يجعل غير المسلمين

يميلون إلى السلام لفعل، فعندئذ يجب على المسلمين أن يعتبروا هذا نعمة من الله، ويباركوها ويقابلوها بالشكر ولا يتعاملوا معها بالتحدي والتكبر.

إن النصوص القرآنية عن السلام سوف تكون صعبة التحقيق، إن كان المسلمون مصرين على ممارسة الحرب الدائمة مع غير المسلمين، وإذا كان غير المسلمين هدفًا شرعيًا دائمًا للمسلمين، فمن رأي المعتدلين يكون المتشددون قد فشلوا في أن يفهموا أن السلام لا الحرب هو الأمر المفضل لدي القرآن. وقد فشل المتشددون في استغلال فرص السلام، وفشلوا في استيعاب أن السلام نعمة من الله، ولا يجوز إهدارها لأسباب اضطرارية. ولقد آمن المعتدلون بأن فكرة استمرار الحرب بين الدارين (دار الإسلام ودار الحرب أو الكفر) تعتبر متناقضة تمامًا مع الأخلاقيات الإسلامية.

ولن يكون مدهشًا أن يقول المتشددون إن كل آيات السلام قد تم إلغاؤها بسبب الآيات التي تدعو إلى الحرب ضد غير المؤمنين. وطبقًا لهذا المنطق، فإن آية واحدة تأمر المسلمين بالقتال تلغي العديد من آيات السلام. ففكرة أن تلغي آية واحدة على الأقل ثلاثين آية من آيات السلام لهو أمر مثير. هذا بالإضافة إلى إهمال المتشددين لأوامر آيات الحرب، إذ إن تلك الآيات أمرت المسلمين ألا يظلموا وأن يعدلوا في حروبهم. والواقع يقول إنه لا توجد آية في القرآن تأمر المسلمين بالقيام بحروب غير مشروطة أو غير متحفظ عليها ضد غير المسلمين. وكما ذكرت من قبل، فإن هذا الوضع غير مطابق للتعاليم القرآنية على الإطلاق.

ولقد كان القرآن ضد المعتدين. ويجب أن نلتفت بشدة إلى أن كل معتدٍ يحاول تحريف الحقائق إلى أقصى الحدود كي يثبت لنفسه أنه الضحية وليس الظالم، وإننا يجب أن نتعامل مع القرآن ومنهجه بإيمان شديد حتى لايرى الظالم نفسه مظلومًا، تعد هذه مشكلة كبيرة في المذهب التشددي؛ لأن المتشددين قد قرأوا القرآن بطريقة تجعل المسلمين دائمًا مظلومين وغير

المسلمين دائمًا ظالمين. ونتيجة لذلك، فقد اعتبر المتشددون أن الآيات القرآنيه التي تدعو إلى عدم العنف ملغاة، واعتبروا أيضًا إن المسلمين دائمًا يمثلون الجانب المظلوم.

وأعتقد أنه من المهم أن نذكر أن المعتدلين ليسوا مسالمين أو سلبيين؛ لأنهم يعترفون بأنه في بعض الأوقات يكون من اللازم دخول الحرب من أجل الدفاع عن النفس، لكنهم قاموا بفهم هذا بطريقة خاطئة؛ لأن القتال من أجل ظلم أو افتراءات حدثت في عصور مضت، لا يعد دفاعًا عن النفس ولكنه جزء من ممارسة العدوان؛ لأن الدفاع عن النفس يجب أن يكون نسبيًا ومحددًا، ولذلك فإنه يجب أن يصد أي خطر دون إحداث خسائر أكثر من اللازم وذلك لإنهاء التهديد. فعلى سبيل المثال، إذا قام أحد المعتدين بإطلاق رصاصة وكان الرد عليه بإرسال عدد من الصواريخ النارية على ذلك المعتدي، فلن يكون هذا دفاعًا صحيحًا أو نسبيًا. فالدفاع عن النفس يجب أن يكون مقيدًا على أساس أن الحرب يجب أن تكون موجهة إلى الذين ألحقوا الضرر بالمسلمين وسلبوا حقوقهم وأرضهم. ولن يكون الدفاع عن النفس دون حدود أو قيود سببًا أو مبررًا من أجل إشعال نيران الحرب حول العالم. وبالطبع فإن القيود والتعاليم الإسلامية ذات صلة مباشرة بالنزاعات التي لها علاقة بالمسلمين مثل الشيشان وكشمير وغيرهم الكثير.

لقد تعامل المتشددون مع أوامر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعدم قتل المدنيين والالتزام بقيود الحرب بحذر شديد، وعليه فقد آمن المتشددون بأنه إذا كانت الحرب واجبة لكنها غير مقيدة أو محددة، فإن هذه الحرب تصبح غير عادلة. فالعدوان ليس مشكلة أعني لماذا بدأت الحرب؟ ولكن كيف هي الحرب وكيف تجري؟. فعلى سبيل المثال، إذا تم مهاجمة مدنيين أو أماكن عبادتهم، فإن الحرب تصبح غير عادلة.

ولكن هناك بعد آخر لهذه المسألة يجب أن يتم توضيحه، وهو الفساد في الأرض، فكما ذكر في القرآن "المفسدون في الأرض"، فإن الفقهاء السابقين أكدوا على أن من يهاجم المدنين خلسة من أجل إرهاب المقيمين والمسافرين يعتبر مفسدًا في الأرض، ومنزعًا للسكان وعابري السبيل وهو مصطلح قانوني يعني أن الهجوم على المقيمين في منازلهم أو الهجوم على المسافرين في الطريق يعد فسادًا في الأرض. والكلمة التي أُطلقت على الذين يقومون بهذه الأفعال هي "محربون"، وهم الذين يشنون الحروب ضد من ذكرنا، أما الجريمة فتسمى "حرابة". وهذه الجرائم محرمة ومنبوذة من القانون الإسلامي، وإن كل من يحاول ارتكابها يعد عدوًا للجنس البشري ولا يستحق أي حماية في أي مكان.

وقد كرر الفقهاء السابقون إنه لا يجوز للمسلم مهاجمة العزل، وإنه لو تمت المهاجمة خلسة وبدون سابق إنذار، فإن النتيجة التي لا مفر منها سوف تكون انتشار الإرهاب وتدمير السلام والأمن والوقوف ضد مشيئة الله. والنتيجة هي نشر الفساد في الأرض؛ لأن البشر لن يستطيعوا العمل أو العيش في سلام ولن تعمر الأرض. إن هذه الجريمة تعد منبوذة؛ ومن يرتكبها يفقد الحماية والاحترام والرحمة. وهذا النوع من الجرائم يهدد أي علاقة سلام ويمنع أي محاولات للتعارف بين البشر، وكما قال الفقهاء السابقون فإن هذه الجرائم تفكك ترابط الحياة عن طريق نشر الإرهاب، وبهذا فإن هؤلاء يفسدون في أرض الله.

وفي العصر الحديث، أصبح من الواضح أن الإرهاب جريمة إفساد في الأرض، فحين ترتكب أعمال العنف ضد العزّل من السلاح دون سابق إنذار، فستكون النتيجة هي انتشار الخوف والرعب بين خلق الله. وسواء أطلقنا على هذه الجريمة الحرابة أو الإرهاب، فإنها ستظل نفس المشكلة. ومن يقرأ كتب الفقهاء السابقين، فسوف يجد الفارق بين جرائم الحرابة وجرائم الإرهاب في

العصر الحديث لا يكاد يكون له وجود. فالفقهاء السابقون اعتبروا جرائم مثل الاغتيال وإشعال الحرائق أو تسميم آبار المياه والتي يكون من الممكن أن تقتل الأبرياء، على أنها جرائم ومخالفات تدخل في الحرابة. علاوة على ذلك، فإن القيام بالهجوم وخطف وسائل النقل وسلب الناس من أجل نشر الخوف والإرهاب، يعد أيضًا من جرائم الحرابة. والأهم من ذلك، فإن تشويه الجثث وتعذيبها، يعد من الحرابة.

إن القانون الإسلامي يتعامل مع الثائرين ضد الحكومات، والذين يمتلكون سببًا وأحقية لثورتهم يثبت أنهم ليسوا مجرمين ولا يستحقون العقاب أو القسوة. ولكن الثائرين الذين يرتكبون الجرائم كالتي ذكرنا من قبل سواء كان عدوانهم بسبب أو لعقيدة يحاربون من أجلها أو لا، فإنهم يعتبرون مجرمين. وفي ضوء هذه التقاليد الإسلامية، فإنه يصعب فهم موقف المتشددين من تلك الأعمال الإرهابية التي حرّمها الإسلام. فعلى سبيل المثال، لم يحظر الإسلام فقط أخذ رهائن، ولكنه – أيضًا – منع قتل أسرى الحرب حتى لا ينتقم الأعداء من الأسرى المسلمين، وقد أكد القرآن هذه الفكرة عندما قال إنه لا يجوز أن يؤخذ شخص بذنب شخص آخر.

ومن أشهر القصص التعليمية التي أحيانا تروى للأطفال، هي قصة واحد من صحابة الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذي أسره الكافرون بمكة. وقد تم إبلاغ هذا الصحابي بأنه سوف يتم إعدامه في صباح اليوم التالي. وفي المساء كانت هناك فرصة أمام هذا الصحابي كي ينقذ نفسه، فقد وجد طفلاً صغيرًا يحمل سكينا.. وكان من الممكن أن يأخذ هذا الصحابي الطفل كرهينة، ولكنه لم يفعل. وفي اليوم التالي، وقبل إعدامه، سُئل لماذا لم تستغل الفرصة وتأخذ الطفل كرهينة... فكانت إجابته: "ماذا كان ذنبه حتى أفعل

هذا؟ إن القرآن لا يأمرنا أن نعاقب أحدًا على جريمة ارتكبها غيره " ومع ذلك وللأسف فقد قتل الكفار هذا الصحابي النبيل.

وعلى الرغم من هذه العقائد المتينة، فإننا نرى الصراع الحالي في العراق. فعلى سبيل المثال، إن كثيرًا من الجماعات تخطف المسلمين وغير المسلمين وتحتجزهم كرهائن تحت شعار الديانة الإسلامية، والأسوء من هذا أن هذه الجماعات قامت بتشويه وتعذيب ضحاياها، بينما تدعي تلك الجماعات أنها مسلمة. وبالنسبة للمعتدلين، فإن كل جرائم الحرابة من خطف وإرهاب للرهائن وتشويه وتعذيب، ترد في القرآن والسنّة النبوية على أنها شواهد وأمثلة واضحة للفساد والإفساد في الأرض.

إن موضوع الإرهاب في الأرض يمثل نقطة خلاف كبيرة بين المعتدلين والمتشددين، فالمعتدلون يرون أنه يجب عليهم المحافظة على الأرض كما خلقها الله تعالى، وعدم الإفساد فيها حتى ولو حكمها غير المسلمين. إن نقطة الخلاف تأتي في أسلوب وتصرفات كل من المتشددين والمعتدلين وعلاقة الإسلام بالقوة. فالمتشددون يؤمنون بأن نصر الإسلام يأتي بالغزوات والهجمات والعدوان على الأمم الأخرى. ومن خلال هذا فقط، سوف تكون كلمة الله في الأرض هي العليا. إن الفجوة بين المسلمين وغير المسلمين ازدادت اتساعًا؛ بسبب أفكار المتشددين، فهم يرون أنهم في الجانب الذي يتضمن الحقيقة المطلقة، بينما غير المسلمين يمثلون الجانب الضائع والغارق في الظلام. ففي التفكير التشددي، فإن غير المسلمين مهما فعلوا لا يمكن أن يتجهوا إلى النور بينما المسلم الحقيقي طبقًا لمعايير المتشددين فإنه يمثل النور النقي والحقيقة المطلقة. فبالنسبة للمتشددين، فإن الحقيقة والفضيلة لا يمكن لأحد أن يشارك فيها أو يحققها، ولكن يجب قبولها على ما هي عليه، ومن ثم فإنه لا يجوز أن يكون هناك أي تعاون أو مشاركات بين المسلمين

وغير المسلمين، ولكن يجب أن يظل العدوان قائمًا بينهم. وبالطبع فإن هذا العدوان يمكن أن ينقلب إلى حرب في أي وقت.

لقد دعا المعتدلون غير المسلمين للإيمان بالله، وأكدوا لهم أن الله سوف يطهرهم وينقيهم، ولكن إذا تم رفض هذه الدعوة، فلا يجب أن يكون في هذا نهاية للتعاون المشترك، ففي نظر المعتدلين، فإن نور الله وهدايته لا يمتلكهما أحد، ولذلك فإن كلاً من المسلمين وغير المسلمين لديهم القدرة على الاتجاه إلى النور، وإنه من خلال هذا التعاون يمكن للجميع أن يحققوا العدل والرحمة في الأرض ويمكن لهم أن يتعاونوا في صد العدوان والكراهية والحروب والإفساد في الأرض. فلقد آمن المعتدلون بأن السيادة لله وحده، ولذلك فإنهم عندما يدعون الآخرين إلى التنوّر، فإنهم يفعلون هذا بسبب التواضع الإنساني ومعرفتهم اليقينية بأنه لا يمكن منع الفساد في الأرض إلا اذا تعارفوا وتعاونوا مع بعضهم البعض، وهذا التعارف والتعاون هو الشرط الرئيسي لنيل رحمة الله.

إن المتشددين يؤمنون بأنهم ليسوا عدوانيين ولكنهم مدافعون عن أنفسهم وحقوقهم. وبالمثل، فإن المناقشة في هذه النقطة سوف تجري كالآتي: " كل ما قلته عن وضع المعتدلين، إنما هو مثالي وساذج، إذ الحقيقة هي أن الغرب وأمريكا وإسرائيل – على وجه الخصوص – يستخدمون أسلحة متطورة لقتل المدنيين المسلمين ولا نملك أي وسيلة للدفاع عن أنفسنا أو صد هجماتهم، ولذلك فإننا مضطرون لاستخدام العنف أمام هذا العدوان، فما نفعله والذي تطلقون عليه إرهابًا ليس بمشيئتنا، ولكنكم اضطررتمونا إلى فعله، وهذه هي الطريقة الوحيدة لمنع هجمات الغرب والولايات المتحدة وإسرائيل".

وهناك موضوع هام لن أدخل في تفاصيله الآن وهو: هل الإرهاب يدافع عن حقوق المسلمين أم أنه عذر لقتل المزيد من المسلمين؟. والأهم من ذلك أن مبدأ الحاجة أو الضرورة، ليس له حدود أو أخلاقيات. فإنه يمكن للديانة

الإسلامية بأكملها أن تتفكك تحت شعار الضرورة. والاعتماد على مبدأ الضرورة يمس أخلاقيات ومبادئ الإسلام. وإذا افترضنا أن الإرهاب يسمح للمسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم ويحققوا الانتصار.. فالسؤال هنا هو: ما ثمن هذا الانتصار؟ فهل يكون ثمن الانتصار السياسي هو هزيمة معنوية وانتهاك لأخلاقيات الإسلام والتعاليم القرآنية؟ وكيف يكون هذا انتصارًا ؟ إن الإجابة على هذا السؤال هي التي تميز المعتدلين عن المتشددين وتعريف كل منهم للنصر.

وبالرغم من أن مبدأ الضرورة العسكرية يعد مقنعًا لبعض المسلمين. إلا أنه غير كاف على الإطلاق لشرح وتفسير العلاقة بين استخدام الإرهاب والاعتماد على التقاليد الإسلامية لتبرير استخدام الإرهاب. ويمكن للإرهابيين أن يستشهدوا علنًا بمنطق الضرورة، بينما يمكنهم الإنكار علنًا لأي اعتماد على التقاليد الدينية. فيمكن لجماعة إرهابيه أن تقول: " نحن نفعل ما يجب أن نفعله دون الاعتبار لأي شيء يقوله الإسلام عن أي شيء". فمنطق الضرورة لا يعبأ بسلوك الإرهابيين ولا بالطريقة التي يتعاملون بها أو يستغلون الإسلام في عملياتهم.

فعلى سبيل المثال، فهناك مشكلة واضحة أدت إلى تساؤلات عديدة حول طريقة تفاعل المتشددين العدوانيين مع التقاليد والمبادئ الإسلامية. وإني هنا أشير إلى عادة قطع رؤوس الرهائن في العراق، فهي حالة قتل بشع يصاحبها الكثير من الفخر، فإن عملهم يبدو وكأن هؤلاء الجناة يعدمون العدالة الإسلامية. وبالمثل، فإن عقوبة الموت في السعودية تطبق عن طريق قطع الرأس، وادّعى السعوديون أن هذه هي الشريعة الإسلامية. فكثير من الناس في العصر الحديث يعتبر ذلك عملاً مريعًا ومثيرًا للاشمئزاز. وهنا يجب أن نسأل ما موقف الإسلام من قطع الرؤوس؟؟. في العصور القديمة كان قطع

الرأس هو أسرع الوسائل للقتل، وكان أكثر الطرق رحمة. أما اليوم، فلدينا أكثر من طريقة للقتل أقل وحشية.

وكما ذكرنا من قبل، فإن الإسلام يحرم التشويه. ويحرم أيضًا أساليب القتل التعذيبية والوحشية، مثل القتل بالطعن أوالحرق أوالتسميم أوالإغراق أو أي وسيلة أخرى رهيبة وبشعة كانت تستخدم في القرون الوسطى. إن التقرير الوحيد الذي جاء عن النبي (صلى الله عليه وسلم) هو عندما أمر المسلمون في حال نبح حيوان أن يستخدموا سكينًا حادة حتى يقللوا من معاناة هذا الحيوان. وبالطبع كان الفرسان في زمن الفروسية يتدربون على المبارزة بالسيوف، ولم يكن من النادر أن نجد العديد من الرجال الذين كانوا يستطيعون أن يقطعوا الرأس بضربة سيف واحدة. واليوم وعلى الرغم من أن بعض الناس كان من سوء حظهم أن يروا الطريقة التي يستخدمها السعوديون في الإعدام، فالناس عندما يرون ذلك سيقفون على مدى وحشية وعنف هذه الطريقة.

والنقطة الأكثر أهمية أنه لا يوجد أي أمر في الدين الإسلامي ينص على إعدام الناس بالسيف. وكيف يتحول كل هذا إلى إدانة للإسلام عن طريق الاعتقاد بأنه أمر بقطع الرؤوس. والجدير بالذكر إن الإسلام أمر أنه إذا كان القتل ضروريًا، فإنه يجب اختيار وسائل أكثر رحمة. والعلم الحديث أوجد أكثر من طريقة للإعدام أكثر رحمة من قطع الرؤوس. حتى عقوبة الموت بالرجم بالحجارة والتي استخدمها المتشددون لعقوبة الزنا، لم تذكر في القرآن[١٣] ، فقد جاءت من التقاليد القديمة وجادل المعتدلون فيها كثيرًا.

---

[13] ليس في التشريع القرآني نص يفيد رجم الزاني حتى الموت، ولكن حيث إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) له حق في التشريع عملاً بقوله تعالى: " وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ." وقد ثبت في حديث "ماعز والغامدية" أنهما لما أقرا بالزنا، أقيم عليهما الحد رجمًا. والصحابة ثبت عنهم أنهم واصلوا العمل بما رأوه وشهدوا زمن الرسول (صلى الله عليه وسلم) في إقامة الحدود. فلذلك يعتبر عملهم تشريعًا (معلوم أن مصادر التشريع تتمثل في القرآن والسنّة وإجماع الصحابة)

ومع ذلك، فقد أكد المتشددون بدون أي خجل أن قطع الرؤوس هو من أصول الديانة الإسلامية، وهذا دليل واضح على تعقيد سياسة المتشددين في تفسير المعاني والرموز. وكما هو الحال دائمًا، فلم يتفاعل المتشددون مع الأخلاقيات الإسلامية ولم يعبروا عن جوهر الإسلام، فالسيف وقطع الرؤوس يسيء لفكرة الإسلام في عقول كثير من الناس. إن المتشددين يعرفون جيدًا أنه في عقول كثيرة توجد علاقة بين الإسلام والسيف وقطع الرؤوس، وبدلاً من محاربة هذا الاعتقاد وتدميره، قام المتشددون بتثبيته وتكبيره، وعن طريق هذا أصبح للمتشددين القوة عن طريق خلق الرعب، وإذا أحسوا بتهديد لقوتهم، كانوا يذكّروا الناس بالــ"بعبع". فعلى سبيل المثال، يلاحظ هذا في عام ١٩٧٧، عندما قامت منظمة المتشــددين (التكفير والهجرة) بخطف وقطع رأس الشيخ محمد الذهبي وزير الأوقاف ورئيس جامعة الأزهر بمصر.

إن الإرهاب هو الحصول على القوة من خلال نشر الرعب والخوف، وليس من المهم أن تكون هذه القوة من الحكومة المتشددة على مواطنيها أو من جماعات تشددية ضد الحكومة.. ففي الحالتين النتيجة واحدة، فأفعال المتشددين لم تقتل فقط الأبــرياء، ولكنها قتلت أيضًا الإسلام وتعاليمه الأخلاقية.

ومن ثمّ، فرجم الزاني بالحجارة لا غبار عليه. فإن عظم ذلك في أعين البعض، اعتبر فظاظة، فماذا يقولون في أمر الله فيما يتعلق بعقاب الزاني غير المحصن في قوله تعالى في سورة النور: "الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ" انظر إلى قوله: "وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ". ثم انظر إلى: "وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ. والله أعلم. "المترجم"

الفصل الثاني عشر

طبيعـــة المـــرأة ودورهـــا

قد يدهشنا أن ندرك أن مسألة دور المرأة في الإسلام وقضية الجهاد تتعلقان ببعضهما بشكل معقد في عالم اليوم. إن قضيتي الجهاد وكيفية معاملة المرأة في الإسلام تعدان من أكثر الموضوعات المثيرة للجدل، والمفهومة بشكل خاطئ عن الدين الإسلامي في العصر الحاضر. وفي الحقيقة، فإن كلاً من وضع المرأة في الإسلام وقضية الجهاد يثيران في عيون العالم صورًا للاضطهاد والقسوة والوحشية. وفي كلتا الحالتين قام المتشددون باختطاف حقيقة الإسلام ولعبوا بها دورًا بارزًا في تشويه صورة هذا الدين أمام العالم، فالمتشددون يرون أن العنف ضد الآخرين له ما يبرره وأستغلوا مبدأ الجهاد لتحقيق أهدافهم، وكذلك سمحوا بممارسة العدوان على المرأة عن طريق إصدار عدد من المفاهيم النظرية العدوانية. إن الشيء المشترك بين الجهاد والمرأة هو استخدام القوة وطلب السيادة والرغبة في التحكم في الآخرين، وهو ما جعل المتشددين يحرّفون ويغيرون قوانين الجهاد وحقوق المرأة في الديانة الإسلامية.

ففي منتصف شهر مارس عام ٢٠٠٢ نشرت جريدة سعودية حادثة حدثت في مكة مسقط رأس النبي محمد (صلى الله عليه وسلم). وطبقًا للإحصاءات الرسمية، فإن ما لا يقل عن أربعة عشرة فتاة لقين حتفهن إمّا حرقًا وإمّا اختناقًا بسبب دخان حريق اندلع في مدرسة حكومية. وعندما وصل الآباء إلى مكان الحادث وصفوا الوضع بأنه مروع فقد كانت أبواب المدرسة موصودة من الخارج، وقامت الشرطة الدينية السعودية والمعروفة بـــ"المتطوعين" بمنع الفتيات بالقوة من الهرب من المدرسة التي تحترق، ومنعوا رجال إطفاء الحريق من الدخول إلى المدرسة وإنقاذ الفتيات وقاموا

بضرب الفتيات ورجال الدفاع المدني. وطبقًا لأقوال الآباء ورجال الإطفاء وقوات الشرطة العسكرية التي كانت متواجدة في مسرح الحادث، فإن "المتطوعين" لم يسمحوا للفتيات بالهرب أو بإنقاذهن؛ لأنهن لم يكنّ يرتدين اللبس الشرعي، ولم يكن المتطوعون يريدون أي احتكاك جسماني بين الفتيات ورجال الدفاع المدني خوفًا من أي إثارة جنسية، والملبس الشرعي طبقًا لهم هو النقاب والعباءة.

وقد استنكرت لجنة نشر الفضيلة ومنع الرذيلة وهي المؤسسة الحكومية المسؤولة عن إدارة المتطوعين ضرب الضباط أو رجال الدفاع المدني للفتيات، كما استنكروا أيضًا إغلاقهم أبواب المدرسة وحبس الفتيات في الداخل، أمّا الشهود فقد أخبروا الصحف السعودية أن المتطوعين صرخوا في رجال الإطفاء لكي يتراجعوا وقاموا بالاعتداء عليهم وأمروا الفتيات بالرجوع إلى المدرسة التي تحترق وارتداء النقاب قبل السماح لهنّ بالخروج من المدرسة. وصرح عدد كبير من الآباء للصحف بأنهم رأوا على الأقل ثلاث فتيات يُركلن ويُضربن بالعصى عندما حاولن الجدال مع المتطوعين. والفتيات اللاتي أطعن المتطوعين وعدن إلى المدرسة لارتداء النقاب، وجدوهن بعد ذلك قتيلات في المدرسة.

وقد نُشر هذا الخبر في الصحف السعودية مثل "جريدة السعودية" و"الاقتصادية". ولقد طالبت الصحيفتان في إحدى المحاولات النادرة للنقد بالتحقيق ومحاكمة المسؤولين عن هذه الجريمة، وفي اليوم التالي للحادث صرّح ولي العهد الأمير عبد الله بأنه سوف يتم التحقيق في هذه الجريمة وسوف يتم معاقبة المتسببين فيها، وبعد ثلاثة أيام من الحادث أمرت الحكومة السعودية جميع الصحف بالتوقف عن نشر أي خبر يختص بهذه المأساة، وحتى الآن لم يتم معاقبة أو فصل أحد بسبب موت هؤلاء الفتيات، وقد

نشرت وسائل الإعلام الغربية الحادثة بكل تفاصيلها على عكس وسائل الإعلام في العالم الإسلامي.

لقد بدأت هذا الفصل بهذه القصة المؤلمة؛ لأنها تكشف عن مستويات عديدة لا توجد كلمات تصف فظاعة هذا الحادث، فالمتطوعون تأثروا بالنظرية التشددية وكانوا مؤمنين بشيء واحد فقط هو أن شعر رؤوس هؤلاء الفتيات لا يجوز أن يظهر أمام الناس، فمن وجهة نظر المتطوعين أن مخالفة هذا المبدأ تعد أصعب بكثير من موت طفلة ذات أربعة عشرة عامًا حرقــًا، وفي هذا الوقت تساءل الكثيرون أي نوع من القانون يمكن أن يسمح بجريمة بشعة مثل هذه الجريمة؟! والبعض ادّعى أن ذلك يظهر ويدل على همجية الديانة الإسلامية.

وبالرغم من أن السعودية استطاعت الحد من نشر وسائل الإعلام لهذه الجريمة في الصحف العربية، إلا أن المسلمين المعتدلين حاولوا لفت الانتباه إلى فساد المبادئ الأخلاقية في هذا الحادث. ومن المؤسف أنه على الرغم من أن المعتدلين فزعوا من هذا الحادث، إلا أنهم لم يندهشوا من منطق المتشددين الذي أدى إلى ما أدى إليه من الوفاة.

فأنا لا أعتقد أن هناك منطقًا أو نظرية يمكن أن تقف وراء هذا التصرف الذي أدى إلى مقتل هؤلاء الفتيات. إن هذه الحادثة غير الأخلاقية تمثل سلوكًا انفعاليًا يلعب بالنظريات والشريعة والمنطق؛ لأنه لو استخدم المنطق والقانون، لأدى ذلك إلى إنقاذ الفتيات. ففي الإسلام تعد حياة البشر مقدمة، والقرآن ينص على أن من قتل نفسًا بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعًا، وعلاوة على ذلك، فإنه لايوجد إلزام ديني يحتل مكانة أهم من حياة النفس البشرية، ولذلك فإننا إذا فرضنا أن الإسلام يأمر بالتمسك بالدين والتزام لبس الحجاب، فإن هذا الدين نفسه يهتم بالحياة ويقدم الاهتمام بها على أي قانون. إن الإسلام ينص على أن "الضرورات تبيح المحظورات"، وتعد حياة النفس

البشرية هي من أهم الضرورات عند الفقهاء وفي نظر الدين الإسلامي، وتعتبر حياة النفس البشرية على مستوى أهمية حفظ حقوق الله.

إن القرآن ينص على أن قوانين العزل التي فرضت على المرأة كان لها هدف واحد فقط هو حمايتها من الأذى أو الاعتداء عليها، ومغزى هذه القوانين هو حماية المرأة، ولذلك فإن مقتل هذه الفتيات يتناقض تمامًا مع هدف ومغزى تلك القوانين؛ لأنه لم تتم حمايتهن بل قتلهن.

وقد يتساءل البعض لماذا لم يفتح رجال الشرطة أقفال الأبواب؟ ولماذا لم يخلِ المنطقة من الرجال وبذلك تستطيع الفتيات الخروج من المدرسة دون أن يراهن أحد من الرجال، وإذا كان رجال الدين مهتمين، فلماذا لم يخلعوا أغطية رؤوسهم ويضعونها على رؤوس الفتيات وبذلك يساعدونهن على النجاة. فقد كانت عادة رجال الدين ورجال الشرطة أن يغطوا رؤوسهم بقطع من القماش.

إن المشكلة لا تكمن في أن القوات الدينية السعودية تفتقر إلى روح الإبداع لحل المشكلة، وإنما المشكلة في الهوس الشاذ للمتشددين فيما يتعلق بإغراءات النساء وإهمال القوات السعودية الشديد وعدم اكتراثهم بحياة البشر وعلى الأخص حياة النساء، فالمتشددون معروفون بأسلوبهم العدواني العنيف، وهدفهم واضح فهم يريدون السيطرة والحكم، ذلك الحكم الذي سيفضي إلى موتهم الاجتماعي. إن القوة التي كانت تفرض على النساء كانت قوة عدوانية، والتي أدت إلى انعزالهن عن الحياة الاجتماعية، وهذا أدى إلى الموت الاجتماعي للنساء اللاتي يعشن في مجتمع المتشددين، وبمعنى آخر، فإن النساء كُنّ مثل الموتى في مجتمعهن.

وسواء ماتت الفتيات في مكة أو العدوان والاضطهاد الذي تعاني منه النساء من القوانين التشددية، فإن كل هؤلاء النساء يعتبرن ضحايا لفساد الرجال المتشددين وإهانتهم للمرأة في كثير من المواقف. وبدراسة أصول

المتشددين في العالم الإسلامي، نجد أن المرأة تعاني من معاملة عنيفة وقاسية، ويبدو الأمر كما لو كان اشتداد العنف مع النساء هو الذي يزيد من أمن وازدهار المستقبل السياسي للإسلام، وهذا يوضح طريقة المتشددين في النظر إلى المرأة على أنها خطر يهدد الإسلام وهي مصدر الشر والفساد، ويتضح هذا في وصفهم للمرأة بأنها فتنة، بالإضافة إلى ادعائهم بأن النساء سوف يمثلن الأغلبية العظمى لأهل النار والرجال الذين سيدخلون النار سوف يدخلون بسبب النساء.

ومن أسوأ التطورات التي حدثت في هذا العصر هو ما حدث على يد أحد أهم العلماء المتشددين وهو الشيخ "صالح الفوزان" الفقيه السعودي، فقد أصدر فتوى ادّعى فيها أن العبودية ليست فقط شرعية في الإسلام، ولكن يجب أيضًا تشريعها في السعودية، أي يسنّ بها قانون، واتهم فوزان علماء الدين الذين حرّموا العبودية بأنهم كفار. إن هذه الفتوى تمثل خطورة كبيرة؛ لأنها خطيرة وتثير الفوضى والإرباك، كما أنها ستؤدي إلى انتشار تجارة الرقيق في دول الخليج وبالأخص في المملكة العربية السعودية.

لم يكن لمشكلة الاسترقاق أي ظهور لأكثر من عشرين عامًا، فقد كانت العبودية تعد غير شرعية وغير أخلاقية. ولقد حرمت جميع الدول الإسلامية بدون استثناء هذه الممارسات، وتوصل جميع العلماء المسلمين إلى أن الاسترقاق يتنافي تمامًا مع القرآن الكريم والمبادئ الأخلاقية للعقيدة الإسلامية، فتحريم الاسترقاق أصبح قضية مغلقة لا نقاش فيها، فلماذا يجادل المتشددون فيها؟ ولماذا يتهمون العلماء الذين حرّموا الاسترقاق بأنهم كفار ومقلدون للغرب؟ وفي رأيي، هناك نقطتان يجب أخذهما في الاعتبار:

<u>الأولى</u> أنه قد اعتاد المتشددون على إهمال أي نظرية تعطي المرأة حقوقها أو تحاول أن ترفع مكانتها، واعتبروها ظاهرة غربية تهدف إلى

تدمير الإسلام. فبالنسبة للمتشددين، فإن أي مظهر لاحترام للمرأة يعد عادة غربية،

و **الثانية** هي توقيت هذه الفتوى، فلقد جاءت في نفس الوقت الذي قامت فيه أمريكا بالغزو على العراق.

إنه كما لو كان المتشددون يعوضون عن خسارتهم في فقد الحكم الذاتي على مستوى الأمة، فقاموا بالتأكيد على حكم وهيمنة الرجال على النساء المسلمات. ولقد اعتقد المتشددون أن تخويل المرأة القوة هو جزء من غزو الحضارة الغربية للعالم الإسلامي، فكانوا يتصرفون كما لو كانت الهزيمة السياسية يمكن تعويضها عن طريق الانتصار الثقافي وهو انتصار ثقافي يتوقون منه أخذ كثير من حقوق النساء. ولاشك في أن محاولة إعادة العبودية تعد ساترًا ضعيفًا لمحاولة إقامة تشريع قانوني يتيح الاستغلال الجنسي للمرأة أو بتحديد أكثر، تخويل الرجال المتشددين سلطة التعامل في سوق تجارة وتهريب النساء. إن إعادة قيام مؤسسات الاسترقاق ليس لها علاقة بحماية الثقافات العربية أو السعودية، وإن كان ذلك يمثل في أذهان المتشددين صفعة قوية على وجه الغرب؛ لأن المتشددين يؤمنون بأن الغرب هو من اخترع تحريم العبودية وجعلها إهانة لحقوق الإنسان، فاعتبروا عدم تحريم العبودية وإباحة الاسترقاق فرصة لإهانة المبادئ الأخلاقية الغربية، ولكن بسبب موت المرأة في وعي المتشددين، فإن المرأة هي التي ستعاني من هذه الصفعة للغرب أكثر من الغرب نفسه.

إن أسلوب المتشددين تجاه المرأة يمكن أن يلخص في كلمة واحدة، ألا وهي "الفتنة". فمفهوم كلمة "فتنة" يعني الكثير من المعاني وكلها سلبية، فكلمة "فتنة" تعني إغراء/ استمالة جنسية، وهي مصدر خطر كبير ونزاع مدني واجتماعي وتعد نذير شر، وعلى الرغم من أن المتشددين غالبًا ما يمدحون دور المرأة، إلا أنهم في أي مسألة أخرى كانوا ينظرون إلى المرأة على أنها

خطر كبير، ولذلك فهي كزوجة تحت وصاية زوجها وكابنة تحت وصاية والدها وكعضو في المجتمع، فإنها تكون تحت وصاية جميع الرجال. إن المرأة لم تحصل أبدًا على حريتها ولم يكن لها ذاتًا مستقلة ولم تتمتع بالمساواة التي فرضتها العقيدة الإلهية، ولم يكن لها دور في المشاركة في فرض الخير وتحريم الشر. ففي المذهب التشددي يمكن للمرأة أن يكون لها دور في الطاعة فقط من خلال الرجل سواء أكان هذا الرجل والدها أو زوجها أو أي رجل يحكم المحيط العام، وبناءً على ذلك، فقد ادعى المتشددون أن المرأة لن تدخل الجنة إلا إذا خضعت وأطاعت كل رجال الارض.

إن العادة الدائمة للمتشددين هي أن يقوموا بجمع وطبع ونشر الأحاديث المنسوبة للرسول (ص) والصحابة التي تذل النساء، لإن مثل تلك التجميعات تشكل الأساس لإصدار الأحكام التي تنتقص من شأن المرأة؛ لأن "محمد عبد الوهاب" مؤسس الحركة الوهابية قام بوضع ما سبق عن طريق تجميع هذه الأحاديث المذلة للنساء ووضعها تحت عنوان "الحياة مع النساء"، ولكن جميع هذه الأحاديث دون استثناء كانت محرّفة ولم تكن صحيحة. وكما ناقشت من قبل، فلقد كان المعتدلون يطبقون أوامر تعاليم النبي (ص)، ولكنهم كانوا قبل أي شيء آخر يتأكدون من أن النبي (ص) قال هذه الأحاديث بالفعل، فالأحاديث التي ذكرها المتشددون ثابتة على مبدأ واحد وهو أن الرسول (ص) فرض هذه العادات، ولكن هذا المبدأ غريب ومضلل إلى أبعد الحدود.

وكان للمتشددين حرية الاختيار، فقد كانوا يختارون الأحاديث التي يريدونها ويتركون الأحاديث الأخرى، فكانوا يختارون فقط الأحاديث التي تهين المرأة، وعلى سبيل المثال، فقد اخترت مجموعة من القوانين نشرت في كتاب في لبنان بعنوان "فتوى النساء" على يد دكتور جامعي، أن هذا الكتاب

اعتمد على نفس المبادئ التي كانت منتشرة في ثقافة المتشددين، وسوف أذكر بعض المبادئ التي ذكرها هذا المؤلف التشددي في كتابه وهي كالتالي:

- لا يمكن للزوجة المسلمة أن تتعبد لله بالصيام إلا إذا أخذت الإذن من زوجها؛ لأنه قد يريدها جنسيًا أثناء النهار.
- لايحق للفتاة أن تكلم خطيبها في الهاتف؛ لأن هذا يمكن أن يضله ويغويه.
- لايسمح لفتاة أن تخرج مع خطيبها في الأماكن العامة؛ لأن هذا يمكن أن يضله ويغويه.
- عندما تركب العروس السيارة مع زوجها ويكون أحد أقاربها هو الذي يتولى القيادة، فيجب عليها ألا تضع أي عطر حتى لا تغوي هذا السائق.
- الفتاة التي تريد أن تذهب إلى المسجد لتعلم القرآن، يجب عليها أن تطيع والدها إذا أمرها بألا تذهب ولا يلزم على الوالد تبرير أيّ من تصرفاته.
- عندما يتزوج رجل من امرأة بنية المتعة فقط وينوي أن يطلقها بعد ذلك ولم يكن قد أفصح لها عن نيته، فإن زواجه يعد شرعيًا ولايوجد أي خطأ فيه.
- لايحق للزوجة أن ترفض لقاء زوجها جنسيًا إلا إذا كانت مريضة، وإذا رفضت لقاء زوجها دون مبرر، فإن هذا يعد من الكبائر، أما الزوج فإنه إذا رفض لقاء زوجته بسبب أو بدون سبب فليس عليه في ذلك ذنب.
- إن صوت المرأة ليس عورة، والمقصود بالعورة هو أنه ممنوع أن يُسمع من كل الرجال إلا المحارم، والمحارم هم الذين لديهم

صلة دم معها مثل الأب أوالأخ، فإنه ممنوع على المرأة أن يسمع صوتها في الأماكن العامة أو الخاصة جميعًا.

- لايجوز للمرأة أن تختلط بالرجال في العمل إلاّ إذا كانت مرتدية الحجاب.
- ومع ارتداء الحجاب لايسمح للمرأة أن تسافر إلا مع رجل "محرم".
- لا يسمح للمرأة أن تقوم بمضغ العلكة؛ لأنه يعد إغراءً.
- لايسمح للمرأة أن ترقص في الأفراح أمام نساء أخريات حتى إذا لم يوجد رجال حولهن.
- لايحق للمرأة أن تقصر شعرها؛ لأن هذا يعد تشبهًا بالرجال، ولكن يجب على المرأة أن تزيل الشعر النابت في أنحاء من جسدها؛ لأن هذا يزيد من جاذبيتها في نظر زوجها.
- لايسمح للمرأة بحضور الجنازات والمعازي، ولا يجوز لهن تقديم واجب العزاء للرجال الأجانب عنهن، وذلك لتفادي الإثارة الجنسية.

وبالإضافة إلى كل هذه التقاليد، فسنجد أن الثقافة التشددية حرّمت على النساء المشاركة في أي حديث عام، وأنه يجب على المرأة أن تحضر المنتديات من وراء ساتر أوحائط، وقالوا أن دخول النساء الجنة يتوقف على رضا أزواجهن عنهن، وادعوا بأن الملائكة تلعن الزوجة التي لاتطيع زوجها، وأكدوا أن تعليم النساء ليس ضروريًا وأن المرأة خُلقت من أجل طاعة الرجال فقط.

ولقد نشر المتشددون هذه التعاليم بين المسلمين وادعوا بأنها تمثل القانون الإلهي، والحقيقة المؤسفة هي أن كثيرًا من المسلمين الذين لايعرفون الكثير عن القانون الإسلامي آمنوا بهذه القوانين واعتقدوا أن الله قد فرضها على

البشر، وأن هذه هي مشيئة الله. إن الشيء الذي لايصدق أنه في الوقت الذي أمر المتشددون فيه بعزل المرأة عن الميدان الاجتماعي ادعوا أن وجهة نظرهم تُعظّم وتُمجّد المرأة وتحميها من الإذلال والمهانة في الساحة العامة، وطبقـاً لذلك، فإنه ممنوع على المرأة الخروج إلى العمل ويجب أن تعمل في بيتها ويجب عليها أن تغطي وجهها وشعرها ولايسمح لها بتولي أي مذهب قيادي.

إن موقف المعتدلين يختلف تمامًا عن المتشددين، فأوامر المتشددين – على الأقل – لم يتم تشريعها عن طريق المصادر الإسلامية. وفي الواقع، فإن المعتدلين أكدوا أنه لو أننا قرأنا القرآن والأحاديث النبوية وما أثر عن الصحابة، فلن نجد أي تأييد لمواقف المتشددين التي يدّعون نسبتها إلى الإسلام. وعلاوة على الخيانة التي يلصقونها بالمرأة، فإن هوسًا شديدًا بالإغراء الجنسي والفتنة يلصقونها بالمرأة أيضًا. إن أحكام المتشددين لها التأثير الواضح في إنكار حق النساء في الفكر والنشاط وهم يبعدون النساء كأفراد هامة وقادرة على المشاركة ويبعدونهن عن المجتمع، فالمتشددين قد حولوا المرأة إلى مصدر للإغراء الجنسي والفتنة، ثم بعد ذلك يعاقبون المرأة على النزوات الجنسية التي يدبرها لهن الرجال.

ومن وجهة نظر المعتدلين، فإن هذا يعد منافيًا ومتعارضًا كلية مع الشرع والأخلاقيات الإسلامية، وقد شرحت في فصل سابق الفرق بين الشريعة والفقه. فهذان اللفظان يستخدمان اليوم كمترادفين، فالشريعة على نقيض الفقه فهي تمثل القانون الفطري الذي فرضه الله مثل العدل والجمال والقانون الإلهي الذي لايتغير، بينما الفقه هو الجهود الإنسانية للتوصل إلى المثالية والتي دائمًا تكون ناقصة وأحيانًا خاطئة، وبالنسبة إلى موضوع الروابط التي بين الرجل والمرأة، فإن القانون الإلهي – قانون الشريعة

الأخلاقي الأبدي – ينص على أنه يجب تطبيق العدل والمساواة في الحقوق والفرص والميراث بشرط أن تكون الظروف مناسبة.

إن هذه المبادئ الأخلاقية هي التي تأتي من القرآن، فالقرآن يؤكد على أن الله ينظر إلى جميع عباده بنظرة المساواة دون النظر إلى الأصل أو العرق أو النوع، فالله يسوّى بين الرجل والمرأة، وكل منهما له الفرصة لنيل رضا الله. إن للمرأة حقوقًا في مقابل واجباتها وذلك في إطار ما يعتبر عدلاً ومشروعًا، فعندما أمر القرآن البشر باتباع الخير وتجنب الشر، فإنه ساوى في الأوامر بين الرجل والمرأة. ولقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله تعالى: " وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ " (سورة التوبة/ آية٧١)

ومن ثمّ، فإن هذه الآية توضح أن الرجال والنساء ليسوا فقط متساويين في بناء أخلاقيات المجتمع، وإنّما يجب على كل منهم أن يساند الآخر.

إن هذا الأمر لايعني شيئًا سوى أنه يجب أن يتعاون الرجل والمرأة في طاعة الله على الأرض وتطبيق قوانين الله، ولذلك فإنه يجب أن يتمتع كل من الرجل والمرأة بنفس الامتيازات والفرص من أجل تحقيق شريعة الله. إن هذا لا يعد أمرًا سهلاً، ولكنه يعتبر هدفًا أخلاقيًا محددًا وهو أن يتعاون الرجل مع المرأة على طاعة الله وتحقيق أوامره.

إن الباحثين في القرآن يؤكدون أن كل آية في القرآن تخص المرأة تدافع عن حقوقها وتحصنها ضد أي شر يمكن أن يلحق بها، فدراسة القرآن توضح أن المرأة على عهد الرسول (ص) كانت تشارك في الحياة السياسية والاجتماعية. ومن المعروف أنه بعد وفاة الرسول (ص) تصدت بعض زوجاته للتعليم والتفقيه في المجتمع. وبشكل ملحوظ في هذا السياق، فإن

الغالبية من القوانين الإصلاحية التي وردت في القرآن بصورة متتابعة إنما جاءت كنتيجة لمطالب دوفع عنها بواسطة النساء.

وقد قال المعتدلون إن مبدأ المساواة في المسؤولية أمام الله وعلى الأرض هو ما جاء به الشرع، بالإضافة إلى ذلك ركز المعتدلون في كتاباتهم على النظريات القرآنية التي تؤكد نظرية التطور، فالقرآن يؤكد أنه يجب على البشر أن يتطوروا ويغيروا أسلوب تفكيرهم تبعًا لتقدم الزمن حتى يستطيعوا أن يواكبوا تغيرات الزمن.

وبهذا المنطق يمكننا أن نقول أن الفقه هو محاولة البشر في خلق قانون يكون مماثلاً للقانون الإلهي، فلقد ذكر القرآن بعض التغيرات التي حدثت في عصر نزول القرآن حتى تناسب المجتمع الذي نزل فيه وبذلك حقق القرآن العدالة. ولقد اكتشف المعتدلون أن القرآن هو معلمهم، ولذلك فإنه يجب على المرأة والرجل أن يتعاونا في نفس العمل للارتقاء بالمرأة وإعطائها حقوقها وفرصها في كل زمان وفي كل فرصة. وطالما أن الرجل والمرأة كما ذكر القرآن مساندين لبعضهما البعض من أجل تحقيق الخير وتحريم الشر، فإنه يجب عليهما أن يتعاونا في المساعدة من أجل وصول المرأة إلى حقوقها ونيل ما كتب لها من الكرامة.

وهذا يعني أن القوانين المرتبطة بالمرأة لايجوز أن تكون ثابتة غير متغيرة، إذ إن القانون الإسلامي يجب أن يظل في محاولات متجددة لتحقيق المبادئ الأخلاقية التي ذكرت في القرآن وللوصول إلى العدالة، ومن ثمّ يجب أن نبذل الجهود اللازمة من أجل الوصول إلى تناسب بين حقوق وواجبات المرأة المسلمة، فعلى سبيل المثال – بتطور الوقت – فإنه من المناسب للشريعة بدرجة كبيرة أن نسمح للمرأة أن تشارك الرجل في الميراث. فالمتشددون حددوا الحالة الاجتماعية للمرأة عن طريق وضع حدود لحقوق المرأة وواجبات الرجل نحوها في كل عصر وزمان وألزموا المرأة بقبول

هذه الحقوق دون نقاش، بينما قام المعتدلون بتحديد الحالة الاجتماعية طبقًا لتغير تفكير ومعرفة البشر، وبذلك يجب عليهم الالتزام بالوصول للعدالة والتناسب بين الحقوق والواجبات. لقد قرأ المتشددون القرآن آية آية ووضعوا قوانين والتزامات ثابتة مدى الحياة، ولكنهم في كل الأحوال أهملوا الرسالة الأخلاقية والأدبية الموجهة في القرآن.

أما بالنسبة للمسلمين المعتدلين، فإن رسالة القرآن الأخلاقية واضحة تمامًا، فهم يؤمنون أن القرآن لم يضع مجموعة من القوانين غير المترابطة للنساء، ولكنه ذكر مجموعة من الأحداث والمشاكل التي حدثت في فترة معينة، فلقد قرأ المعتدلون القرآن بطريقة توضح نظريات للتعامل مع العادات التي كانت في وقت ما ظالمة ومهينة للمرأة.

وسوف أذكر بعض الأمثلة التي تمثل تفكير المعتدلين، وهذه الأمثلة توضح أيضًا الاختلافات بين المتشددين والمعتدلين في علاقة الإسلام بالمرأة:

فبالنسبة إلى قانون الميراث في القرآن والذي ينص على أنه يحق للمرأة أن ترث نصف الميراث الأصلي، ففي عصور ما قبل الإسلام كانت الفئة المسموح لها بالمشاركة في الميراث الذكور، فهم فقط الذين يشاركون في الحروب، ولأن الرجال فقط هم الذين يشاركون في الحروب، لذا فقد أصبح لهم الحق المطلق في الميراث. وبعد تأسيس المسلمين للمدينة شاركت بعض النساء في بعض المعارك، وبذلك ظهرت بعض المنازعات والخلافات، فقد تجادل رجال المدينة حول الميراث وقالوا إن النساء يجب أن يشاركن في الميراث؛ لأنهن حملن السلاح، وأكد هؤلاء الرجال أنه إذا اختارت هذه النساء المكوث في البيت، فلن يلومهن أحد.

ولقد عارض عدد من النساء في المدينة وجهة نظر الرجال، فالنساء المعترضات اشتكين للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) بأنهن حتى إذا لم يشاركن في المعارك، فإنهن يمثلن دورًا هامًا في المجتمع، فإنهن يهيئن

المحيط المناسب للرجال والنفسية الهادئة لهم التي تمكنهم من خوض المعارك، وبذلك فإنه لايوجد سبب لكي يُحرمن من حقهم في الميراث، وبعد ما سمع النبي (ص) لأقوال هؤلاء النساء قال إنه لايستطيع أن يعطي لهن رأيًا أو أمرًا إلا إذا أنزل الله وحيًا معينًا للحكم في هذه القضية، وبعد فترة قصيرة تلقى النبي من ربه أوامر بأن يعطي النساء نصيبًا من الميراث وهو نصف ما يأخذ الرجال.

ولم يكن مدهشًا اعتراض الرجال، فلقد رأوا أن ذلك ليس من العدل؛ لأن معظم النساء لم يأخذن أي دور في المعارك، وبذلك لايحق للنساء أن تشارك في الميراث حتى ولو كان نصف مايأخذ الرجال، وردًا على اعتراض الرجال جاءت آية قرآنية موجهة للرجال والنساء فيقول الحق تبارك وتعالى:
" وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا " (سورة النساء/ آية ٣٢)

ماحدث هنا هو إعطاء النساء حقوقهن ومطالبهن، وبالنسبة للرجال المعترضين فقد ذكرهم القرآن بوجوب أن يأخذوا أنفسهم بالأدب اللازم وألا يحسدوا النساء على ما آتاهن الله من فضله.

ومن المثير للانتباه أن المتشددين كثيرًا ما يذكرون الآية القرآنية السابقة كطريقة لإلغاء حقوق المرأة وكطريقة لكي يقولوا للنساء بأن لايفكرن في أخذ حقوق أخرى أكثر من التي أعطيت لهن، ولكن هذه الآية تحمل معنى مختلفاً تماماً.

فمن المهم ملاحظة أن الآية تنصح البشر بأن لايحسدوا بعضهم البعض على شيء أعطاه الله لأحد منهم، فهذه الآية تؤكد أن البشر يمكن أن يكسبوا رضا الله عن طريق العبادة والصلاة وحمد الله على نعمه، وتؤكد هذه الآية أيضًا أن كلاً من الرجال والنساء يمكن أن ينالوا نعم الله وحقوقهم تبعًا

لعبادتهم لله، ولذلك فبدلاً من الحقد والحسد ومحاولة أخذ حقوق الغير يجب عليهم أن يعبدوا الله من أجل الحصول على نعمه وحقوقهم. إن تقسيم النعم لا يتوقف على نوع البشر إذا كان رجلاً أو أنثى، ولكنه يتوقف على مدى طاعة كل منهما لله تعالى، فالمقصود بعبادة الله يشمل أيضًا العمل بجهد لكسب الرزق، فبمساعدة الله يستطيع البشر أن يصلوا إلى مطالبهم.

وتوجد آية أخرى تؤكد عدم تساوي الرجل مع المرأة ولقد استخدم المتشددون هذه الآية من أجل إقناع النساء بطاعة أزواجهن طاعة عمياء، وتوجد طريقتان لترجمة معاني الآية، وهي: "الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا" (سورة النساء/ آية ٣٤)

فالآية تنص على قوامة الرجال على النساء، ويمكن قراءتها بطريقة أن الرجال هم الذين يزودون النساء بما يحتجنه. إن الكلمة التي يجب أن ألقي الضوء عليها هي كلمة "قوامين"، والطرق الكثيرة لتفسير هذه الكلمة تتوقف على فهم معناها، فهذه الكلمة يمكن أن تعني: حماة، مساعدين، أسيادًا وخادمين. إن العلاقة بينهم سواء كانت حماية أو مساعدة، فإنها تتطلب التعاون المشترك لتحقيق أوامر الله فكل منهم يجب أن يحمي ويساعد الآخر.

إن الكلمة التي ذكرها الله في القرآن للدلالة على النعمة هي "فضل"، فهذه الكلمة ذكرت كثيرًا في القرآن للدلالة على نعم وأفضال الله المادية والمعنوية التي إمّا أن تكون مكافأة بسبب طاعة الله أو فضلاً من الله لعباده، فلقد استخدم القرآن كلمة فضل أكثر من خمسين مرة، وسوف نجد أن نعم الله ومنحه وجوائزه يمكن لجميع العباد أن يحظوا بها. وبهذا نجد أن كلاً من الرجال والنساء مهيأون لينالوا فضل الله ونعمه. إن القوة والسلطة التي أعطيت

للرجال على النساء لم تعط لهم لأنهم رجال؛ ولكن لأن الرجال في فترة زمنية كافية يمثلون الحماية المادية للنساء، ولكن إذا تغيرت الظروف وأصبح للنساء المسؤولية المادية مع الرجال، فإنه يجب يتقاسم الاثنان السلطة.

إن كثيرًا من حقوق المرأة التي أخذت في أوائل الإسلام كانت ردًا على شكوى النساء لرسول الله (ص) في المدينة، وتوجد بعض الحقوق الأخلاقية التي أعطيت للمرأة دون شكوى، فعلى سبيل المثال، حرّم القرآن عادة جاهلية كانت منتشرة في عصور ماقبل الإسلام وهي قتل العائلات الفقيرة لبناتهم الأطفال؛ لأنهم يعتقدون أنهم بذلك يقدمون قربانًا لله وأنه سوف يعيدها إليهم أولادًا بدلاً من البنات، ولقد تم تحريم هذا دون شكوى؛ لأن القتل حرام في كل الأحوال، بينما الحقوق المادية والملكية وضعت نتيجة شكوى النساء للرسول (ص). إن القرآن ينص على أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. فقد وضع القرآن مبادئ أخلاقية للبشر كي يتبعوها، ولكن إذا أراد البشر الوصول للمكانة العليا، فإنه يجب عليهم تغيير أنفسهم إلى الأحسن وأن يجاهدوا الشر من أجل رضا الله.

فعلى سبيل المثال، هناك موضوع هام وكانت له عيوب كثيرة وهو الزواج والطلاق، فقبل الإسلام كان الرجال يطلّقون النساء بسبب أو بدون سبب، وبعد الطلاق كان يجب على المرأة أن تنتظر فترة (العدة) ولا تتزوج إلا بعد انتهائها، وخلال هذه الفترة كان يمكن للزوج أن يعود إلى زوجته دون توثيق شرعي، وكثير من الرجال استخدموا هذه الحقوق كطريقة من أجل تعذيب المرأة، فالرجل يقوم بتطليق المرأة ويتركها وقبل نهاية العدة بيوم أو يومين يقوم بإعادة الزواج منها ثم يعيد طلاقها ويبقى الوضع على هذا الحال، فكان هذا يتكرر مرارًا بدون حدود أو نهاية، وكانوا يستخدمون هذا لكي تبقى المرأة غير حرة؛ لأنهم بذلك لا يمكنون المرأة من أن تتزوج من رجل آخر طالما مطلقها يظل يطلقها ثم يردها، والأكثر إهانة من ذلك، أنه

عندما كان الرجل يطلق زوجته ويأتي قبل نهاية العدة بيوم ويقول لها "كنت ألعب"، أو "كنت أمزح".

اشتكت كثيرات من النساء إلى رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم) من هذه الأفعال وطلبن منه أن يوجد لهن حلاً، فطلب منهن الرسول أن ينتظرن حتى يأتي إليه الوحي لحل هذه المشكلة، ولقد رد القرآن على هذه المشكلة بأنه حد من هذا الإسراف دون التغيير في البناء الاجتماعي، وحرّم تطليق النساء وإعادة زواجهن بغرض إذلالهن، فقد صرح القرآن بأنه يجب على الرجال إمّا أن يعيشوا مع النساء بالحسنى أو يطلقوهن بالحسنى أيضًا، ومن يطلق النساء بغرض إذلالهن، فإنه يصبح مذنبًا وظالمًا لنفسه. بالإضافة إلى أن القرآن لم يلغِ فترة العدة، ولكنه سمح أن تتكرر لمرتين فقط، فيمكن للرجل وللمراة أن ينفصلا وأن يرجعا إلى بعضهما البعض لفترتين فقط، وإذا كان هناك طلاق ثلاث مرات، فلا يمكنهم الرجوع مرة أخرى. والذين كانوا يقولون لزوجاتهم أنهم كانوا يلعبون فقط، حرّم القرآن هذا واعتبره ذنبًا عظيمًا، فقد قال الله تعالى: " ...... وَلاَ تَتَّخِذُوَاْ آيَاتِ اللّهِ هُزُوًا ....."

(سورة البقرة/ آية ٢٣١)

إن القرآن كرر هذه القوانين ليؤكد على حقوق المرأة، ولكني أعتقد أنه من العدل أن نقول أن القرآن أعطى المرأة حقوقها كاملة بشكوى أو بدون شكوى ومنع عنها أي أسلوب من أساليب القهر والظلم، وهناك مصطلح في القرآن يسمى "استضعاف" ويعني ممارسة العنف والظلم على الضعفاء، ولقد نص القرآن على أن ممارسة العنف على النساء يعتبر استضعافًا، وهذا يعد على النقيض من أخلاقيات الإسلام ويعد عصيانًا لأوامر الله وهناك الكثير من الأمثلة على ذلك:

ففي الجزيرة العربية في فترة ماقبل الإسلام، وفي القرن السابع عشر الميلادي كانت المرأة تعد ضمن الحقوق الموروثة، فكان يمكن للأخ أن يرث

زوجة أخيه، ولكنه لايرثها على أساس الملكية فيحق للأخ أن يتزوج المرأة إذا أراد، ويجب أن تظل هذه الأرملة دون خروج إلى أن يقول الأخ رأيه ويعلن رغبته، وكانت نتيجة ذلك هي أن الأخ لايعطي الحرية للمرأة إلا بعد أن تدفع له تلك الأرملة مبلغًا من المال من أجل حريتها، وإن تقدم أحدٌ لخطبة هذه الأرملة، فإن الأخ كان يستغل سلطته لكي يمنع هذا الزواج. وبالطبع كانت هذه مشكلة كبيرة للمرأة، ولقد حرّم القرآن هذه العادة؛ لأن ذلك يعد مثل أخذ المرأة كرهينة. ولقد حرّم القرآن استغلال المرأة من أجل المال وأكّد أنه عندما يعيش الرجال مع المرأة، فلابد أن تكون هذه الحياة مليئة بالمودة والرحمة والاحترام.

وكانت هناك عادة أخرى متبعة في العصر القديم وهي تقديم "المهر" عادة قبل الزواج، فالعريس لابد أن يدفع للعروس الصداق المناسب المتفق عليه وهو مبلغ من المال يحدده أهل العروس، ولقد اعتاد الآباء أن يأخذوا هذا المهر لأنفسهم ولا يعطونه لبناتهم، وهذا يعد إهانة للفتيات؛ لأن الآباء اعتادوا على تزويج بناتهم لمن يدفع أكثر. فالإسلام فرض الصداق لحماية المرأة بنسبة من المال، وردًا على ذلك فقد منع القرآن الآباء أن يأخذوا أموال بناتهم التي أعطيت لهن من الأزواج عن طيب نفس، إن هذا التفريق بين ملكية الآباء والأزواج من ناحية، وملكية البنات والزوجات من ناحية أخرى كانت صدمة كبيرة، ولقد كان هذا التفريق ضروريًا لتوضيح مدى سوء المعاملة التي واجهت المسلمين الأوائل.

ويعتبر الطلاق هو المشكلة الكبرى، ويمثل واحدًا من أساليب القهر والظلم الواقع على المرأة المطلقة. إن الرجل كان يحق له أن يأخذ أي أموال أو ممتلكات أعطاها للزوجة في فترة الزواج، وبعد الطلاق يجب على الرجل أن يدفع نفقة المرأة على سبيل المساعدة وإذا أحس الرجل بعدم الرضا عن دفع هذه النفقة لأي سبب، فإنه يمكن أن يتوقف عن دفعها. فلقد أكد القرآن أنه

يعد خطيئة إذا أخذ الرجل مالاً من المرأة التي طلقها فقد قال الله تعالى في كتابه العزيز: "وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً " (سورة النساء/ آية ٢٠)

فلقد أخذ القرآن عامل حرية التصرف من أيدي الرجال وربط بين طاعة الله وإلغاء حالة الاستضعاف وإعطاء المرأة حقوقها.

ففي هذه الأمثلة أعاد القرآن بناء الشروط الاجتماعية التي كانت تضطهد المرأة وتظلمها، ولقد أسس القرآن مبادئ أخلاقية وأدبية صححت جميع الأوضاع، فلقد عالج القرآن المشاكل الاجتماعية التي واجهت النساء اللاتي كنّ يعشن في المدينة.

وإني لأعتقد أنه من الواضح أنه في العصر الحديث لا يمكن لأي دولة أن تتطور إذا كان نصف سكانها مهانين ويعاملون معاملة سيئة، فالنساء يمثلن حوالي أكثر من نصف العالم الإسلامي، ومعظم دول المسلمين فقيرة وغير متطورة وأغلب هذه الدول الفقيرة، يتطلب لتطويرها مشاركة فعالة من المرأة في شئون الدولة. إن بعض الدول مثل السعودية تعتبر مختلفة تمامًا، فهي لاتحتاج إلى دور المرأة بسبب الثروة التي تأتي إليها من البترول، ومعظم المسلمين لم يستطيعوا أن يتغلبوا على وجهة نظر المتشددين في الإسلام.

إن إهانة المتشددين للمرأة ومعاملتهم لها لم تحدث من قبل في التاريخ الإسلامي، فقد ذكرت أمثلة كثيرة من القرآن إن نظرية المتشددين جعلت الكثير من المسلمين ينسون معتقداتهم الإسلامية وتراث النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) فكما ذكرت من قبل، فإن المرأة كان لها دور فعّال في بداية الدولة الأولى التي أسسها الرسول (عليه الصلاة والسلام) بالمدينة المنورة، وحتى القرن السادس عشر الميلادي ذكر الإسلام الكثير من النساء الفقيهات اللاتي كنَ يتواجدن في مساجد دمشق والقاهرة، وكن يعلمن المئات من

الرجال الفقهاء. وعندما فقد المسلمون الكثير من تراثهم وحضارتهم، وجد المتشددون أنه من السهل اتهام أي شخص يحاول إثبات حقوق المرأة بأنه متشبه بالغرب.

وفي الواقع فإن المعتدلين بعيدون جدًا عن تقليدهم للغرب، فلقد اعتمدوا على نظرية الإسلام والفقه الإسلامي. ومن وجهة نظري، فإن نظريات المعتدلين تمد بصلة إلى التعاليم والأخلاقيات الإسلامية أكثر من المتشددين، فلقد كان المتشددون عدوانيين ظالمين في تعاملهم مع المرأة. إن الاختلاف بين المعتدلين والمتشددين يتمثل واضحًا في تعامل كل منهما مع المرأة، فعلى سبيل المثال آمن المتشددون بأنه يجب فرض الحجاب على المرأة غير مكترثين بحريتها ورأيها، بينما تناقش المعتدلون فيما بينهم حول ما إذا كان الحجاب فريضة أم أنه واجب ديني على المرأة، ولكن في كلتا الحالتين آمن المعتدلون بأنه اختيار المرأة وحدها، فلها حرية ارتداء هذا الثوب أو ذاك، كما أن لها الحرية في عدم ارتدائه، كما يجب احترام رأيها، فلقد اعتمد المعتدلون في رأيهم هذا على التعاليم القرآنية التي تؤكد أنه لا إكراه في الدين.

الخاتمة

إن الأديان شأن كل العقائد المتينة، لها من القوة الشديدة ما يؤهلها لدفع الناس نحو هاوية الكراهية أو حملهم إلى ذرا غير مسبوقة لدنيا الحب والاستنارة. وهذه القوة كامنة، وهي توجد في كل ما يمثل العقيدة: نصوصه وتاريخه، عقيدته وأساطيره، شعائره ورموزه. أما ما يتمخض عنه هذا الكمون، فيعتمد على هؤلاء الذين لديهم القدرة على أن ينفذوا ويطبقوا على الأرض قوة العقيدة. وبينما يكون زمام الدين نظريًا على الأقل في يد الله تعالى، فإنه في الحقيقة ما لم يكن لله على الأرض من يمثله يدبر وينظم كيف تستخدم القوة الكامنة في الدين، فإن الأمر سيكون متروكًا لأولئك الذين يصفون أنفسهم بأنهم أتباع الدين كي يستغلوا قوة الدين بأية طريقة يرونها. والسؤال هو: من الذي سيتحمل المسؤولية؟ وتقع عليه هذه المسؤولية فيما يتم عمله باسم الدين؟

والإجابة عن هذا السؤال هي في الواقع، أصعب مما يمكن أن ندركه. ولكن الإجابة هي أيضًا مما يوضح العديد من الاختلافات بين المتشددين والمعتدلين المسلمين، فكيف سيجيب المتشددون على هذا السؤال؟ أعتقد أن المتشددين سيرون أن هذا السؤال خاطئ، إذ كيف يفرق المرء بين الدين والمسؤولية عنه؟ سيقول المتشددون إن الدين ليس ممثلاً بأي شيء أكثر من نصوصه وشعائره، وهذا كل ما في الأمر وإلى الله يرجع الفضل والمنة (لا المسؤولية) على الدين وكل ما بُني عليه وعمل باسمه.

إن وضع المتشددين بالنسبة للمعتدلين ليس – فقط – ساذجًا، ولكنه معقد، فإن ما تنهض عليه العقيدة هو أكثر من نص وشعيرة، وإن ما يجري بسبب النص والشعيرة ليس هو المظهر التام للدين، وأن الله ومشيئته ذو سعة ورحابة شديدة، بحيث يمكن أن يكون ما يعبر به عنهما هو تمامًا النصوص

والشعائر، وأن ما يقع بسببهما ومنسوبًا إليهما هو إنساني تمامًا. إن مسؤولية ما يفعله البشر المنسوبة إلى الله، يجب أن تقع على كاهل البشر.

المتشددون والمعتدلون - كلاهما- يسعيان كي يكونا متصلين بالله كلية، وكلاهما ليس مستعدًا لأن يتحرى حياته على الأرض على غير هدى من الله. وكلاهما يفكر في الله كواجب الوجود، وأن بيده وحده أمر ما يفعل العبد وما لا يفعله. وكلاهما يؤمن بأن الله هو الأعلى القوي العليم الذي بيده الخير، وأنه الرحمن الرحيم وأنه المعطي والمانع والعدل بيده الفضل والعقاب.

ومع هذا، فإن ما يفصل بين المتشددين والمعتدلين، بعيد جدًا وكثير مما يفصل بينهما ذات صلة بالمسؤولية وسهولة بلوغها. فالمعتدلون يؤمنون بأن الله قد أودع في مخلوقاته قوة العقل والقدرة على التمييز بين الخير والشر، ولكن الأمانة التي أودعها الله في البشر متعددة جدًا، حتى أن الأمانة التي أودعت في الإنسان، ليست بالضبط لكي تفرض أو تملي عليه مجموعة من الأوامر من قبل الله، لكن الأحرى أن يقال إن الله قد أمد البشر بموجز لأدلة الهداية وتركهم يستنبطون ويكتشفون القوانين الضرورية والكافية.

المتشددون - من جانب آخر- لايؤمنون بأن الأمانة التي عهد بها إلى الإنسان ضخمة وغير واضحة، فقد أعطى الله خلقه القوانين التي هي في معظم الحالات محددة ومفصلة وعهد إليهم بتنفيذها، وهكذا فإن المنة الحقيقية التي تفضل الله بها على البشر، ليست في القدرة على التعليل، بل في القدرة على الفهم والامتثال. وحينئذ فلن يكون مدهشاً أن يكون المتشددون مقتنعين بأن الله يدبر شؤون البشر بمدهم بقوانين محسوسة محددة تنظم جانبًا كبيرًا مما يقولونه ويفعلونه. أما المعتدلون فيعتقدون المقابل لذلك تمامًا، إذ إن معظم الأمور في شؤون الحياة متروكة للتقدير الإنساني، الذي بواسطته يمكن للبشر أن يفعلوا كل ما في مقدورهم شريطة مراعاة الخطوط الإرشادية العامة للأخلاق.

إن الوصول إلى الله ليس – بالضبط – من صميم النزاع بين المعتدلين والمتشددين، بل النزاع هو في: ما نوع ذلك الوصول؟ فالمعتدلون يتشككون في أن إرادة الله يسهل وصولها بالكامل إلى الناس، فالناس يمكنهم بذل ما في استطاعتهم من مجهود، كي يعرفوا ما يريده الله، غير أنهم نادرًا ما يكونون على يقين تام من أنهم نجحوا في معرفة مراد الله، وعمل ذلك في اعتقاد المعتدلين خطير؛ لأن هناك مخاطرة تتمثل في أن البشر – بغطرستهم – سوف ينسبون إلى الله معرفتهم الخاصة المحددة الخاطئة، لكن بينما يؤمن المعتدلون بأن إرادة الله ليس الوصول إليها سهلاً، إلا أنهم يؤمنون بأن خير الله وحبه ورحمته وشفقته سهلة الوصول إلى الكثيرين. وحيث قد صار الإنسان مشغولاً بالبحث عن معرفة الله وإسلام الوجه والروح له، فإن في هذه العلاقة السامية المتبادلة، سيجد ذلك الإنسان الله متجاوبًا معه يحبه كما أنه يحب الله.

وبالنسبة للمتشددين، فإن الأمر يبدو على النقيض تقريبًا، إذ إن إرادة الله متاح الوصول إليها عن طريق قانونه (أي شريعته) وليس عن طريق حبه، إذ إن شرع الله هو الصيغة التامة لإرادة الله، فعلى المرء ألا يشغل نفسه بمعرفة الله، بل ينشغل – فقط – بطاعته. ولقد ذكر المتشددون أنه يكاد يصعب بلوغ مرحلة الوصال مع الله، لكن الله فضلاً منه وإحسانـــًا يجود على خلقه بحبه لهم. إن الله يحب عباده، ولكن هذه العلاقة قد لا تكون متبادلة. ففي نطاق المتشددين، يجب على الناس الخوف التام من الله، وليس حبه. وحتى إذا أحبوا الله، فإنهم لن يجنوا أي معرفة أو ودٍ أو قربٍ أو ألفةٍ خاصة في مقابل هذا الحب. ويبقى الله هو الآمر العلي الذي لا يمكن الوصول إليه بالعاطفة، والذي يتوقع الطاعة من عباده وليس الحب. ومما يدعو إلى الاستغراب أن المتشددين يؤمنون أيضًا بأنه يمكن الوصول إلى الله عن طريق الشرع، فإذا عرف الفرد شرع الآمر العلي، فسيعرف بالتالي

الآمر العلي. أما المعتدلون فيؤمنون أن ذلك استخفاف تجاه الله، وكأن كل شيء يجب أن نعرفه عن الله هو شرعه، وكأنه الجزء الوحيد بالنسبة لله الذي له علاقة بالبشر، وبقية الأجزاء ليس لها علاقة.

وببساطة فلربما يكون المعتدلون خلافـًا للصوفيين، لايؤمنون بأن حب الله يمكن أن يقود إلى وحدة كاملة مع الله. وطبقـًا للمعتدلين، فإنه بينما ينبغي على الفرد أن يبني بصورة شخصية علاقة وصال مع الله، فإنه يكون من الخطر والخطأ التظاهر بأنه من خلال الشرع يمكن للإرادة الإلهية أن تلتقي وتتحد مع إرادة البشر.

فالتظاهر بأن البشر والذات الإلهية يمكن أن يتحدا ويكونا نفس الشيء، لا يؤدي إلى بتر أحدهما، بل في الحقيقة إلى استنكارهما معًا. ويؤمن المعتدلون بأن المتشددين يتمسكون بمجموعة من القوانين التي لا يمكن حصرها أو تحقيقها، ويتظاهرون بأن مثل هذه القوانين هي وحدها قلب الإسلام وروحه، وهذا يخلق انطباعًا زائفـًا بوجود سيطرة على الأدوار العلوية، بينما يكون في نفس الوقت ما يجري على الأرض خارج التحكم. وفي فترات حادة من التقلب وعدم الأمن، فالتعليق بنظام مكون من مجموعة من القوانين اللازمة لتوفير الأمن والاستقرار، يكون من الناحية الاجتماعية أمرًا متفهمًا. ومع ذلك، فإن المشكلة هي أن التاريخ غير لين في تقدمه، وثمن هذا الشعور الكاذب بالأمن باهظ جدًا، مما يؤدي إلى التهميش.

ولو كانت تلك مناقشات نظرية دون أن يكون لها آثار عملية بالنسبة إلى الطريقة التي يعاش بها الإسلام ويواجه، فلربما تكون تلك الموضوعات غير ملحة، بيد أنها تصنع خلافـًا يكون في الأغلب خلافـًا تنكاريًا مأساويًا.

فهؤلاء الذين يسافرون إلى البلاد الإسلامية، سيجدون أن الإسلام الحي هو الإسلام الذي يمارسه الناس بالفعل ويختبرونه، هو إسلام راسخ جدًا. ويمكن وصف المسلمين الذين يمارسونه بأنهم معتدلون. ففي معظم البلاد نجد

أن لدى النساء الحرية في ارتداء النقاب أو عدم ارتدائه. وفي معظم بلاد المسلمين تدخل النساء الكليات بجميع مستوياتها، ويخدمن كمحاميات وطبيبات وقاضيات، وفي معظم بلاد المسلمين تعد النساء شريكات في مسؤولية أسرها، ولسن خادمات أو إماء. فالناس جميعًا يستمتعون بجميع أنواع الموسيقى غربية وغير غربية، وفي معظم البلاد تختلط النساء بحرية مع الرجال في المدارس والأسواق وأماكن العمل والمسارح، فمعظم البلاد الإسلامية لا تجبر مواطنيها على العبادة أو الصوم، ويؤمن معظم الناس بأنهم يستطيعون أن يحبوا ويتحابوا من قبل الله، ومعظم المسلمين ينسبون ما قد يكون مزعجًا وقاسيًا إلى كل ماهو غير إسلامي، فإذا أخبرت أي مسلم بحكاية البؤس والمعاناة، ثم سألته إذا كان يؤمن بأن ذلك متطابق مع الإسلام، فسيعطيك - بالغريزة - إجابة بـــ لا.

إذن، فما هي المشكلة؟ لماذا لا نستطيع الادعاء بأن ظاهرة التشدد غير مؤثرة، ونتركها ونمضي قدمًا؟ المشكلة لها جوانب متعددة خفية، أو حتى الإسلام المعاش الآن، أو ذلك الإسلام الذي كان يعيشه الناس في الماضي. فالأشكال الاجتماعية والإنسانية للإسلام، سواء أكانت الموجودة في عصرنا الحاضر أو في الماضي، قد اعتبرت شاذة وغير متصلة بالموضوع. وعلى أية حال، فالمتشددون بالفعل يهتمون بكل ذلك ، ولكن بالإسلام المتخيل سواء أكان الإسلام الماضي المصور في شكل أسطوري، أو الإسلام الذي على شكل نموذج مستقبلي، يصلح لأن يكون على هيئة المدينة الفاضلة الموعودة. إن المتشددين يؤمنون بأن الناس ينبغي أن يُهيأوا ويُعدّوا، كي يتمسكوا بالإسلام القديم، وكي يتواءموا مع الشرع، لا مع الطريق الآخر الذي حولهم. وبمعنى آخر، ينبغي على المسلمين أن يكرهوا على العيش طبقــًا للشرع، ولا أن يغير الشرع ليتواءم مع الناس ويخدم مصالحهم. وقد تمت تجربة هذا في "طالبان" و" أفغانستان"، وهو الآن يطبق حاليًا مع السعودية العربية.

المشكلة هي أن التوجه التشددي تم تنشئته ونشره بواسطة الدولة التي تحكم المدينتين المقدستين مكة والمدينة (أي الحكومة السعودية)، وهذا مع الدعم المادي الذي يتلقاه المتشددون، حتى أصبحوا قادرين على دق غارات الرعب في كل أرجاء العالم الإسلامي. وليس من المبالغة القول بوجود خطر حقيقي يتمثل في قدرة المتشددين على إعادة تعريف طبيعة الدين الإسلامي. وأسوأ ما يكون، هو نجاح المتشددين في ارتكاب أفعال مروعة تصدم وجدان جميع البشر من مسلمين وغير مسلمين. وقد كانت القوى التقليدية التي اعتادت على التصدي وتهميش مثل هذه الجماعات المتطرفة هم رجال القانون. وفي مرحلة واحدة من الزمن، لعب هؤلاء القانونيون دورًا حاسمًا في تعريف القوة الفعالة في المجتمع المتحضر، ولكن هذا الدور أصبح الآن مهمشًا وثانويًا ومعتمدًا بشكل كلي على إرادة الحكومة.

وإذن، فماذا عن المستقبل؟ وفي أي طريق يسير الإسلام؟ لو كان التاريخ يصلح لأن يكون مؤشرًا ودليلاً، إذن لأعطانا هذا بعض الراحة. وعلى الرغم من الأخطاء التاريخية التي فعلت باسم الدين، فقد أسس الإسلام حضارة عظيمة ألهمت البشرية بتلك الثورة التي قامت في الغرب. والحق أنه بغير الإنجازات الحضارية الإسلامية، فإنه سيكون من المشكوك فيه قيام وتحقق تلك الإصلاحات الأوروبية وما انبثق عنها. أكثر من هذا، فإنه إذا كان على المرء أن يوازن ويقارن بين الإنجازات التي تحققت في العصر قبل الحديث وبين الإساءات التي ارتكبت باسم الإسلام في عصرنا الحالي، فإن الإساءات ستبدو باهتة وغير مؤثرة. وإذا قيّم المرء كل إسهامات الإسلام في صالح البشرية، فسيتضح لكل ذي عقل ولكل مراقب يتعامل مع الأمر بموضوعية، أن الملهم الجيد كان هو هذا الدين. ولهذا، فعندما نفكر في المستقبل، ألا يمدنا هذا بأساس للتفاؤل؟

حسنـــًا، ستكون الإجابة بنعم وبلا. إنه لمما يؤلم بشكل واضح أنه بغض النظر عما كانت عليه العقيدة الإسلامية من ثراء وأخلاق وإنسانية في الماضي، فإن كل هذا سيكون بلا فائدة تنكر إذا ما استمر مسلمو اليوم لا يؤمنون بتلك القيم، ولا يقومون بتطبيقها. فالمستقبل يعتمد على كيفية اختيار المسلمين الجدد لطريقة فهم ماضيهم، وكيف سيطورون ويدافعون عنه. إن الموضوع الأساسي ليس فيما إذا كان التراث الإسلامي إنسانيًا، إنما الموضوع هو فيما إذا كان المسلمون يعتقدون أن تأثير الإسلام في العالم اليوم يجب أن يكون إنسانيًا. وكلمة إنسانية التي أعنيها، هي إنسانية مصاغة حسب القالب الديني الذي يركز على وضع نهاية للعذاب البشري، وأن يؤمن أن البشر كائنات عاقلة وأن التقدم مهمة إلهية.

من وجهة نظري، فإن البشرية المتدينة أي السائرة وفق الدين، تتمثل في اعتقاد أن السعي وراء الخير وملاحقته على الأرض، إنما هو تحقيق للخير الإلهي. والبحث عن جمال الحياة هو جزء لا يتجزأ من انعكاس جمال الخالق. وكأمر إلزامي، فإن خلق ونشر الحب بين الناس، يعتبر أمرًا لا ينفصل عن تعاليم القرآن التي تحث على أن يعرف الواحد الآخر. إن الإنسانية الدينية تعني أنه من خلال حب المرء لربه، فإن هذا الشخص سيشع ويفيض على من حوله من المخلوقات رحمة ورعاية واهتمامًا.. ومثلما صاغها عالم من علماء الدين وهو "ابن أبي الدنيا" الذي قال: إن الحب حالة منيرة. وفي هذه الحالة المنيرة يتوهج المؤمن بالمودة والرحمة تجاه كل المخلوقات. لذلك، فإن حب الله يتحول إلى الأمر الإلهي: "تعال واعرف الآخرين" فالتعرف أمر أخلاقي لإيجاد كل الظروف المادية والأخلاقية الضرورية التي في محيطها يمكن للناس أن يلتقوا ويتحابوا. إن دعوة الله للبشر كي يتعارفوا ليست دعوة لعملية غير قلبية بلا مشاعر لجمع معلومات عن الآخرين، إنها مع ذلك توجيه إلهي ونصح للمؤمنين بأن يتحققوا من أن

من الضروري لمعرفة الله وحبه أن تعرف أو تحب خلفاءه على الأرض. وطبقــًا للقرآن، فإن البشر قد ورثوا الأرض وهم مسؤولون عن حفظ وحماية هذا الإرث الإلهي، وحيث إن الأمر كذلك، فإن البشر يحتلون منزلة رفيعة من كونهم خلفاء الله. وهذا العلم الديني في قلب ولب الإنسانية المتدينة في شريعة الإسلام. هذه الإنسانية العلمانية والحداثة تعتبران من القوى العالمية المؤثرة التي تفرض تحدياتها على كل الاتهامات الدينية.

إن التحدي العالمي والالتزام الذي يواجه كل الأديان في العصر الحديث، هو كبح جماح وتوجيه القوة المؤثرة للدين لمتابعة واقتفاء أثر الخير والجمال في الحياة. إن العصر الحديث بحركاته المذهبية يضع تحديات عديدة هائلة أمام الأديان عن طريق التهديد لتهميش الدين وإخماد دوره معًا، فالحداثة تجسد تعميم وإصرار العولميات كحقوق الإنسان، وتقرير المصير، ومنع استخدام القوة، والحقوق الأساسية للنساء، والعنصرية العرقية والقومية، والحقوق الدينية، والنظم الاقتصادية العالمية المعقدة، والعديد من المؤسسات الدولية الأخرى التي تشكل هيكل العالم الحديث. وإذا لم يساهم الدين في إثراء الحياة البشرية بطرق واضحة وحاسمة في هذا الهيكل العالمي الموجود، فسيجبر الدين على الوقوف على الخط الجانبي للتاريخ، أو سيجبر على مجابهة قوى الحداثة، تلك القوى التي غالبًا ما تكون عنيفة ومدمرة.

إن المتشددين والمعتدلين قطبان متقابلان من صنع الحداثة، وكلاهما يستجيب، إما برفضها وإما بقبولها. ولكن توجد في الإسلام بعض تعريفات تبدو وكأنها لم تستجب للحداثة أو تتأثر بها، مثل المحافظين أو التقليديين، لكني لا أؤمن أنهم مهمون في تشكيل مستقبل الإسلام. أعتقد أن مستقبل الإسلام سيتشكل عن طريق المتشددين أو المعتدلين. وأتمنى ألا يكون الإسلام عرضة للمعاناة، من جنون العظمة للمتظاهرين الذين يدعون أنهم يحكمون

نيابة عن الله، أو أولئك الذين يتظاهرون بأنهم يخصصون مجموعة من القواعد الموضوعية التي تدعي أنها تجسد الإرادة الإلهية.

جزئيًا، ولأن البشرية المعلقة بالقرن وبالحداثة، فالإسلام مجبر على مجابهة التحديات القوية والهائلة. لكنه لا يوجد أيضًا أي تساؤل عما إذا كان الإسلام سيمر خلال فترة تحويلية ستنمو وتتطرد بشكل حاد. إنها تنمو بشكل أكثر حدة؛ وهذا غالبًا لأنه في حالة الإسلام، فإن العملية الطبيعية والمحتمة للنمو والتغير ستستمر في التأجيل. في كل فترة، فنظام الاستعمار والحداثة والفن الأثري، حيث يتم تغيير الحقائق والظروف والمعاني التي بالقطع يتم تحويلها وتغييرها وتطويرها. فكل فترة تواجه المسلمين بتحديات شديدة، تدعو إلى التغيير والإصلاح، وذلك لعدة أسباب، فكل ما تغير كان مستعملاً عقائديًا وبلاغيًا، لكن حقائق الدين تبقى ذاتها وكما هي. والآن فقد أقيم علينا ضغط كاف، وقد وصلنا إلى نقطة تحول حقيقي؛ لأن الضغط المتزايد دائمًا - والذي لم يتم التعامل معه - قد أنتج الآن حقدًا عدوانيًا يعرف باسم "المذهب البروتستانتي". ومع هذا الحقد، لم يعد هناك تساؤل عن احتمالية وجود تغيير. التساؤل الوحيد هو أي اتجاه سيسلكه التغيير القادم، وهل ستشير البوصلة إلى اتجاه المتشددين أم إلى اتجاه المعتدلين؟ هذا هو السؤال.

أعتقد أن كلاً من المسلمين وغير المسلمين لديهم دور ليلعبوه في تشكيل مستقبل الإسلام، وسأشير إلى دور المسلمين أولاً ثم إلى دور غير المسلمين.

في وقت سابق، ذكرت الأهمية المحورية لأخذ موقف نقدي تجاه تقليد المرء الخالص. فالعديد من المسلمين يتعرضون للإهانة ؛ بسبب فكرة الإصلاح؛ لأنهم يعتقدون خطأً أن هذا يدل ضمنـــاً على أن الإسلام معيب إلى حد ما، أو أنه غير مكتمل. لكن الإصلاح لا يكمن في إصلاح الرب، بل في تحسين العلاقة مع الرب، وتقديم عمل صالح أفضل جزاء الثقة التي أودعنا الله إياها، وهذه نعمة من الله يلمسها كل المسلمين ويوافقون عليها. إن

الإصلاح هو تحسين قدرتنا على فهم طبيعة الثقة وخدمة أفضل لموضوعية الثقة. بمعنى، إن الانعكاس النقدي الذي أنادي به هو أولاً عن إعادة التقييم على ضوء التحديات الجديدة وحالات تغيير فهمنا لطبيعة الثقة التي وهبها الله إيانا، وثانيًا، حين نطور مفهوم الثقة، ونقيم ما إذا كنا نقوم بواجباتنا تجاه الثقة الموضوعة فينا.

في هذا الكتاب، تعرفنا على اتجاهين لفهم وخدمة الثقة: التشددي والمعتدل. وقد ينبثق من الطلاب المسلمين خيار ثالث قد يكون مختلفاً تمامًا. فإمكانية الاختيار الثالث أو الاتجاه المختلف تمامًا هو أمر يمكن التعامل معه في أعمال أخرى. إن الأمر الذي يواجه المسلمين الآن هو: أن هناك قطبين متقابلين وهما على الساحة الآن، فإلى أي منهما سنحول اتجاهنا؟

أعتقد أن المسلمين يستطيعون أن يقابلوا التحديات الهائلة للحداثة عن طريق توطين أنفسهم في دائرة الإدراك الإنساني للإسلام، ومن هذه النقطة يكسبون القوة لتخطي ودفع الاتجاه الأخلاقي الذي أعطاه الله لهم. وبهذا، فلن يواجه المسلمون فقط بإيجابية تشكيل الاتجاه الأخلاقي الذي سيعمل به عالمنا، ولكن، ستبقى أيضًا حقيقة رسالة الإسلام. وفي هذه العملية، فمن المهم أن يتمسك المسلمون جيدًا بأساس تاريخهم، لاستخراج العبر والدروس، ودراسة استمرارها وكمونها، وتحليلها بصورة انتقادية. إن التاريخ يعلمنا، لكن ليس بالضرورة أنه يملي علينا أفعالنا. فمن الممكن عن طريق التحليل الفعّال أن تنتج كمية ضخمة من الحكمة في التعامل مع المستقبل، ولكنها تبقى ثابتة لا تتحرك في هذه اللحظة، تتمسك بالمثالية الأسطورية للماضي، حيث الأمان بالقوانين الجامدة أو الأنظمة، مع استمرارية وجود الرفض للتغيير بسبب القلق والخوف عما سيحمله المستقبل لنا من المجهول. إن هذا القلق والخوف هو الذي يتغلغل بكثرة فيما يؤمن به وما يفعله المتشددون، فقد جعلتهم الحداثة

غير مستقرين، ولقد تجاوبوا مع هذا التغير والاهتزاز بطرق مختلفة، وأكثر هذه الطرق قبيح ومدمر.

بالنسبة لأولئك المسلمين الذين يرفضون أن يلحقوا بالإسلام مثل تلك الأفعال القبيحة وغير الإنسانية والهدامة التي شهدناها مؤخرًا، فأنا أعتقد أنهم قاموا بعمل الاختيار، فالمشكلة كما تم الإشارة إليها مسبقاً هي أن المتشددين عدوانيون وحماسيون ولهم صوت ويتم تمويلهم جيدًا، أما بالنسبة للمسلمين المعتدلين أو أولئك المسلمين الذين يميلون إلى الاتجاه المعتدل، فليس أمامهم خيار سوى أن يكونوا عدائيين وحماسيين وذوي صوت عالٍ في تمثيل ما نؤمن بأنه الإسلام الصحيح والحق. إن المتشددين يتحدثون بصوت عالٍ مصحوبًا بأعمال عنف، بينما المعتدلون يتحتم عليهم أن يتحدثوا بصوت أكثر ارتفاعًا مصحوبًا بأعمال سليمة. فعلى سبيل المثال، يتوجب على المعتدلين أن ينخرطوا في عادة عمل مظاهرات تستنكر عنف المتشددين. فالمتشددون يملأون الأسواق بأدبهم المطبوع بشكل جذّاب لكنه رخيص الثمن، ولذلك يجب أن يكون هناك عشرة كتب معتدلة لقاء كل كتاب متشدد. ولقد قام المتشددون بإنشاء أعداد هائلة من المراكز والندوات لنشر وتعزيز فكرهم، لذا يجب على المعتدلين أن يقوموا بعمل نفس الشئ بحيث تصبح عادة. ويكفي أن نقول أنه قبل السبعينيات كان يوجد مايقرب من خمس معاهد تركز على تقديم منح معتدلة مثل المعهد الذي قام "فاذلر رحمن" بتأسيسه في باكستان، بينما اليوم لا يوجد أي معهد.

إن المتشددين قادرون على عمل كل ذلك لسببين: فهم لديهم المال ولديهم مفهوم الجهاد حول نشر العقيدة والفكر، فهم يتعاملون مع نشر دينهم على أنه كفاح مقدس، لذا فهم يقدمون ذلك بحماس لا يلين، أمّا المعتدلون فهم يفتقدون هذين العنصرين.

لقد ذكرت مسبقـــاً أن جميع الجامعات والندوات الاسلامية كانت تقام في فترة ما قبل العصر الحديث بواسطة منح خاصة على شكل وقف، فالمسلمون المعتدلون ليست لديهم فرصة حقيقية في تحقيق النصر إلا إذا أحبوا تلك العادة الخيرية، ويجب عليهم أن ينفقوا بسخاء على نشر الإسلام المعتدل، ويجب أن يقوموا بفعل ذلك بحس الجهاد. لقد حان الوقت كي يدرك المسلمون المعتدلون أنهم في حالة حرب مع المسلمين المتشددين، ويجب أن يستمد المسلمون المعتدلون قوتهم من إيمانهم بأن دافعهم مقدس ومن السماء، فبينما يستخدم المتشددون الجهاد العنيف ليكسبوا هذه الحرب، يجب على المعتدلين أن يتحلوا بأعلى مراتب جهاد المسلمين، وإن لم يدرك المسلمون المعتدلون أنهم في حالة جهاد فكري تتصل بمستقبل الإسلام، فلن يستطيعوا مواكبة حماس المتشددين المنقطع النظير.

ولإنقاذ روح وسمعة الإسلام، كان عند المعتدلين التزام ثنائي / مزدوج:

الأول هو أنهم لابد أن يصبحوا متعلمين مثقفين في علوم الإسلام والشريعة على قدر استطاعتهم. وبذلك فقط يصبح عندهم القوة الحقيقية لتعريف الإسلام.

والثاني يجب عليهم أن يعتبروا أنفسهم في حالة جهاد من أجل الدفاع عن دينهم والوقوف ضد هجمات المتشددين الضارة ضد الدين الإسلامي. ومن أجل تحقيق هذا الانتصار في هذه الحرب الفعلية، كان واجبًا على المعتدلين أن يجاهدوا ضد الهرطقة التشددية، فهذا لم يكن نداءً لإراقة الدماء، ولكنه نداء للوقوف ضد المتشددين.

وقد كان هذا الجهاد يطالب باسترداد حقيقة الدين الإسلامي الفوز بعقول وقلوب المسلمين وغير المسلمين في العالم أجمع.

أما بالنسبة لغير المسلمين، فماذا عليهم أن يفعلوا؟. أولاً: يجب عليهم التعلم والفهم؛ لأن ما ساعد المتشددين ما هو إلا الجهل وكراهية وحقد

الغرب. وكما شرح من قبل، إن أسلوب المتشددين اعتمد على احتقار الأمم الغربية للإسلام ورغبتهم في تدميره. وفي الواقع، فإن كل كتاب نشر في الغرب يصور حقد وكراهية الغرب تجاه المسلمين قد ترجم إلى العربية. وقد اقتبس المتشددون بعض نماذج الكراهية لتدعيم نظريتهم. إنه ليس من المبالغة أن نقول إن النصوص التي كتبت في الغرب والتي تتناول كراهية الإسلام كانت سلاحًا للمتشددين. علاوة على ذلك، فإن الكتابات الغربية أبدت نظرية ثنائية للعالم وهي التصادم بين المسيحيين من ناحية والعقيدة الاسلامية من ناحية أخرى، مؤكدة أن وجهة نظر المتشددين أفادت في الدعاية ونشر إشاعاتهم.

ومما لاشك فيه أن أعداء الإسلام وهؤلاء الذين يعانون من فوبيا الإسلام لن يستمروا في كتابة مثل تلك الحماقات، ولكن يمكن لغير المسلمين المعتدلين أن يسهموا من خلال عدم شراء تلك الكتب مما سيشكل عقبة أمام الناشرين البارزين كي ينشروا تلك المواد التي ينتج عنها بالضرورة تلك الرؤية الكريهة الخاصة بالمتشددين. وفي نفس الوقت من المهم أن يدعم غير المسلمين أعمال المسلمين المعتدلين من خلال شرائها ونشرها، وتلك هي الطريقة الوحيدة التي يستطيع من خلالها غير المسلمين أن يسهموا في التغلب على مصادر المتشددين المالية الهائلة، فلو قام غير المسلمين بشراء الأدب الإسلامي المعتدل وقراءته، فهم لن يساعدوا في التغلب على مشكلة التمويل المهدد للمسلمين المعتدلين فحسب، بل سيجدون أيضًا مساحة مشتركة بينهم وبين المسلمين المعتدلين التي يمكن أن يبنوا عليها شراكة بينهما من شأنها أن تعزز الخير والورع على كوكب الأرض.

بالإضافة إلى ذلك، فإنني أعتقد أنه لزامًا على المواطنين الذين يعيشون في ديمقراطيات غربية أن يمارسوا ضغوطًا على حكوماتهم كي تتوقف عن تقديم الدعم لأي دولة سواء كانت مصر أو سوريا أو المملكة العربية أو

تونس أو إسرائيل أو أي دولة أخرى تستخدم تعذيبًا، فممارسة التعذيب عامل مهم وفعّال لتفريخ المتشددين.

ومما لاشك فيه أيضًا أن وضع نهاية سريعة لاحتلال العراق وإيجاد حل عادل ومنصف للقضية الفلسطينية سيساعدان على تجفيف مصادر الإمداد البشري للمتشددين. فكل التوصيات التي قمت بتقديمها ترتكز على حسي العملي حول ما سيساعد في جعل اليد العليا للمعتدلين في صراعهم حول روح الإسلام وليست الحسابات العملية هي ما أعتمد عليه كرجل دين، فإنني أعتمد على الدين في تحليلي الأخير، فأنا أؤمن – كما يعلمنا القرآن – بأن الإسلام رحمة للبشرية جميعًا، فصفة المسلم هي الاعتدال، لذا فإن الإسلام والمسلمين هما الوسيلتان اللتان يجب أن يرى الناس رحمة الله وعطفه من خلالهما، وبما أن القيمتين الأساسيتين للإسلام هما الرحمة والاعتدال، وبما أن تلك القيمتين راسختين في قلوب أغلب المسلمين، إذن فلن يكون هناك مكان للتطرف، ويمكن للورع الذي هو هدف مشترك للبشرية جميعها أن يتحقق وبشكل جاد ولا يوجد خيار آخر.

شكر وعرفان

في التراث الإسلامي يُقال إن المفكر النابغة هو حصاد آلاف السنين، وعلى أية حال، فإن الأمر يتطلب أكثر من مفكر واحد لإصدار وطبع مثل هذا الكتاب، ولهذا فأنا لدي العديد من الأشخاص الذين أود أن أوجه لهم الشكر والعرفان.

أود أن أشكر والدي "مدحت أبو الفضل" و"عفاف النمر"، أول معلمان لي، واللذان علّماني أهمية التعلم والمعرفة، وبالمثل الاعتدال والاتزان. وأدين بالفضل لزوجتي "جريس" والتي كانت قد أفادتني في عمليتي القراءة والتحرير، وساعدتني في إكمال هذا الكتاب جنبًا إلى جنب مع المولود الجديد، ووالديها اللذان تكفلا برعايته. وأود أيضًا أن أشكر ابني "شريف" لقراءته وتعليقه على ماكتبت هنا. وأدين بالفضل لأخي "طارق" وعائلته التي وفرت لي الجو الهادئ والعون اللذين كنت في حاجة إليهما أثناء عملية الكتابة. وأتوجه بالشكر إلى مساعدي التنفيذيين "ناهد فاكور" و"عمر فاضل" لمساعدتهما ودعمهما لي اللذين لا يقدران بثمن، كما أنني أدين بالفضل إلى "محمد فريد" وإيمانه بعلمي ودعمه الفياض والمستمر لي. وأتوجه كذلك بالشكر الخاص إلى "ليسلي كارستين دينيكولا" على صداقتها وتقديمها إياي لمجموعة من المحررين الممتازين، وفريق العمل في " هاربرسان فرانسيسكو". وإنني أشعر بأنني حقـاً محظوظ لعملي مع "ستيف هانسلمان" و"جيدون ويل" و"آن كونوللى" و"ميكي براساوا" في "هاربر". وأقدم شكرًا خاصًا للدعم الهائل الذي قدمته لي كلية الحقوق بجامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس، وخاصة عميد الكلية "مايكل سكيل" ومساعد العميد "آن كارلسون"، وذلك لصداقتهما ودعمهما المستمر لي. وكذلك أتقدم بالشكر إلى " فاروخ راشيد" و"سعيد ميرزا" و"ربيع شذري" لأنهم أخذوا على عاتقهم المهمة الشاقة لتحضير فهرس هذه النسخة.

وأخيرا أود أن أشكر الناس الكثيرين الذين اتصلوا بي على مر السنين لطلب المساعدة في فهم الاختلافات بين المفاهيم الإسلامية حول الاعتدال والتطرف، حيث إن سعيهم في البحث عن الإسلام الحقيقي المعتدل هو ما ألهمني لكتابة هذا الكتاب. وأتمنى أن أكون قد أسهمت ولو بشكل ضئيل في تقديم صورة واضحة لما تعلمت أن الإسلام الصحيح هو إسلام الاعتدال.

تقبل الله منا ومنكم صالح الأعمال.

Notes

Introduction

1 Peter G. Riddle and Peter Cotterell, Islam in Context: Past, Present, and Future (Grand Rapids, MI: Baker Academics, 2003), have two chapters on the radical and moderate Islamist worldviews, 164 -94.

CHAPTER 1: ISLAM TORN BETWEEN EXTREMISM AND ODERATION

1 Ralph Ketcham, The Idea of Democracy in the Modern Era (Lawrence, KS: University Press of Kansas, 25004), 30-39.

CHAPTER 2: THE ROOTS OF THE PROPLEM

1 See Gray R. Bunt, Islam in the Digital Age: E-Jihad, Online Fatwas and Cyber Islamic Environment (London: Pluto Press, 2003), 124-80.

2 On the interesting historical phenomenon when Shi'i jurists in Sunni seminaries and law, see Devin Stewart, Islamic Legal Orthodoxy: Twelve Shiite Responses to the Sunni Legal System (Salt Lake City: University of Utah Press, 1998).

3 For description of the disintegration of the Shari 'a, see Wael Hallaq, "Can the Shari 'a Be Restored?" in Islamic Law and the Challengers of Modernity, ed. Yvonne Haddad and Barbra Stowasser (Lanham, MD: Rowman and Littlefield, 2004), 21-53.

4 The best sources on the reformists of this period remain: Albert Hourani, Arabic Thought in the Liberal Age 1798-1939 (Cambridge: Cambridge University Press, 1983) and Daniel Brown, Rethinking Tradition in Modern Islamic Thought (Cambridge: University Press, 1999).

5 For the studies on the thought of the moderates, see John Cooper, Ronald Nettler, and Mohamed Mahmoud, eds., Islam and Modernity: Muslim Intellectuals Responds (New Yourk: I.B. Tauris, 2000); Omid Safi, ed., Progressive Muslims (Oxford: Oneworld Press, 2004). For those interested reading excerpts from the original sources written by moderate Muslims, see Charles Kurzman, ed. and trans., Liberal Islam: A Source Book (Oxford: Oxford University Press, 1998).

6On many occasions I give two dates: the first date is according to the Islamic Era and the second is according to Common Era. The Islamic calendar, which commenced from the year which the Prophet migrated from Mecca to Medina, relies on the lunar year.

7 See Yusuf bin Ahmed al-Dijjawi, "al-hukm 'ala al-muslimin bi'l kufr." Nurr al-Islam (also known as Majallat al-Azhar: The Azhar University Journal) 1, no. 4 (1933): 173-74.

8 Muhammad Ibn Qayyim, A'lam al-Muwaqqi'in (Beirut: Dar al-Jil, n.d.), 3:3.

9 Said K. Aburish.Nasser: The last Arab (New York: Thomas Dunne Books, 2004), 141. Arab secularists such as the sited author, often recognize Nasser's interferences with Azhar University, which led to extensive changes and also to the organizational restructuring of the thousand-year-old seminary. But they believe that these interferences led to necessary reforms. In reality, these interferences completely undermined the authority and the credibility of Azhar University.

Chapter 3: THE EARLY PURITANS

1 Several writers have notices the literalist and extremist nature of 'Abd al Wahhab's writings. For instance, see Hamid Alger, Wahhabism: A Critical Essay (Oneonta, NY: Islamic Publications International, 2002); Henry Bayman, The Secret of Islam: Love and Law in the Religious Ethics (Berkeley: North Atlantic Books, 2003). Recently, an apologetic work has tried to defend the founder of Wahhabism against the charges of rigidity, literalism, and extremism: see Natana Delong-Bas, Wahhabi Islam: From Revival and reform to Global Jihad (Oxford: Oxford University Press, 2004). This is not the place to discuss the glaring omissions, mistakes, and misrepresentation that plague this book. I would be remiss, however, not to note my strong disagreement with most of what is printed in this curious work.

2 Amin al-Rihani, Tarikh Najd wa Mulhaqatih (Beirut: Dar al- Rihani, 1973): 35-36.

3 The connection between Wahhabism and Bedouin life is clear in a work like John Lewis Burckhardt, al-Badwa wa al-Wahhabiyya {Notes on the Bedouins and Wahhabis}, trans. Muhammad al-Asyuti(Beirut: Dar Swidan, 1995), hereinafter Burckhardt, Notes; al-Sayyid Muhammad al-Kuthayri, al-Salafiyaa bayn Ahl al-Sunna wa al-'Imamiyya (Beirut: al-Ghadir li'l Tiba'a,1997), 509, discusses the connections between Bedouin life and Wahhabism, and describes Wahhabism as a Bedouin creed.

4. The massacre of Muslim jurists by Wahhabis is described in Ibrahim al-Rawi al-Risa'I, Risalat al-'Awraq al-Baghdadiyya fi al-Hawadith al-Najdiyya (Baghdad: Matba'at al-Najah, 1927): 3-4.

5. 'Abd al-Wahhab, " al-Risalah al-Ula," in majmu'at al-Tawhid (Damascus: al-Maktab al-Islami, 1962), 34-35; 'Abd al-Wahhab, " Kashf al-Shubunhat: al-Risalah al-Thalitha," in Majmu'at al-Tawhid, 104; also see ' Abd al-Wahhab, "Bayan al-Najah wa al-Fakak: al-Risalah al-Thaniya 'Ashra" (collected by Hamad al-Najdi), in Majmu'at al-Tawhid, 356-57.

6. 'Abd al-Wahhab, " al-Risalah al-Thaniya," in Majmu'at al-Tawhid, 4-6;'Abd al-Wahhab, "Asbab Najat al-Sul: al-Risalah Thamina," in Majmu'at al-Tawhid, 208-12,'Abd al-Wahhab, "Bayan al-Najah wa al-Fakak: al-Risalah al-Thaniya 'Ashra,"(collected by Hamad al-Najadi), in Majmu'at al-Tawhid, 382-83; 'Abd al-Wahhab, "Bayan al-Mahajja: al-Risalah al-Thalitha 'Ashra," in Majmu'at al Tawhid, 453.

7. See the treatise written by Muhammad b. 'Abd al-Wahhab's son, who was a devout follower of his father: 'Abd al-Wahhab, "Bayan al-Mahajja: al-Thalitha 'Ashra," in Majmu'at al-Tawhid, 466-93.

8. For an example of a list containing acts the commission of which would make a Muslim an infidel, see 'Abd al-Wahhab, "Bayan alNajah wa al-Fakak min Murtaddin wa Ahl al-Shirk: al-Risalah al-Thaniya 'Ashra"(collected by Hamad b.'Atiq al-Najdi), in Majmu'at al-Tawhid, 413-16. Also seeAziz Al-Azmeh, Mohammad Bin Abdel-Wahhab (Beirut: Riad El-Rayyes Books, 2000), 77-89.

9. In the Islamic faith, the belief in the Trinity is a form of associating partners with God.

10 See 'Abd al-Wahhab, "al-Risalah al-Ula," in Majmu'at al-Tawhid 30-31,68; 'Abd al-Wahhab, "Bayan al-Najah wa al-Fakak: al-Risalah al-Thaniya 'Ashra" (collected by Hamad al-Najdi), in Majmu'at al-Tawhid. 394, 400, 421-23, 433.

11. See 'Abd al-Wahhab, "al-Risalah al-Ula," in Majmu'at al-Tawhid, 30-31,68; "Bayan al-Najah wa al-Fakak: al-Risalah al-Thanyia 'Ashra" (collected by Hamad

al-Najdi),in Majmu'at al-tawhid, 394, 400, 421-23, 433, Also see 'Abd al-Wahhab, Mu'allafat al-Shaykh al-Imam Muhammad bin 'Abd al-Wahhab, (Riyadh: al-Maktaba al-Su'udiyya, n.d.), 1:281-310.
12. "Abd al-Wahhab, Mu'allafat al-Shykh al-Imam Muhammad bin 'Abd al-Wahhab (Riyadh: al-Maktaba al- Su'udiyya, n.d.),1:312-29.
13. Muhammad bin 'Abd al-Wahhab, "Awthaq al-'Ura: al-Risalah al-Sadisa," in Majmu'at al-tawhid, 171.
14. See Sayyid Qutb, Milestones on the Road (Bloomington, IN: American Trust Publications, 1991); Ahmed S. Mousalli, Radical Islamic Fundamentalism: The Ideological and Political Discourse of Sayyid Qutb)Syracuse University Press, 1993).
15. 'Abd al-Wahhab, ; "Bayan al-Najah wa al-Fakak: al-Risalah al-Thanyia 'Ashra" (collected by Hamad al-Najdi),in Majmu'at al-tawhid, 375, 412.
16. For instance, this is obvious in the Saudi-sanctioned history of the Wahhabi movement: Munir al-'Ujlani, Tarikh al-Bilad al-'Arabiyya al-Su'udiyya- the copy available to me does not provide a puplisher or place and date of publication.
17. Al-Rihani, Tarikh Najd, 229-43. Hamid Algar, Wahhabism, 17-40, argues that the claim that the Wahhabis were inspired by Arab nationalism was on the rise in the nineteenth century.
18. Several Shi'i scholars have noticed the inconsistencies of Wahhabism and written treatises on the subject, but very few Sunni scholars have done the same. One very notable example is Muhammad al-Ghazali in his al-Sunnah al-Nabawiyya Bayn Ahl al-fiqh wa Ahl al-Hadith (Cairo: Dar al-Shuruq, 1989). In this book , al-Ghazali, a prominent Egyptian jurist, spoke about a Bedouin form of Islam that was camouflaging itself as the only true form of Islam and was threatening to take over the Muslim world. For political reasons, al-Ghazali did not explicitly mention Wahhabi Islam. Al-Ghazali is discussed in considerable detail later in this chapter.
19. The Najdi influence on Wahhabism is apparent in a pro-Wahhabi text such as Rashid Rida, ed., Majmu'at al-Hadith al-Najdiyya (Qatar: Matabi' al-Uruba, 1963). Also see Mohamed Al-Freih, "Historical Background of the Emergence of Muhammad Ibn 'Abd al-Wahhab and His movement" (Ph.D. diss., University of California at Los Angeles, 1990), on the tribal nature of Arabia and the competition between Hijaz and Najd, and 'Abd al-Wahhab's role in this competition; see esp. p.350.
20. In Sunni Islam, the expression "Rightly Guided Caliphs" refers to the four Companions who ruled the Muslim nation after the death of the Prophet Muhammad. In consecutive order they are: Abu Bakr (d. 13/634), 'Umar (d. 23/644), 'Uthman (d. 35/656), and 'Ali (d. 40/661)in addition, many Muslims consider the Umayyad Caliph 'Umar bin 'Abd al-Aziz (d.101/720) to be the fifth Rightly Guided Caliph, although he was not Companion of the Prophet. These leaders are referred to as the "Rightly Guided" as an expression of the deep respect and honor in which they are held. Sunni Muslims believe that these four caliphs were able to establish a just and equitable polity similar to the polity established by the Prophet in Medina.
21. See 'Abd al-Wahhab, "al-Risalah al-Ula," in Majmu'at al-Tawhid, 36, 70-72; "Kashf al-Shubuhat: al-Risalah al-Thalitha," in Majmu'at al-Tawhid, 117-18; 'Abd al-Wahhab, "Bayan alNajah wa al-Fakak:a'-Risalah al-Thanyia 'Ashra" (collected by Hamad al-Najdi), in Majmu'at al-Tawhid, 403-9. the same arguments by 'Abd al-Wahhab are collected in Husayn Ghannam, Tarikh Najd (Riyadh: Matabi' al-Safahat al-Dhabiyya, 1381):40-43.

22. On the Abu Bakr precedent and its historical origins, see Abou El Fadl, Rebellion and Violence in Islamic Law (Cambridge: Cambridge University Press, 2001), 34-61.
23. Among the cruel acts committed by the Wahhabis was the buttering of the children of Muslims whom they considered to be infidels. See al-Rifa'i, Risalat al-Awraq al-Baghdadiyya, 3.
24. Muhammad b. 'Abd Allah b. Humydi al-Najdi, al-suhab al-Wabila 'ala Dara'ih al-Hanabila (Beirut: Maktabat al-Imam Ahmed, 1989), 275. The same claims are made by al-Sayyid Ahmed bin Zini Dahlan, Khulasat al-Kalam fi Bayan 'Umara' al-Balad al-Haram (Cairo: Maktabat al-Kulliyyat al-Azhariyya, 1977): 229-30.
25. Sulyman b. 'Abd al-Wahhab, al-Sawa'iq al-Ilahiyya, 60-61, 120. Ibn Humaydi reports the stories of some jurists who were assassinated by the followers of 'Abd al-Wahhab; see Ibn Humaydi, al-Suhub al-wabila, 276-80, 402, 405.
26. Sulyman b. 'Abd al-Wahhab, al-Sawa'iq al-Ilahiyya, 9, 34-35. Dawud al-Musawi al-Baghdadi, Kitab Ashad al-Jihad fi Ibtal Daw'a al-Ijtihad (Cairo: al-Babi al-Hanbli, n.d.), 40-41, describes 'Abd al-Wahhab as an ill-educated man who empowered ignorant people to pontificate about Islamic law. On Muhammad b. 'Abd al-Wahhab education, see Michael Cook, "On the Origins of Wahhabism, " Journal of the Royal Asiatic Society 3, no. 2 (1992).
27. See, in support of his argument that 'Abd al-Wahhab's behavior was unprecedented, Sulayman b. 'Abd al-Wahhab, al-Sawa'iq al-Ilahiyya, 21, 25, 30-32, 38.
28. Sulyman b. 'Abd al-Wahhab, al-Sawa'iq al-Ilahiyya, 16, 72; Ibn Humaydi, al-Suhub al-Wabila, 275.
29. Addressing the Wahhabis, Sulyman states: "wa taj'alun mizan kufr al-nass mukhalafatakum wa mizan al-Islam muwafaqatakum" ("You [Wahhabis] make the measure of people's faith their agreement with you and the measure of their disbelief, their disagreement with you."). Sulyman b. 'Abd al-Wahhab, al-Sawa'iq al-Ilahiyya, 54; also see 14, 42.
30. Al-'Ujlani, Tarikh al-Bilad al-'Arabiyya al-Su'udiyya, vol. 1, pt. 2,279-81.
31. Dahlan, Khulasat al-Kalam, 230. thsipractice is vividly and painfully described in a letter signed in 1792 by a group of Shafi'i, Maliki, Hanafi, and Hanbli jurists to the Ottoman authorities pleading for help against Wahhabi atrocities. That letter is reproduced as the first of two historical documents in al-'Ujlani, Tarikh al-Bilad al-Su'udiyya, vol. 1, pt. 2, letters "dhal" to "Ghin."
32. See the treatise by the mufti of Mecca at the time Ahmed bin Zini Dahlan, al-Dawla al-'Uthmaniyya min Kitab al-Futuhat al-Islamiyya (Istanbul: Hakikat Kitabevi, 1986), 2: 229-40. For a description of the atrocities, also see Algar, Wahhabism, 24-26.
33. Sulyman bin 'Abd al-Wahhab, al-Sawa'iq al-Ilahiyya, 17-19, 62-64, 70-71, 74-75, 80-82, 92, 100-102, 110-12. For Rashid Rida's view on the merit of the first three centuries of Islam, see Muhammad Rashid Rida, Majallat al-Manar).Rida's assessment of the merits of the first three centuries was similar to 'Abd al-Wahhab.
34. Sulyman bin 'Abd al-Wahhab, al-Sawa'iq al-Ilahiyya, 48-49.
35. Sulyman bin 'Abd al-Wahhab, al-Sawa'iq al-Ilahiyya, 121-42.
36. Burckhardt, Notes, 250.
37. The treatise is reproduced in Husayn Ibn Ghannam, Rawdat al-Afkar wa al-Afham Li Murtad Hal al-Imam wa Ti'dad Dhwi al-Islam (Riyadh: al-Maktaba alAhliyya, 1949), 1:111-13.

38. Muhammad Amin Ibn 'Abidin, Hashiyat Radd al-Muhtar (Cairo: Mustafa al-Babi, 1966), 6:413; Ahmed al-Sawi, Hashiyat a'-"Allamah al-Sawi 'ala Tafsir al-Jalalayn (Beirut: Dar Ihya' al-Turah al-'Arabi, n.d.), 3:307-8. Also see Ahmed Dallal, "The Origins and Objectives of Islamic Revivalist Thoyght, 1750-1850," Journal of the American Oriental Society 113, no. 3 (1993("341-59; al-Rihani, Tarikh Najd, 43-44. The same accusation of being the Khawarij of modern Islam in made in Sulayman b. 'Abd al-Wahhab, al-Sawa'eq al-Ilahiyya, 10, 28, 50-51;Yusuf b. Ahmed al-Dijjawi, "Tawhid al-Rububiyya," Nurr al-Islam (also known as Majallat al-Azhar: The Azhar University Journal) 1,no. 4(1933):320-329; al-sayyid Muhammad al-Kuthayri, al-Salafiyya bayna Ahl al-Sunna wa al-'Imamiyya (Beirut: al-Ghadir li'l Tiba'a, 1997), 345-52.
39. See Dallal, "The Origins and Objectives of Islamic Revivalist Thoyght, 1750-1850," 341-59.
40. D. Van der Meulen, The Wells of Ibn Sa'ud (London: Kegan Paul International Publications, 2000), 35-36.
41. Al-Freih, "Historical Background," 339-51.
42. On the saga of British involvement in Arabia and British support of Al Sau'd, see Efram Karsh and Inari Karsh, Empires of Sand: The Struggle for Mastery in the Middle East, 1789-1923 (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1999), esp. pp. 171-98.
43. On the intimate alliance between Al Sa'ud and the British, see Algar, Wahhabism, 37-45; James Wynbrandt, A Brief History of Saudi Arabia (New York: Checkmark Books, 2004), 176-93: and Nasir al-Faraj, Qiyam al-'Arsh al-Su'udi:Dirasa Tarikhiyya li'l-'Ilaqat al-Su'udiyya al-Britaniyya (London: Al-Safa Publishers, n.d.).
44. Greald de Gaury, Rulers of Mecca (London: Harrap, 1951), 275. The author argues that Ibn Sa'ud alliance with Wahhabis was forged out of conviction.
45. On the destruction of the intellectual diversity in the two holy sites, see Algar, Wahhabism, 44.
46. On the atrocities committed in Karbala, see Algar, Wahhabism, 24.
47. For heart-wrenching description of the Wahhabi atrocities committed in Karbala and other places, see al-Sayyid Muhammad al-kuthayri, al-Salafiyya bayn Ahl al-Sunna wa al-'Imamiyya (Beirut: al-Ghadir Li'l Tiba'a ,1997), 327-39.
48. Ahmed bin Zini Dahlan, Futuhat al-Islamiyya ba'd Mudiy al-Futuhat al-Nabawiyya (Beirut: Dar Sadir, 1997), 2:234-45. Algar Wahhabism, 42; Van der Meulen, The Wells of Ibn Sa'ud, 33-34; Geoff Simons, Saudi Arabia: The Shape of a Client Feudlism (Palgrave, Uk: Macmillan, 1998), 151-73. For historical surveys on these and subsequent events, see Joseph Kostiner, The Making of Saudi Arabia:from Chieftaincy to Monarchical State (Oxford: Oxford University Press,1993), 62-70, 100-117; Joseph A.Kechichian, Succession in Saudi Arabia (New York: Palgrave Press, 2001), 161-68; Richard Harlakenden Sanger, The Arabian Peninsula (Freeport, NY: Books for Libraries Press, 1954) 17-35.
49. Van der Meulen, The Wells of Ibn Sa'ud, 65-68; Kostiner, The Making of Saudi Arabia, 117-40; Wynbrandt, Saudi Arabia, 184-86.
50. Alga, Wahhabism, 39.
51. Simon, Saudi Arabia, 152-59; Kostiner, The Making of Saudi Arabia 119;van der Meullen, The wells of Ibn Sa'ad, 62- 113.
52. Algar Wahhabism, 43. For a detailed accounting of the destruction of historical sites by the Wahhabis see, Yusuf al-Hajiri, al-Baqi'Qisat Tadmir Al Sa'ud li'l-Athar

al-Islamiryya bi'l-Hijaz (Beirut: Mu'assasat al-Baqi',1990). Burckhardt,Notes, 244-50; al-Sayyid Muhammad al-Kuthayri, al-Salafiyya bayn Ahl al-Sunna wa al-'Imamiyya (Beirut: al-Ghadir li'l Tiba'a,1997), 331.
53. Algar, Wahhabism,25-28.
54. Al-Rihani,Tarkish Najd,38-39.
55. Burckhardt, Notes, 224.
56. See, on these events and others, Michael Cook, Commanding Right and Forbidding Wrong, 180-91; Van der Meulen, The wells of Ibn Sa'ud, 104-13. Reportedly, the Egyptian media severely criricized the Wahhabis over this incident; see Rida, al-Manar, 27: 463-68.
57. Al-Rihani, Tarkish Najd,39.
58. De Gaury, Rules of Mecca, 276.
59. On the aggressive policies of Saudia Arabia in spreading the Wahhabi creed in the Muslim world, see Nabil Muhammad Rashwan, al-Islam al-Su'udi Dur al-Su'udiyyin fi Ifsad Din al-Muslimin. Rather tellingly, no place,date of publication, or publisher's name is given.
60. Aburish, Nasser, 162, 256 -57, 303.
61. On this process, and on the use of talfiq and maslaha in modern Islam, see Noel Coulson, A History of Islamic Law (Scotland: Edinburgh University Press, 1994), 197-217. Also see Rida al-Manar, 17:372-84.
62. For a critical and similary grim assessment by a Muslim intellectual of the impact of apologetics upon Muslim culture, see Tariq Ramadan, Islam, the West and the Challenges of Modernity, trans, Said Amghar (Markfield, UK: Islamic Foundation, 2001), 286-90. For an insightful analysis of the role of apologetics in modern Islam, see Wilfred Cantwell Smith, Islam in Modern History (Princeton: Princeton University Press, 1977).
63. For an example of this apologetic literature, see Muhammad Qutb, Islam: The Misunderstood Religion (Chicago: Kazi Publication, 1980). For a valuable discussion of Islamic apologetics and its impact, see Smith, Islam in modern History.
64. Olivier Roy, Globalized Islam: The Search for A New Ummah (New York: Columbia University Press, 2004), 232-57. The author notes the convergence between Salafism and Wahhabism as well.
65. The influence of fascist theory upon Qutb has been noted by other writers. See Roxanne L. Euben, Enemy in the Mirror: Islamic Fundamentalism and the Limits of Modern Rationalism (Princeton: Princeton University Press, 1999), 199, n.181; Aziz Al-Azmeh, Islam and modernities (London: Verso Press, 1996), 77-101. On Qutb see Ahmed S. Mousalli, Radical Islamic fundamentalism: the Ideological and Political Discourse of Sayyid Qutb (Lebanon: American University of Beirut, 1992).
66. Hasan al-Hudaybi's book is titled Du'a la Quda] Counsels Not Judges] (Cairo: Dar al-Fikr al-Arabi), 1965.
67. The same fate met the work of the liberal Salafi Hasan Ashmawi, Qutb Akhar min Agl al-Za'im [Another Heart of the Leader], which was published in 1970 but largely ignored.
68. See Johannes Jansen, The Neglected Duty: The Creed of Sadat's Assassins and Islamic Resurgence in the Middle East (New York: Macmillan, 1986).
69. Emmanuel Sivan, Radical Islam: Medieval Theology and Modern Politics (New Haven: Yale University Press, 1985), 21-22.

70. Gilles Kepel, Muslim Extremism in Egypt: The Prophet and Pharaoh, trans. Jon Rothschild (Los Angeles: University of California Press, 1984), 203-4.
71. Olivier Roy, Globalized Islam: the Search for a New Ummah (New York: Columbia University Pres, 2004), 250, notes the fact that Islamic militants criticized and condemned Qutb.
72. He rejected the four schools of Jurisprudence, and also rejected all plurality of opinions in the Islamic juristic tradition. Shukri Mustafa considered most of Islamic history a corrupt aberration and, therefore, he asserted that it is necessary to return to the original sources of Islam (Qur'an and sunna), and reinterpret their meaning. But as was the case with 'Abd al-Wahhab, he insisted on his individual right to read the Qur'an and Sunna literally and to establish conclusively the meaning of those texts. In a way that is reminiscent of 'Abd al-wahhab's approach, as far as Shukri Mustafa was concerned, his groups' reading and understanding of the text was decisive, and anyone who disagreed with their understanding was a heretic and apostate. According to Shukri and Faraj, the saved group -the group of true believers- must wage an unrelenting war against all vestiges of jahiliyya wherever they may exist [Gilles Kepel, jihad: The Trial of Political Islam(Cambridge: Harvard University Press, 2202), 85; david Sagiv, Foundationalism and Intellectuals in Egypt 1973-1993 (London: Frank Cass, 1995), 47-49; Johannes J. G. Jansen, The Dual Nature of Islamic Fundamentalism (Ithaca, NY: Vornell University Press, 197), 76-80]. Practically identical to Wahhabi theology, both Shukri and Faraj believed that all Muslims, other than their own followers, are mushrikin (polytheists) and it is not only permissible but obligatory to wage warfare against them, that the men ought to be killed, that women and children ought to be killed or enslaved, and that their properties have no sanctity. However, the historical context did not favor the plans of military conquest of people like Shukri and Faraj. They could not imitate the violent exploits of 'Abd al-Wahhab because, like their counterparts in many Muslim countries, they clashed with powerful states that crushed them.
73. For one of the rare books by Sunni author arguing that Wahhabism is fundamentally inconsistent with the Salafi creed, see Ahmad Mahmud Subhi, Hal Yu'ad al-Madhhab al-Wahhabi Salafiyyan (Alexandria: Dar al-Wafa', 2004).
74. On the Saudi control over the Hajj and its effect see David Long, The Kingdom of Saudi Arabia (Tampa, FL: University Press of Florida, 1997), 93-106.
75. For a description of the efforts made by the Saudi government to propagate Wahhabism around the globe see Stephen Schwartz, The Two Faces of Islam: The House of S'ud from Tradition to Terror (New York: Doubleday: 2002),181-225; Dore Gold, Hatred's Kingdom (Washington:, DC: Regnery Publishing Inc., 2003); Algar, Wahhabism, 49-66.For the propagation of Wahhabi thoughts in the United States see Freedom House Report, Saudi Publications on Hate Ideology Fill American Mosques (Washington, DC: Center for Religious Freedom, 2005).
76. For examples of such works, see Muhammad Fathy Osman, al-Salafiyya fi al-Mujtama'at al-Mu'asira [Salafis in Modern Societies] (Kuwait: Dar al-Qalam,1981). The authir equates the Wahhabis and the Salafis and also engages in lengthy and unequivocal praise of 'Abd al-Wahhab and his movement; see esp. pp. 31-87. Interestingly, the author was a professor in Saudi Arabia when he wrote the book. Another unabashed defense of the Wahhabi movement by a liberal scholar is Muhammad Jalal Kishk, al-Sa'udiyyun wa al-Hall al-Islami [The Saudis and the Islamic Solution] (West Hanover, MA: Halliday, 1981). This book, however, is a bit

more balanced than Osman's work. Interestingly Kishk was the recipient of the influential King Faysal award. An Arabic book published in London critically analyzed and illustrated the many uncomfortable facts about Wahhabism that Kishk's book conveniently ignored. See Khalifa Fahd, Jahim al-Hukm al-Sa'udi wa Niran al-Wahhabiyya (London:al-Safa Publishing, 1991). As the author demonstrates, many Muslim and non-Muslim writers from the Muslim and non-Muslim world were handsomely rewarded for writing pro-Wahhabi texts.

77. On Ahl al-Hadith, see Khaled Abou El Fadl, Speaking in God's Name: Islamic Law, Authority, and Women (Oxford: Oneworld Publications, 2001), 114; Khaled Abou_El Fadel, And GPod knows the Soldiers: The Authoritative and Authoritarian in Islamic Discourse (Lanham, MD: University Press of America, 2001), 48, 78.

78. Muhammad al-Ghazali, al-Sunnah al-Nabawiyaa Bayn Ahl al-Fiqh wa Ahl al-Hadith (Cairo: Dar al-Shuruq, 1989).

79. Manaqib Abu Hanifa, 350.

80. On the selective citing of hadith by Wahhabis to support idiosyncratic positions see al-Sayyid Muhammad al-Kuthayri, al-Salafiyya bayn Ahl al-Sunna wa al-'Imamiyya (Beirut: al-Ghadir li'l Tiba'a, 1997), 477-79.

81. Muhammad bin 'Abd Allah al-Salman, Rashid Rida wa Da'wat al-Shaykh Muhammad bin 'Abd al-Wahhab (Kuwait: Maktabat al-Ma'alla, 1988).

82. For example, the fatawa of Rashid Rida were collected and published in six volumes in 1970 by a publisher known as Dar al-Jil. Saudi Arabia compensated Dar al-Jil so that it would hold on to the copyright but not distribute or sell the book. I located a copy of the six volumes sold in Egypt. The market value of the volumes was four thousand dollars, which is an exorbitant price in the Egyptian market.

83. The first poem praising 'Abd al-Wahhab and the second poem condemning him are printed in al-Imam Muhammad bin Isma'il al-Amir al-Husayni al-San'ani, Diwan al-Amir al-San'ani (Beirut: Dar al-Tanwir, 1986), 166, 173.

84. The following is a partial list of books attacking al-Ghazali: Muhammad Jalal Kishk, Al-Shaykh al-Ghazali bayn al-Naqd al-'Atib wa al-Madh al-Shamit (Cairo: Maktabat al-Turath Islami, 1990); Ashraf bin Ibn al-Maqsud bin 'Abd al-Rahim,Jinayat al-Shaykh al-Ghazali 'ala al-Hadith wa Ahlihi(al-Isma'iliyya, Egypt: Maktabat al-Bukhari, 1989); Jamal Sultan, Azmat al-Hiwar al-Dini : Naqd Kitab al-Sunnah al-Nabawiyya bayn ahl al-Fiqh wa Ahl al-Hadith (Cairo: Dar al-safa, 1990); Salman bin Fahd 'Uwda, Fi Hiwar Hadi' ma'a Muhammad al-Ghazali (Riyadh: n.p., 1989); Rabi' bin Hadi Madkhali, Kash Mawqif al-Ghazali min al-Sunna wa Ahliha wa Naqd Ba'd Ara'ihi(Cairo: Maktabat al-Sunna, 1410);Muhammad Salamah Jabr, Al-Radd al-Qawim 'ala man Janab al-Haqq al-Mubin (Kuwait: Maktabat al-Sahwa al-Islamiyya, 1992), esp. 100-108. Also see Abu 'Ubaydah, Kutub Hadhahar minha al-'Ulama', 1:214-28, 327-2

85. For example, at the time of the controversy, even the influential Egyptian jurist Yusuf al-Qaradawi, who was al-Ghazali's colleague and friend, remained conspicuously silent; but a few years after al-Ghazali died, he wrote two books, one about al-Ghazali'a life and the other about the controversy. In both books, he defended al-Ghazali's piety and knowledge, but he stopped short of criticizing the Wahhabis; see Yusuf al-Qaradawi, al-Imam al-Ghazali bayn Madihih wa Naqidih (Beirut: Mu'assasat al-Risalah, 1994); Yusuf al-Qaradawi, al-Shaykh al-Ghazali kama 'Araftuh: Rihlat Nisf Qarn (Cairo: Dar al-Shuruq, 1994).

CHAPTER 4: THE STORY OF CONTEMPORARY PURITANS

1. My two books And God knows the Soldiers and speaking in God's Name are primarily concerned with this phenomenon.
2. On the humanistic legacy of the Islamic civilization, see Lenn E. Goodman, Islamic Humanism (Oxford : Oxford University Press, 2003) George Makdisi, The Rise of Humanism in Classical Islam and the Christian West (Edinburgh: Edinburgh University Press, 1990); Marcel Boisard, Humanism in Islam (Bloomington, IN: American Trust Publications, 1987).
3. I have already mentioned the early puritanical creed of the Khawarij (literally, the secessionists), who in the first century of Islam slaughtered a large number of Muslims and non-Muslims and were responsible for the assassination of the Prophet's cousin and Companion, the Caliph 'Ali bin Abi Talib. As noted earlier, the desendants of the Khawarij exist today in Oman and Algeria, but after centuries of bloodshed, they became moderates, if not pacifists.

CHAPTER 5: WHAT ALL MUSLIMS AGREE UPON

1. Qur'an 29:46.
2. Qur'an 2: 285.
3. Qur'an 3:84.
4. Qur'an 42:13.
5. As Discussed later, many Muslims believe that the highest and most true form of submission is love.
6. The most comprehensive study on the subject in the English language is by Michael Cook, Commanding Right and Forbidding Wrong in Islamic Thought (Cambridge: Cambridge University Press, 1997). For an abridged study on the topic, see Michael Cook, Forbidding the Wrong in Islam: An Introduction (Cambridge: Cambridge University Press, 2003).

Chapter 6: GOD AND THE PURPOSE OF CREATION

1. Most of these attributes are mentioned in the Qur'an, and they are known as the names of God (asma' Allah al-husna).
2. Somewhat inconsistently, puritans agree that on a few issues or on a narrow set of points, the Shari'a need not be precise and clear, and on those particular issues or points Muslims may legitimately disagree with each other. I will discuss this point further in the chapter on law.
3. For instance, see Qur'an 2:27; 2:205; 5:32.
4. Qur'an 2:27.
5. Qur'an 2:195; 2:222; 3: 76; 3:134; 3:146; 3:159; 5:13; 5:42;9:108; 49:9; 60:8: 9: 108.
6. Qur'an 2:190; 2:205; 3:57; 16:23; 22: 38; 28:77; 31:18; 42:40; 57:23.
7. Qur'an 3:31; 2:152.
8. Qur'an 2:165; 7:65; 9:24; 20:39.
9. Qur'an 2:186; 50:16; 56:85.
10. Qur'an 22:40.
11. Qur'an 5:64.
12. Qur'an 9:67; 58:19; 59:19; also see 7:51; 32:14; 45:34.
13. Qur'an 2: 272; 6:90; 88:21-22;12:104; 16:44; 36:69; 38:87; 51:55; 68:52; 73:19; also see 87:9; 80:4.

14. Qur'an 25:43; 28:50; 30:29; 45:23; 47:14.
15. Common throughout the Middle East, and in particular in Syrian, Jordan, and Pakistan, honor killings where a male family member, often a brother or father, kills a female member of his family, often a sister or a daughter, for having engaged in any "inappropriate" sexual relations. Because the inappropriate sexual relations in which the female engaged shamed the family, the act of killing her is said to resistance her family's honor in the eye of society and God.

CHAPTER 7: THE NATURE OF LAW AND MORALITY

1. On the very selective readings of Hanbali sources by Salafi and Wahhabi groups, see al-Sayyid Muhammad al-Kuthayri, al-Salafiyya bayn Ahl al-Sunna wa al-'Imamiyya (Beirut: al-Ghadir li'l Yiba'a, 1997) 352-54, 473-501.
2. Remarkably, puritan Shi'I movements are no less selective and opportunistic with the Ja'fari school of thoughts. Despite the sectarian differences, puritan Shi'is and puritan Sunnis, although they are extremely intolerant of one another and despise one other, adopt the same substantive positions and reach nearly identical conclusions.
3. Sahih al-Buthari is a multivolume compendium of Sunna and hadith arranged by topic. This compendium was collected Muhammad bin Isma'il al-Bukhari (d.256/870), and it is considered to be the most reliable and accurate collection of Prophetic traditions by Sunni Muslims.
4. See the discussion of the al-GOhazali controversy in Chapter 3.
5. Qur'an 88:21-22.
6. Al-Suyuti, Asbab al-Nuzul, commenting on 2:256.
7. Qur'an 2:256; 10-99; 18:29.

CHAPTER 8: APPROCHES TO HISTORY AND MODERNITY

1. Shi'I Muslims honor and respect 'Ali, the Prophet's cousin, and they also admire 'Umar 'Abd al-'Aziz, but they are critical of the first three caliphs because they believe that 'Ali, as a member of the Prophet's family, had a stronger claim to governance than they did. The label "Rightly Guided Caliphs" was invented in part as a response to Shi'I criticism, in order to affirm the equal worth of four caliphs and thus defend Abu Bakr, 'Umar, and 'Uthman against Shi'i challenges to their political legitimacy as rulers.
2. To name jut few, Saudi Arabia, Egypt, Syria, Jordan, Algeria, Tunisia, Sudan, Mauritania, Pakistan, Uzbekistan, and Indonesia all have despotic regimes, and they have abysmal human rights records, and all these countries have produced more than their fair share of puritans.
3. At-will employment is a legal expression connoting an employment relationship according to which the employer retains or fires and employee at his/her sole will discretion. Most employments relationships in the United States are at-will.

CHAPTER 9: DEMOCRACY AND HUMAN RIGHTS

1. Among others, Samuel Huntington used the expression "false universalism" in arguing that Western belief in the universality of Western values is both immoral and dangerous. See Samuel Huntington, The Clash of Civilization: Re-making of World Order (New York: Touchstone Press, 1996), 310.
2. Qur'an 17:70.
3. Qur'an 4:97.

4. Qur'an 3:64.

CHAPTER 10: INTERACTING WITH NON-MUSLIMS AND SALVATION

1. Qur'an 49:13.
2. Qur'an 11:118-19.
3. Qur'an 10:99.
4. Qur'an 2:145.
5. Qur'an 5:49.
6. Qur'an 29:46.
7. Qur'an16:125.
8. Qur'an 3:64.
9. For instance, Qur'an 25:63; 28:55; 43:89.
10. Qur'an 5:2.
11. Qur'an 5:43-48.
12. Qur'an 5:69; 2:62.
13. Qur'an 3:128-29. Also see 88:21-22.
14. Qur'an 22:67-68.
15. Qur'an 21:107.
16. Qur'an 2:105; 3:74; 35:2; 38:9; 39:38; 43:32.
17. Qur'an 22:34.
18. Qur'an 5:69; 2:62.
19. Qur'an 3:199.

CHAPTER 11: JIHAD, WAREFAARE, AND TERRORISM

1. Christendom, or more accurately Western Christendom, as a legal and theological concept defined by the papal authority in Rome, played a critical role in the four Crusades, which were sanctioned by the pope, and also in what has been called the military missionizing of pagan tribes in the region of northeastern Germany, the territories of the Salve, Liv, and Lett tribes, and the rest of Eastern Europe. Military missionizing was a polite expression invented by historians to describe the widespread practice, sanctioned by the pope, of forcing pagan and heathen tribes to convert to Christianity. These forced conversations were described by papal authorities and Catholic apologists as defending and extending the lands of Western Christendom. See Geoffrey Hindley, the Crusades: Islam and Christianity in the Struggle for World Supremacy (New York: Carroll and Graf, 2003), 195-67.
2. In the medieval world order, these options were not unusual. The paying of tribute to avoid military conflict was accepted practice to the extent that when in 1147, in the context of fighting the pagan Slavs, Bernard of Clairvaux urged Christian forces not to accept tribute while stating. "We utterly forbid that for any reason whatever a truce should be made with these peoples, either for the sake of money, or for the sake of tribute, until such a time as, by God's help, they shall be either converted or wiped out"————historians and Christian theologians considered this statement very extreme and problematic. As in the Islamic context, the playing of a monetary sum by the weaker to the stronger party was the usual practice even in concluding peace treaties. See Jonathan Phillips, The Crusades, 1095-1197(London: Pearson Education, 2002), 71-72.

3. On this subjects, see Khaled Abou El Fadl, "Islamic Law and Muslim Minorities: The Juristic Discourse on Muslim Minorities from the Second/Eighths to the Eleventh/seventeenth Centuries," Islamic Law and Society 1.no. 2 (1994): 141-87
4. On this subjects, see Khaled Abou El Fadl, "The Rules of Killing t War" An Inquiry into Classical Sources, "The Muslim World 89, no.2 (1999):144-57; Khaled Abou El Fadl, "Holy War Versus Jihad: A Review of James Johnson's 'The Holy War Idea in the Western & Islamic Tradition,' "Ethics and International Affairs 14(2000): 133-40.
5. Qur'an 6:54; 43:89; 36:58. The expression "God has decreed upon God's Self" is rather ambiguous, and it inspired a considerable debate in the Islamic tradition. Muslim scholars agreed that at a minimum the expression is intended to emphasize the critical importance of mercy in Islam. If God has committed Himself to be merciful in all matters, those who seek to pursue Godliness in their lives must do the same. Confronted by any challenge or problem, they must commit themselves to act in the most merciful way, and they should not be misled by anger, hostility, or vengeance to abandon mercy as the rightful course o action in any given situation.
6. Qur'an 5:8.
7. Qur'an 5:2.
8. For instance, Qur'an 2:190; 5:87; 7:55.
9. Qur'an 2:192-93.
10. Qur'an 2:195.
11. Qur'an 41:34-36.
12. Qur'an 7:199.
13. Qur'an 6:108.
14. Qur'an 22:40.
15. Qur'an 5:64.
16. For instance, see Qur'an 2:27; 2:205; 5:32.
17. Qur'an 2:27.
18. Qur'an 13:25.
19. Qur'an 22:39; 60:8; 2:246.
20. Qur'an 2:190; 2:194; 5:87.
21. Qur'an 60:9.
22. Qur'an 8:61.
23. Qur'an 4:90.
24. Qur'an 4:94.
25. Qur'an 4:90.
26. For those interested in this abrogation argument and its logic, see Abid Ullah Jan, "The Limits of Tolerance," in The Place of Tolerance in Islam, ed. Joshua Cohen and Ian Lague (Boston: Beacon Press, 2002): 42-50.
27. Qur'an 6:164; 17:15; 35:18; 39:7; 53:38.
28. Today, Saudi Arabia and to a lesser extent and Nigeria are the only Muslim countries that enforce the stoning penalty. Most Muslim countries have found stoning to be cruel and shocking to the modern conscience. Puritans consider this a sign of moral weakness, while moderates consider it to be a form of moral growth.

CHAPTER 12: THE NATURE AND ROLE OF WOMEN

1. On the modern origins of the mutawwa'un, and their often violent practices, see Michael Cook, "The Expansion of the First Saudi State: The Case of Washm," in C.E. Bosworth and others, eds., Essays in Honor of Bernard Lewis: The Islamic World from Classical to Modern Times (Princeton University Press, 1989), 672-75; and Ameen Fares Rihani, The Maker oOf Modern Arabia (New York: Greenwood Publishing, 1983), 203. William Gifford Palgrave, Personal Narrative of a Year's Journey Through Central and Eastern Arabia (London: Gregg Publishers, 1883), 243-50, 316-18, reports that reign of King Faysal bin Turki (r. 1249-1254/1834-1838 and 1259-1282/1843-1865), in response to a cholera outbreak, twenty-two so-called zealots were selected to combat vice in Mecca and elsewhere. Apparently, this was beginning of the system of the matawwa'un. Also see Michael Cook, "On the Origins of Wahhabism," Journal of the Royal Asiatic Society 3, no. 2 (1992).
2. on the tragedy, its causes, and its aftermath, see Eleanor Doumato, "Saudi Sex-segregation Can be Fatal," http://www.projo.com/opnion/contributors/content/projo_20020331_ctdou31.1032e23f.html (Mar. 31, 20021); Tarek Al-Issawi, "Saudi Schoolgirls' Fire Death Decried," Washington Times, Mar. 18,2002, at http://www.washtimes.com/world; Mona Etahawy, "They Died for Lack of a Head Scarf," Washington Post, Mar. 19, 2002, at http://www.washingtonpost.com/ac2/wp-dyn?pagename=article&node=&contentld=A47458-2002Mar18&notfound=true "Muslims Allow Girls to Burn to Death in So-called Moderate Saudi Arabia," The Welch Report, Mar. 18, 2002, at http://www.welchreport.com/pastnews_c.cfm?rank=287; Saudi Police Stopped Fire Rescue, "BBC News, Mar. 15, 2002, at http://news.bbc.co.uk/2/hi/middle_east/187471.stm.
3. Qur'an 5:32.
4. On the doctrine of necessity (darura) see Subhi Mahmassani, The Philosophy of Jurisprudence in Islam, trans. Farahat Ziadeh (Leiden: E. J. Brill,1961), 152-59; Mohammad Hashim Kamali, Principles of Islamic Jurisprudence (Cambridge, UK: Islamic Texts Society, 191), 267-81. Also see Khaled Abou El Fadl, Speaking in God's Name: Islamic Law, Authority and Women (Oxford: Oneworld Press, 2001), 196-97; Khaled Abou El Fadl, "Constitutionalism and the Islamic Sunni Legacy," UCLA Journal of Islamic and Near Eastern Law 1, no. 1 (Fall/Winter 2001-2002): 86-92.
5. Qur'an 33:59.
6. For a systematic analysis of this issue, see Abou El Fadl Speaking in God's Name, 170-249.
7. The honorific title Shykh does not always refer to jurists. Sometimes it is a designation given to the elderly or to respected members of society. Every jurist is a shaykh, but not every shaykh is a jurist.
8. Ali Al-Ahmed. "Author of Saudi Curriculums Advocates Slavery," http://www.arabiannews.org/english/article.cfm?qid=132&sid=2, Dec. 4, 2003.
9. These domestic workers are typically female and they came from a variety of countries, including India, Bangladesh, the Philippines, and Sri Lanka.

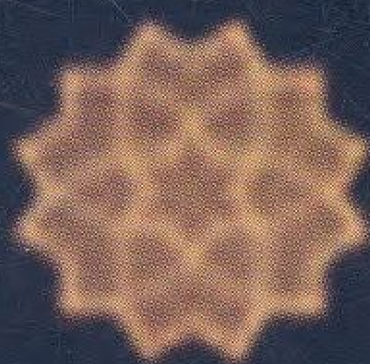
10. Puritans ignore the fact that it was not just Western countries that championed the various international conventions prohibiting the practice of slavery. All of the world's nations became signatories to treaties prohibiting slavery in all its forms. The prohibition of slavery is a universal ethical norm.
11. See Muhammad bin 'Abd al-Wahhab, Mu'allafat alShaykh al-Imam Muhammad bin 'Abd al-Wahhab: Qism al-Hadith (Riyadh: Jami'at al-Imam Muhammad bin Sa'ud al-Islamiyya, n.d.), pt. 4,141-51.
12. Al-Sadiq 'Abd al-Rahman al-Ghiryani, Fatwa min Hayat al-Mar'ah al-Muslimah (Beirut: Dar al-Rayyan, 2001): 47, 95-60, 62, 63, 77, 82-83, 86-87, 111-12, 116-17, 112, 130, 137-38, 146, 149.
13. Qur'an 4:32.
14. Qur'an 2:228.
15. Qur'an 9:71.
16. On the active role of women in Medina at the time of the Prophet, see Muhammad Ibn Sa'd, The Women of Medina (London: Ta-Ha Publishers, 1997). The Prophet's first wife, Khadija, was much older than he was. After Khadija died the Prophet took several wives, all of whom he married for political reasons or to provide them social security and safety.
17. See al-Suyuti, Asbab al-Nuzul, in his discussion of Surat al-Nisa'
18. Qur'an 4:32.
19. Qur'an 4:34.
20. Qur'an 13:11; 8:53; 12:11.
21. Qur'an 2:231. These traditions and others discussed below are discussed in the major Qur'anic commentaries and in all of the books on the topic of occasions for revelation. For a source that succinctly summarizes these traditions, see al-Suyuti, Asbab al-Nuzul, which mentions these traditions in commenting on 2:229 and 2:231.
22. Qur'an 2:229.
23. Qur'an 2:231.
24. Qur'an 4:19. The occasion for revelation is mentioned in al-Suyuti, Asbab al-Nuzul, in his discussion of Surat al-Nisa'.
25. This is mentioned in al-Suyuti, Asbab al-Nuzul, discussing verse 4:4.
26. Qur'an 2:229; also see al-Suyuti, Asbab al-Nuzul, commenting on this verse.
27. Qur'an 2:241; also see al-Suyuti, Asbab al-Nuzul, commenting on this verse.

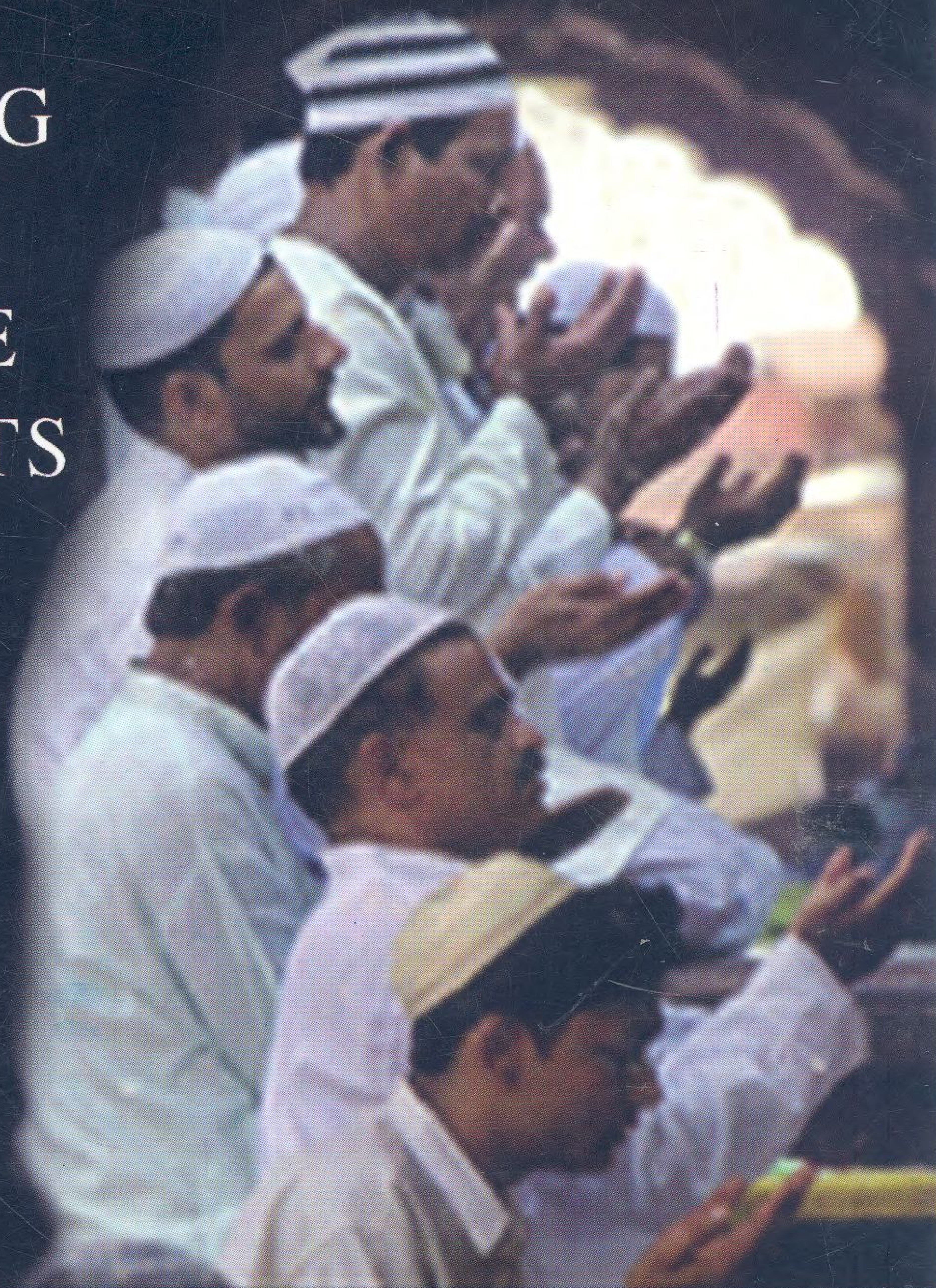
CONCLUSION

1. For a book that succinctly summarizes the enormous humane contributions of the Islamic civilization and their impact on the Western civilization, see D. M. Dunlop, Arab Civilization to AD 1500 (Harlow, UK: Longman, 1971).

THE GREAT THEFT

WRESTLING ISLAM FROM THE EXTREMISTS









HALED ABOU EL FADL